

عبد الله سليمان الجريوع
١٦
٢٤٠٦

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



أنزل الله السلام في موتهم على الشعر لله موسى

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب



٢٠٣١١٨

إعداد الطالب

عبد الله بن محمد العضيبي

إشراف:

الدكتور عبد الله بن سليمان الجريوع

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م



" بسم الله الرحمن الرحيم "

" شكر وتقدير "

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه " صدق الله العظيم .

وبعد . . .

لا يسعني إلا أن أشكر جامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية التي أتاحت لي فرصة الانتماء إليها لإكمال دراساتي العليا .
كما أخص بالشكر والعرفان استاذي الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع الذي رعى هذا البحث في كل خطوة من خطواته ، والذي كان بمتابعته المستمرة له ، دافعاً لي للاستمرار فيه حتى اكتمل بصورته النهائية ، فجزاه الله عني خير الجزاء على كل ما بذله من جهد ووقت .
كما أخص بالشكر أيضاً ، الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة ، على ما سوف يبذلونه من جهد ومتابعة في تقويم هذه الرسالة ، وما سيتفضلون به من توجيه وإرشاد سيكون محل عنايتي واهتمامي بإذن الله .
..... والله وليّ التوفيق

المكتبة

” المقدمة ”

—————

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :

يعد العصر الأموي واحداً من أكثر عصور الأدب العربي ازدهاراً في نتاجه الشعري ، إذ عادت الحركة الشعرية إلى التوهج والتألق بعد الخفوت الملموس الذي أصابها في نهاية العصر الجاهلي وفي عصر صدر الإسلام . وقد كان الدور الأكبر في ذلك يعود إلى المتغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على الحياة العربية في العصر الأموي ، والتي تمثلت في تغيير الأمويين نظام الخلافة بجعلها أمراً وراثياً فيهم بعد أن كانت تقوم على الشورى ، وفي انغماس بعض الأمصار الإسلامية في حالة من الترف واللهو ، إضافة إلى عودة العصبية القبلية إلى الظهور لتعيث بحياة العرب من جديد . لقد ساهمت هذه المتغيرات في خلق حركة شعرية نشطة خلفت لنا شعراً كثيراً ، ووطورت لنا أشكالاً وأغراضاً جديدة في الشعر لم تكن مألوفاً من قبل . ففي العصر الأموي برز الشعر السياسي ، وازدهر الهجاء واتخذ لوناً جديداً لم يعرف في العصور السابقة ، وفيه نبغ أعظم شعراء الحب العذري والإباحي ، كما نشأ فيه الفن الخمري عند الوليد بن يزيد . ومن واقع هذا الثراء في النتاج الشعري للعصر الأموي تأتي أهمية دراستنا لهذا العصر دون غيره من العصور الأدبية الأخرى .

يقول طه حسين : " إن في الشعر العربي لهذا العصر كنوزاً خليقة
أن تستكشف وأن تدرس على وجهها ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون " (١)
ويعود اختياري لموضوع " أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي "
لأسباب عديدة لعل من أبرزها :

(١) كون الشعر الأموي نشأ ونظم في بيئة إسلامية ، فهو لهذا يعتبر
أول شعر تأثر بشكل محسوس بالإسلام ، بجانب أنه لم يشك في صحته ،
ولم يختلف في روايته كما هو الحال بالنسبة للشعر في عصر صدر
الإسلام .

(٢) على الرغم من أن الشعر في العصر الأموي كان محل اهتمام
الدارسين ، وكان مجالاً خصباً للكثير من الدراسات الأدبية
المتنوعة التي عنت بالكشف عن ملامحه ، إلا أن الباحث يرى أنها
قد أهملت جانباً مهماً لم تعط له الاهتمام المطلوب ، ويتمثل ذلك
في دراسة الملامح الجديدة التي طرأت على مضمون الشعر في
تلك الفترة من واقع تأثير الإسلام عليه ، لما يعطيه ذلك من دلالة
على تفاعل الشاعر الأموي مع قيم الإسلام وتعاليمه ، ورغم أننا نلتقي
ببعض الدراسات التي تعرضت لهذا الموضوع في بعض جوانبها ،
إلا أن الباحث لا يكاد يجد دراسة قد أفردت نفسها لهذا الجانب .

(٣) إن بعض الدارسين يحاول التشكيك في وجود أثر إسلامي في
الشعر الأموي ، والزعم بأنه جاهلي الشكل والمضمون ، وهذا ما

يفهم من قول بروكلمان " ولم يؤثر الإسلام تأثيراً عميقاً في شعراء العرب ، كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك . فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين ، ولم تسد روح الإسلام حقاً إلا بعد ظهور العباسيين " (١) .
فقد كنت أهدف إلى تفنيد هذا القول ، وإثبات بطلانه ، والتأكيد على أنه صادر عن قراءة ضيقة للشعر الأموي .
وقد قسمت هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة أبواب بين مقدمة وخاتمة .
أما التمهيد فقد تناولت فيه المتغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على الحياة العربية في العصر الأموي وأثرها على الحركة الشعرية آنذاك .
أما الباب الأول فقد جعلته في فصلين ، خصصت الأول منه لدراسة العوامل المؤثرة التي ساعدت على بروز أثر الإسلام في الشعر الأموي عنه في عصر صدر الإسلام .
أما الفصل الثاني فقد درست فيه تطور القصيدة العربية في العصر الأموي على هدي الإسلام ، وذلك من خلال دراسة بعض القصائد الشعرية الفريدة التي اتسمت ببروز الأثر الإسلامي فيها .
وأما الباب الثاني وهو موضوع هذا البحث ، فقد كان في أربعة فصول :

أما الفصل الأول فتناولت فيه الشعر السياسي عند شعراء الأحزاب السياسية من أمويين وزبيريين وشيعية وخوارج .

وأما الفصل الثاني فكان عن الغزل بلونيه العذري والصريح، وتعرضت في الفصل الثالث لشعر الهجاء .

وأما الفصل الرابع والأخير في هذا الباب ، فقد تطرقت فيه إلى بعض الموضوعات الشعرية الأخرى التي لم تتح لي الفرصة لدراستها ففي ثنايا البحث أوكان إلمامي بها سريعا ، وتمثلت في الفخر ، وشعر الصعاليك ، والزهد ، والوصف .

وأما الباب الثالث فقد تفرغت فيه لأثر الثقافة الإسلامية في الشعر الأموي .

وقد خصصت الفصل الأول للعقيدة والعبادات والأخلاق والمثل الإسلامية .

وجعلت الفصل الثاني للأحكام الفقهية ، والحدود الشرعية .

وأما الفصل الثالث فكان حول القصص القرآني .

وفي خاتمة البحث أوجزت القضايا التي تعرضت لها الدراسة ، والنتائج التي توصلت إليها .

أما مصادر هذا البحث فقد تمثلت في الدواوين والمجاميع الشعرية التي تخص شعراء العصر الأموي ، إضافة إلى بعض مصادر الشعر العربي القديمة كالآغاني والشعر والشعراء وغيرهما ، كما استفدت فيه من مصادر

المستطاع من بعض الدراسات الأدبية المختلفة التي تناولت الشعر في تلك الفترة .

ولعل من الطبيعي أن يمر مثل هذا البحث ببعض الصعوبات التي لا يمكن للباحث أن يجتازها إلا بالصبر والمثابرة . ولعل أهم ما لقيته منها هو عدم توفر بعض الدواوين والمجاميع الشعرية في الفترة الأولى من البحث بل إنني لم أعتز على بعضها إلا في فترة متأخرة ، ومن المعلوم ما يحدثه هذا من إعادة لكتابة بعض الفصول .

وقبل أن أختم هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أشكر استاذي الدكتور عبد الله الجربوع المشرف على هذه الرسالة ، والذي أعطاني من جهده واهتمامه ووقته الشيء الكثير طوال فترة كتابة هذه الرسالة ، والذي كان بتوجيهاته السديدة دافعاً لي للاستمرار فيها حتى اكتملت فصولها ، فجزاه الله عن كل خير .

وأخيراً فإنني أرجو أن يكون التوفيق قد حالفني في فصول هذا البحث ، وإن لم يكن ذلك فعذري أنها تجربتي الأولى في عالم البحث العلمي الصحيح ، وقد اجتهدت فيها قدر استطاعتي ، والكمال لله عز وجل ، وهو وليّ التوفيق . ،،،

التمهيد

المتغيرات السياسية والاجتماعية وأثرها في الشعر الأموي

كانت الحياة العربية قبل الإسلام تقوم على النظام القبلي ، الذي تشكل فيه القبيلة كياناً مستقلاً عن سائر القبائل الأخرى في جميع شئونها السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية . ومن هنا كانت بحاجة إلى صوت يتكلم باسمها ويميز مكانتها ، لهذا كان للشاعر مكانة كبيرة ، ومنزلة رفيعة في تلك المجتمعات القبلية ، فهو وسيلة الإعلام الوحيدة آنذاك ، والصوت الذي يعبر عن أفكار جماعته ، فيذيع مفاخرهم ، ويسجل انتصاراتهم ، ويحمي أعراضهم ويهجو خصومهم . مما جعل نبوغ شاعر في إحدى القبائل مصدر سعادة وفخر لها . ودافعاً طبيعياً لفرحتها تستحق عليه التهنئة .

يقول ابن رشيقي :

" كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم . وكانوا لا يهينون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . " (١)

وهذا الاهتمام الذي توليه القبيلة شاعرها . قد يجعلها تتناقل قصيدته جيلاً بعد جيل . فقد كانت قبيلة تغلب تحفظ نونية شاعرهم عمرو بن كلثوم ، وترددها في مجالسها ، حتى قال فيهم الشاعر :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يَزُورُنَهَا أَبَدًا مَذْكَانٌ أَوَّلُهُمْ بالرجال لشعر غير مسؤول (١)

وقد كان الشعر - بجانب دوره القبلي - سجلاً لأيام العرب ، وأعمالهم ومآثرهم ، ومستودعاً لإبداعاتهم الفكرية ، فهو أهم رموزهم الحضارية . قال أبو عمرو الجاحظ : " فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال . وكانت العرب تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها " (٢)

وقال ابن سلام : " وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون . . . قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه " (٣)

وقد أعطت المصادر الأدبية القديمة - فيما روته من أخبار - صورة أخاذة للذو الذي كان يلعبه الشاعر في نفوس الأفراد والجماعات . فقد كان قادراً على أن يرفع من قيمة المرء مهما كان وضعاً . فالأعشى عند ما مدح المحلى

(١) الأغاني ٥٤/١١ ، الممتع ص ٧٤

(٢) الحيوان ٧١/١ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٢٤/١ .

- وكان رجلاً فقيراً مغموراً - منحه شهرة عريضة لم يكن يحلم بها ، وحقق له ما كان يطمح إليه . فقد روي أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة - وقيل : بل أم - فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفعّ ، محدود في الشعر ، ما مدح أحداً إلا رفعه ، ولا هجا أحداً إلا وضعه ، وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذوبنات ، وعندنا لقحة نعيش بها ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ، ونحرت له ، واحتلت لك فيما تشتري به شرباً يتعاطاه ، لرجوت لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلق ، فأنزله ونحله ، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نخباً فيه سمن وجاءت بوطب لبن ، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان في عصابة قيسية قدّم إليه الشراب ، واشتوى له من كبد الناقة ، وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أَرَقْتُ وَمَا هَذَا السَّهَادُ الْمُؤَرِّقُ وَمَا بِي مِنْ سَقَمٍ وَمَا بِي مَعْشَقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس ، فوقف يستمع ، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نَفَى الدَّمَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ ، وَبَيْنَهُمْ مَعَ الْقَوْمِ وَلَدَانٌ مِنَ النَّسْلِ دَرْدَقُ (١)
..... فما أتمَّ القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئون ، والأشراف
من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ؛ لِمَكَانِ شَعَرِ الْأَعَشَى
فَلَمْ تَمَسْ مِنْهُمْ وَاحِدَةً إِلَّا فِي عَصْمَةِ رَجُلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَبِيهَا أَلْفَ ضِعْفٍ (٢)
وكانت العرب تتحاشى التعرض للشاعر؛ خوفاً من هجائه ، الذي قد
يدفع بعضهم إلى البكاء . "ولأمر ما بكى العرب بالدروع الغزار من وقع الهجاء"
وهذا من أول كرمها ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن علاثة
وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخدّاش بن زهير (٣) .
ولم يكن الاهتمام بالشعر مقصوراً على الأفراد وقبائلهم . فقد كان ملوك
العرب في الجاهلية يعتنون به أشد الاعتناء . فكان عند النعمان بن المنذر
- على سبيل المثال - ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته
بـه (٤) .

(١) رواية الديوان : ص ٢٢٥ " ودونهم من القوم " مكان " وبينهم
مع القوم " .

(٢) العمدة ٤٨/١ .

(٣) الحيوان ٣٦٤/١ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ .

وهذه المكانة الرفيعة التي كان يستأثر بها الشعر في نفوس العرب ساعدت - دون شك - على أن يكون النتاج الشعري لتلك الفترة غزيراً . فأبو الفرج يشير إلى أن حماداً الراوية كان يحفظ على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية (١) .

كما أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار العرب أربعة عشرة ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات (٢) .

وعلى الرغم مما في هذه الأقوال من المبالغة ، إلا أنها تعطي تصوراً معيناً عن ازدهار الشعر في العصر الجاهلي .

ويؤكد ذلك أبو عمرو بن العلاء حين يقول : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير " (٣) .

وفي العصر الأموي كان للمتغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على الحياة الإسلامية آنذاك دور فعال في تنشيط الحركة الشعرية ، عما كان عليه الحال أيام عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . إذ خفت صوت الشعر ، وزال سلطان الشاعر ونفوذه . ولم يكن ذلك بسبب انشغال العرب بالجهاد - كما اعتقد ابن سلام (٤) ومن وافقه من الباحثين - (٥) ، ولا لوجود

(١) الأغاني ٧١/٦

(٢) الوفيات ١٢/٢ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ .

(٤) نفسه ٢٥/١ .

(٥) انظر مثلاً : تاريخ الشعر العربي ص ١١٤ ، أدب الخوارج ص ١٤٠ .

موقف عدائي من الإسلام للشعر . وإنما حدث ذلك نتيجة طبيعية لتضافر عوامل عديدة من أهمها :

أولاً : موقف الشعر العدائي من الإسلام والمسلمين في بداية مراحل الدعوة الإسلامية . إذ اتخذته المشركون سلاحاً يهاجمون به الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته ، مما جعل المسلمين ينظرون إليه بعين الكره فيما بعد ولهذا وجدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد الشعر في المسجد فلا يجد من يستمع إليه (١) .

ثانياً : إنشغال المسلمين بالقرآن الكريم ، وإقبالهم عليه . يتدبرون آياته ويستجلون أوامره ونواهيه ، ليطيعوا حياتهم على منهاجه المنير ، ومثلثه الرفيعة .

كما أن إعجازه البياني الذي يتناهى في السمو قد أشبع ميولهم الأدبية، وأرضى ملكاتهم اللغوية. والإعجاب بالبيان أحد دواعي اهتمامهم بالشعر . ولهذا نجد لبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم يقول : بعد إسلامه بفترة :
" أبدلني الله بذلك القرآن " (٢) وعندما استنشدته عمر بن الخطاب شعراً

(١) الأغاني ١٤٤/٤

(٢) الطبقات الكبرى ٣٣/٦ .

يقرأ سورة البقرة ويقول : " ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران " (١) . فهذا هو تأثير القرآن على أحد الشعراء الفحول فكيف يكون تأثيره على عامة الناس !

ثالثاً : إن الإسلام جاء يحمل قيماً وتعاليم جديدة ، أراد لها أن تحكم الحياة البشرية في جميع سلوكها . فغضّ من شأن بعض الأغراض الشعرية التي لا تتفق مع تعاليمه ، كالمديح الكاذب ، والهجاء والغزل الفاحش . فكان لابد للشعراء أن يستجيبوا لذلك . فمنهم من حاول الاستجابة فقصر شعره على ما يتفق مع تعاليم هذا الدين . والأغلبية آثرت الصمت لأن مفاهيمها الجاهلية في هذا الفن قد غلبت عليها . ومعلوم أن هذه الأغراض تمثل الواجهة العريضة للنتاج الشعري في العصر الجاهلي ، بل وفي سائر عصور الأدب العربي .

رابعاً : إن موقف الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - من الشعر والشعراء لم يكن مشجعاً . فقد انتهى دورهم بفتح مكة ، ولهذا فقد أنزلوا عقوباتهم الصارمة بكل شاعر استعمل موهبته في أغراض تتنافى مضامينها مع تعاليم الإسلام .

(١) الشعر والشعراء ٢٨١/١ ، طبقات فحول الشعراء ١٣٥/١ .

فعمربن الخطاب حبس الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر ، (١)
وهدد النجاشي الحارثي بقطع لسانه إن عاد إلى الهجاء (٢) ، كما حظر
على الشعراء ذكر النساء والتشبيب بهن (٣) كما جعل حميد بن ثور الهلالي
يلجأ إلى الرمز للتعبير عن ذلك .

وقد سار على نهجه عثمان بن عفان . فقد حبس ضابط البرجمي
حين ترك للسانه العنان فرمى أمّ بعض بني جرول بن نهشل بالكلب (٤) ،
وتركه في الحبس حتى مات فيه . كما توعد سويد بن كراع حين هجا قومه ،
وأخذ عليه ألا يعود إلى ذلك (٥) .

أما علي بن أبي طالب فإنه نصح غالباً أبا الفرزدق الشاعر الأموي
الشهير أن يعلم ابنه القرآن فهو خير له من الشعر (٦) .

ولم يقف تأثير المتغيرات السياسية والاجتماعية في العصر الأموي عند
ازدهار الشعر فقط . وإنما أسهمت تلك العوامل في توجيه أغراضه ،

-
- (١) الشعر والشعراء ٣٣٣/١ ، طبقات فحول الشعراء ١١٦/١ .
(٢) العمدة ٥٢/١ ، الشعر والشعراء ٣٣٨/١ .
(٣) الأغاني ٣٥٦/٤ .
(٤) طبقات فحول الشعراء ١٧٣/١ ، الشعر والشعراء ٣٥٧/١ . خزنة
الأدب ٣٢٥/٩ .
(٥) الشعر والشعراء ٦٣٩/٢ .
(٦) معجم الشعراء ٤٨٦ .

وساعدت على ظهور بعض التيارات الشعرية ، وبروزها بشكل واضح .
وتمثل ذلك في الشعر السياسي ، وتطور فن النقائض ، والغزل بلونيه
العذري والصريح . ولابد لنا من وقفة أمام تلك المتغيرات ، وما صاحبها
من شعور ساهم بلاشك في تنشيط الحركة الشعرية في العصر الأموي .

أولاً : المتغيرات السياسية :

عند انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لم يكن
قد عين خليفة له للقيام بأمور المسلمين ورعاية مصالحهم من بعده ، بل
ترك ذلك الأمر لهم ليختاروا من بينهم من يعتقدون كفاءته وأهليته لذلك .
وبعد اجتماع السقيفة وما واكبه من جدال بين المهاجرين والأنصار حول
اختيار الخليفة . استقر أمرهم على اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين وبايعوه
بذلك .

وعندما أحس أبو بكر رضي الله عنه بدنو أجله ، كان لا يزال راسخاً في
ذاكرته ذلك الاختلاف الذي حدث بين الصحابة بعد وفاة الرسول صلى الله
عليه وسلم ، وقبل مبايعته ، وخاف أن يتكرر ذلك بعد وفاته لو ترك الأمر
معلقاً . ولهذا فكر في أن يختار خليفة له . وقد وقع اختياره على
الفاروق عمر بن الخطاب لفضله وسابقته ، فهو أحد الذين أعز الله بهم

الإسلام ، وهو أهل للقيام بذلك الأمر . وقبل اختياره عمد أبو بكر إلى استشارة بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان اللذين صوباً رأيه . فكتب عهده لعمر ذلك العهد الذي جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن المرتاب الفاجر ، ويصدق الشاك المكذب : وإنسي استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا . فإنني لم آل الله ورسوله ، ودينه ، ونفسي ، وإياكم خيراً . فإن عدل فذاك ظني به وعلمي فيه . فإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب . والخير أردت . وما يعلم الغيب إلا الله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (١) . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " (٢)

وعند ما طعن عمر بن الخطاب سأل الصحابة أن يستخلف عليهم ، وأشار عليه بعضهم أن يجعلها في ابنه عبد الله غير أنه رفض ذلك ، وسلك سبيلاً جديداً في اختيار خليفته . فلم يستخلف شخصاً بعينه اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك الأمر معلقاً اقتداءً بأبي بكر . وإنما اختار أصحاب الشورى الستة : عثمان ، وعلي ، وسعد ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وطلحة

(١) سورة الشعراء ٢٢٧ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٢٦ .

وهم الذين مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال إنهم من أهل الجنة . وجعل عمر ابنه عبد الله مستشاراً لهم ؛ لكي يرجع كفة فريق على آخر في حالة تساوي الأصوات ، وأمرهم أن يناصروا من يولونه وأن يكونوا عوناً له ، وأن يتفقوا خلال ثلاثة أيام على واحد منهم . وحرصاً منه على عدم اختلاف كلمة المسلمين عهد إلى المقداد أنه إذا خالف واحد أو اثنان شدخ رأسيهما ، فإن تعادلا مالوا إلى الصف الذي مال إليه ابن عمر ، فإن لم يرضوه فالى الصف الذي فيه عبد الرحمن بن عوف ، فإن رغب الباقون قتلوا . وقد استقر قرار أصحاب الشورى على تعيين عثمان بن عفان خليفة للمسلمين (١) .

وعقب أحداث الفتنة التي استشهد فيها عثمان أصبح علي بن أبي طالب خليفة له . بعد أن بايعه بذلك أغلبية المسلمين في المدينة .

والذى يتتبع الطريقة التي انتقلت بها الخلافة في عهد الراشدين يرى أنها وإن لم تلتزم طابعاً تنظيمياً معيناً، إلا أنها كانت تقوم على الشورى التي يدعو إليها الإسلام .

وبعد مقتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هـ . صارت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بعد أن تنازل عنها الحسن بن علي حقناً لدماء المسلمين ، ولأنه وجد نفسه لا قبل له بمعاوية وجنده .

فكان وصول معاوية إلى الخلافة عن طريق القوة ، والدهاء ، والسياسة . وليس عن طريق الشورى كما كان الأمر في عهد الخلافة الراشدة .

وقد عمل معاوية على إلغاء نظام الشورى عندما قرر تعيين ابنه يزيد ولياً لعهد . وهو المعروف بسوء أخلاقه . وقد أسهم بذلك في ازدياد نشاط حركة المعارضة ضد الأمويين تلك المعارضة التي تمثلت في ثلاثية أحزاب كبرى هي :

١ - الزبيريون :

تزم هذا الحزب عبد الله بن الزبير الذي دعا إلى نفسه في عهد يزيد بن معاوية عام ٦٣ هـ . معبراً عن رفض أبناء الصحابة لجعل الخلافة وراثية مقصورة على أبناء الأمويين . وقد استطاع الزبيريون في فترة قصيرة من حكمهم أن يمدوا نفوذهم من الحجاز مركزهم الرئيسي إلى العراق ومصر وإلى الشام معقل الأمويين ، وكادوا يقضون على الدولة الأموية .

وقد ساعد على انتشار الدعوة الزيرية ما عرف عن عبد الله بن الزبير من صلاح وتقوى وقيام بأمر الدين مما أعطاه حب المسلمين وتأيدهم . يقابل ذلك ما عرف عن يزيد من سوء أخلاقه ، وما حدث في تلك الفترة من حوادث جسام . ولا سيما مقتل الحسين بن علي ، واستباحة المدينة من قبل جيش يزيد بعد قتل عدد كبير من أهلها في موقعة الحرة ، وحصار مكة ورمسي الكعبة بالمنجنيق ، بجانب المعاملة السيئة التي كان يعامل بها ولاية بني أمية أهالي الولايات مما دفع هؤلاء إلى كره الأمويين ، والتفكير في الخلاص منهم بالانضمام إلى خصومهم . غير أن هذا الحزب لم يستمر طويلاً فقد توالى عليه النكسات تباعاً ، إذ قضى مروان بن الحكم على نفوذه في الشام بعد هزيمته لأنصار الزيريين هناك في موقعة مرج راهط . ثم واصل عبد الملك جهود أبيه فألحق بمصعب بن الزبير هزيمة ساحقة بدير الجاثليق حيث لقي مصعب مصرعه . إذ لم يستطع جيشه الصمود في وجه الجيش الأموي ، فقد انهكته حروب الخوارج من جهة ، وقتاله ضد المختار بن أبي عبيد الثقفي من جهة أخرى .

وقد وجه عبد الملك - عقب ذلك - الحجاج بن يوسف إلى الحجاز . حيث استطاع بعد حصاره لمكة أن يقضي على عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة . وبمقتله انتهى هذا الحزب الذي حكم فترة تسع سنوات وعشر ليال (١).

والزبيريون أنكروا على معاوية خروجه على نظام الشورى ، وذلك بتوليته ابنه يزيد ولياً للعهد من بعده . وهم يرون أن الخلافة يجب أن تكون في قريش ، وأن الحجاز هو مركزها الطبيعي .

٢ - الشيعة :

وتقوم فكرة التشيع على أن علياً وأولاده من بعده . هم أولى المسلمين بالخلافة وأنها لا تخرج عنهم (١) .

والبذرة الأولى للتشيع كما يرى أحمد أمين " هم الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته أولى الناس بأن يخلفوه وأول أهل البيت العباس عم النبي وعلي ابن عمه ، وعلى أولى من العباس " (٢)

وقد كان مقتل الحسين بن علي في موقعة كربلاء (- عاشوراء - ٦١ هـ) نقطة تحول كبير في تاريخ الشيعة . فقد كان لهذه الصدمة العنيفة أثر قوي في إذكاء نار التشيع في نفوسهم زاد من حدة عدايتهم للأُمويين ، وساعد على توحيد صفوفهم وكانوا متفرقي الأهواء . كما كان سبباً في انتماء

(١) الملل والنحل ٢٣٤/١ .

(٢) فجر الإسلام ص ٢٦٧ .

كثير من الفرس إلى هذا الحزب ، كما نقلت هذه الحادثة عقيدتهم السياسية من كونها نظرية فكرية إلى مجابهة مسلحة مع بني أمية (١) .

وقد كانت أول ردة فعل لهذه الحادثة المؤلمة ظهور حركسة التوابين بقيادة سليمان بن صرد ، تلك الحركة التي اصطدمت في عـين الوردة بجيش يقوده عبد الله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم لاستخلاص العراق . وقد لحقت بالشيعة هزيمة ساحقة قتل على أثرها قائد هم (٢) .

ثم ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي - زعيم السبئية - السـذي استغل ثورة التوابين لنيل أهدافه - فقد كان ذا طموح سياسي - ، فادعى أنه وزير محمد بن الحنفية مما جعل الشيعة تنضوي تحت لوائه . وقد استطاع أن ينتصر بهم على ابن زياد وأن يقتله مما زاد من تعلق الشيعة به . وهذا ما لم يرض عبد الله بن الزبير . إذ أرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب بعد أن ولّاه العراق . وقد استطاع مصعب أن ينتصر على المختار وأن يقتله مع سبعة آلاف رجل من أنصاره (٣) .

(١) تاريخ الإسلام ٣٩٩/١ .

(٢) أنساب الأشراف ٢٠٤/٥ .

(٣) مروج الذهب ١٠٧/٣ .

وقد أسهمت هذه الحرب في إرهاب جيش الزبيريين مما سهل على عبد الملك بن مروان وجيشه الانتصار عليه في دير الجاثليق .

وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن علي الذي كانت تنازعه نفسه في الخلافة ، وذلك في عام ١٢٢ هـ . وقد حاربه يوسف بن عمر الثقفي ، فلما قامت الحرب بين الفريقين انهزم أصحاب زيد ، وبقي فسي جماعة يسيرة ، فأصيب بسهم في جبهته قضى عليه . (١)

وقد أعقب ذلك ظهور يحيى بن زيد بن علي في الجوزخان ببلاد خراسان سنة ١٢٥ هـ في عهد الوليد بن يزيد . وقد أرسل إليه نصر بن سيار - والي الأمويين على خراسان - قائده سلم بن أحوز المازني ، فقتل يحيى في هذه المعركة بقرية يقال لها أرعونة (٢) .

وكانت هذه آخر الثورات الشيعية في العصر الأموي . ولعل السبب في قلة ثوراتهم يعود إلى أن أكثرهم كانوا يؤمنون بمبدأ التقية (٣) ويطبقونه في حياتهم .

(١) المصدر نفسه ٢١٨/٣ ، الطبري ١٨٠/٧ .

(٢) مروج الذهب ٢٢٥/٣ .

(٣) التقية : يراد بها المداواة ، كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد صحته ، فمن كان على دين أو مذهب ثم لم يستطع أن يظهر دينه أو مذهبه فيتظاهريه فذلك تقية . فجر الإسلام ص ٢٧٤ .

٣ - الخوارج :

تعود نشأة هذا الحزب إلى موقعة صفين التي حدثت بين علي ومعاوية (٣٧ هـ) . فعندما أحس معاوية وجيشه بالهزيمة ، رفعوا المصاحف حيلة لايقاف القتال ، وقد قبل علي ذلك خضوعاً لموقف طائفة من جيشه . وعندما حكم الحكمان وتقرر اجتماعهما بدومة الجندل ، وانصرف علي ، خرجت عليه طائفة من جيشه وتنادوا : " لاحكم إلا الله سبحانه " ، وعابوا عليه تحكيمه للرجال (١) .

وكانت هذه الفئة هي البذرة الأولى لهذا الحزب الذي يعتبر أشد الأحزاب السياسية في العصر الأموي تطرفاً ، وأكثرها دموية ، إذ لم تقتصر معارضتهم على الأمويين فحسب ، بل كانوا يستحلون قتل كل معارض لأفكارهم . وهذا الغلو يرجع إلى طبعهم حيث كان أغلبهم من البدو .

وقد كانت ثوراتهم في العصر الأموي سلسلة لا تنتهي ، سفك فيها كثير من الدماء المسلمة . وقد بدأها حوشرة الأسد في عهد معاوية . حين نزل بالنخيلة - بجوار الكوفة - فالتقى بجيش معاوية فلقى مصرعه (٢) .

(١) الطبري ٥٧/٥ .

(٢) الكامل ٢٣٩/٣ .

ثم تلا ذلك خروج فروة بن نوفل الذي استطاع في بداية أمره أن ينتصر على جيش الأمويين ، فندب له معاوية أهل الكوفة فوقع في أسرهم (١) .

وفي سنة ثلاث وأربعين خرج المستورد بن علفة . وقد أرسل إليه المغيرة بن شعبة - والي الكوفة - شيعة علي فاقتتلوا معه قتالاً شديداً انتهى بمقتل المستورد (٢) .

وفي سنة ثمان وخمسين خرج بالأهواز مرداس بن أدية في أربعين رجلاً ، فأرسل إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً عليهم أسلم بن زرعة الكلابي في ألف رجل ، فلقومياتك فأنهزم أسلم وجيشه . فأرسل إليه ابن زياد جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة عبّاد التميمي الذي استطاع أن يقضي على مرداس . وفي طريق عودته إلى البصرة تربص لعبّاد عبدة بن هلال الخارجي ونفر معه فقتلوه (٣) .

وقد استمرت ثوراتهم تتوالى بعد ذلك . وكان آخرها في عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية سنة تسع وعشرين ومائة .

-
- (١) الطبري ١٨٤/٥ .
(٢) نفسه ١٨١/٥ .
(٣) نفسه ٤٧١/٥ .

حيث دخل خوارج اليمن مكة والمدينة بقيادة أبي حمزة الخارجي وبلخ
ابن عقبة اللذين كانا يدعوان لعبد الله بن يحيى الكندي زعيم الأباضية
آنذاك، الذي كان قد استولى على حضرموت واليمن ، وقد جهز لهم مروان
جيشاً فلقى الخوارج بوادي القرى فقتل بلخ، وفر أبو حمزة ومن معه إلى مكة
فتعقبه الجيش وقتله بها . ثم سار قاصداً اليمن فاصطدم في الطائف
بجيش الخوارج يقوده زعيمهم عبد الله بن يحيى، فلقى عبد الله مصرعاً،
وانطلق جيش الأمويين حتى دخل صنعاء (١) .

والخوارج يرون ان الخلافة حق لكل مسلم عادل غير جائز . وجوزوا
أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً . وهم يوجبون عزل الإمام أو قتله إذا غير
سيرته أو عدل عن الحق (٢) .

وهذا الصراع الفكري الذي نشأ بسبب الخلافة ، وتحول بعد ذلك
إلى صراع دوي بين الأمويين ومعارضيه من هذه الأحزاب، كان سبباً في
وجود تيار شعري يتخذ من الأفكار السياسية التي كانت تتردد بين هذه
الفئات المتحاربة مضامينه . وهو ما يعرف عند الدارسين بالشعر السياسي .
لقد أدرك الأمويون في فترة مبكرة من حكمهم دور الشعر كوسيلة إعلامية هامة

(١) مروج الذهب ٢٥٧/٣ .

(٢) الملل والنحل ١٧٤/١ .

في ذلك العصر؛ لما لهذا الفن من مكانة كبيرة في قلوب العرب . فعملوا على اجتذاب الشعراء إليهم بالترغيب بالعطايا والهبات تارة ، وبالترهيب تارة أخرى . وقد استجاب لهم أغلب شعراء العصر الذين كانوا إما محترفين أقبلوا على مدح الأمويين رغبة في عطاياهم ، أو طامعين في نيل حظوة لهم خاصة ، أو لقبائلهم عامة في وقت احتدمت فيه العصبية القبلية بتحريض من الدولة .

وفي مقدمة هذه الفئة من الشعراء يقف جرير، والأخطل ، والفسرزدق، وعدي بن الرقاع ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ، والراعي النميري ، وأبو العباس الأعمى . وغيرهم ممن تظهر في أشعارهم معاني الاستجداء ، وطلب المال من الخلفاء .

ومن هؤلاء الشعراء من كانوا أصحاب موقف معارض للدولة، فأرادوا بددحهم للخلفاء أن يتجاوز هؤلاء عن هجائهم السابق لهم ، أو أن يتقوا شرهم . وأشهر شعراء هذه الفئة : عبيد الله بن قيس الرقيات ، والكميت ابن زيد الأسدي .

وقد كان هؤلاء - والمحترفون منهم خاصة - بوقاً للأمويين يعتمدون في أشعارهم إلى تحسين صورة الخلفاء أمام الرعية ، ويؤكدون من خلال تلك الأشعار أحقيتهم بالخلافة ، ويبررون لهم أفعالهم ، ويهاجمون أعداءهم بضراوة .

وقد سار ولاية بني أمية وقوادهم على نهج خلفائهم في اجتذاب الشعراء وإغرائهم بالأموال ؛ ليمجدوا بطولاتهم ، وليشيدوا بدورهم في دعم استقرار الدولة .

وقد كان للأحزاب السياسية المعارضة للأُمويين شعراءؤها الذين سجلوا في أشعارهم أفكار أحزابهم ، ودافعوا عنها ، واتهموا من خلالها الأُمويين باغتصاب الخلافة دون أدنى حق .

ولعل الزبيريين هم أقل الأحزاب السياسية في العصر الأُموي حظاً من الشعر . فلا تكاد تجد شعراً يؤيدهم وينادي بأفكارهم إلا القليل ولم يعرف الأدب العربي شاعراً انتسب إليهم ، وأخلص لهم إلا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذي لا أشك في أن انتماءه لقريش وحبها كان من أهم العوامل التي تفسر وقوفه مع الزبيريين واندفاعه إلى الدفاع عنهم .

وقد كان وراء هذا الفقر الشعري - إن جاز هذا القول - عاملان ، أولهما وهو ألاهم فقصر الفترة التي عاشها هذا الحزب وهي تسع سنوات . وهي فترة لم تتح له - لقصرها - أن يجتذب إليه عدداً أكبر من الشعراء ممن قد تروق لهم نظريته السياسية فيعتقدونها .

وأما العامل الآخر فهو أن عبد الله بن الزبير رأس هذا الحزب لم يكن يعطي اهتماماً للشعر الذي كان من الممكن أن يسهم في الدعاية لحزبه، بل إنه كان ينفر الشعراء من حوله بعدم اهتمامه بهم . ولم يكن ذلك نتيجة بخله - كما ذكر النعمان القاضي (١) - ، وإنما كان ذلك اقتداءً منه بسنة الخلفاء الراشدين ، الذين كانت لهم مواقف مشابهة . وكان ابن الزبير حريصاً على السير على منهاجهم . وقد دفع ذلك الإهمال الشعراء إلى الابتعاد عنه ، والذهاب إلى خصومه الأمويين المذنبين كانوا يغدقون عليهم العطايا والهبات - كما علمنا - وقد عبر عن هذا عبد الله ابن الزبير الأسدي حين قال : (٢)

أرى الحاجات عند أبي خبيب
من الأعْيَاصِ أو من آلِ حَرْبٍ
وقلتُ لصُحْبَتِي أدنُورِ كَابِسى
وما لي حينَ أَقْطَعُ ذَاتَ عِشْرِقٍ
نَكْدَنَ وَلَا أُمِّيَّةَ فِي الْبِلَادِ
أَغْرَ كَفَرَةَ الْفَرَسِ الْجَوَادِ
أَفَارِقُ بَطْنَ مَكَّةَ فِي سَوَادِ
إِلَى ابْنِ الْكَاهِلِيَّةِ (٣) مِنْ مَعَادِ

-
- (١) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص ٥٠٤ .
(٢) الديوان ص ١٤٦ ، وهي تتسبب أيضاً لفضالة بن شريك .
(٣) الكاهلية لقب لعمة عبد الله بن الزبير .

ولولا أن مصعب بن الزبير كان كريماً كثيراً للبذل للشعراء ، لما وجد هذا الحزب من يتحدث عنه ، وينادى بأفكاره ، ويمدح رجالاته .

وفي شعر عبيد الله بن قيس الرقيات نلمس اعتداده بالقرشية ، ونصرته للزبيريين . ويتجلى ذلك في قصيدته الهمزية التي تعتبر في الحقيقة وثيقة تاريخية هامة للحزب الزبيرى .

فهو يبدؤها بمقدمة طللية يحاول فيها إثارة الأمويين بالوقوف على مراتب أجدادهم ، ووصف ما ألم بها من الوحشة نتيجة انتقالهم إلى الشام . معبراً عن حسرته لما أصاب الأسر القرشية من انقسام بسبب الخلافة والحكم فيقول (١) :

أَقْرَبْتُ بَعْدَ عَيْدِ شَمْسٍ كَدَّاءُ فَكَدَى فَاالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ
فَمَنَى فَاالْجَمَارُ مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ مُقْفَرَاتٌ فَبِلَدَحٍ فِحِرَاءُ
فَاالْخِيَامُ الَّتِي بَعُصْفَانٍ فَاالجُحُوفُ فَهُ مِنْهُمْ فَالْقَاعُ فَالْأَبْوَاءُ
مُوحَشَاتٌ إِلَى تَعَاهِنٍ فَالسَّقْفُ يَا قِفَارٌ مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ خَلَاءُ (٢)
قَدْ أَرَاهُمْ وَفِي الْمَوَاسِمِ إِذْ يَغْشَى دُونَ حِلْمٍ وَنَائِلٌ وَبِهَاءُ
وَحِسَانٌ مِثْلُ الدُّمَى عَبَشِيَّاتٌ عَلَيْهِنَّ بَهْجَةٌ وَحَيَاءُ

.....

حَبَّذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ

(١) الديوان ص ٨٧ .

(٢) تعاهن : اسم عين ماء سمي به موضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة .

ويعلن بعد ذلك تحيزه لقريش ، واعتداده بقرشيته ، ويهاجم كل
الطامعين في منافستها على الحكم ممن يتمنون فناءها . وكأنه يخاطب
بذلك الخوارج قائلاً (١) :

قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مَلِكِ قُرَيْشٍ وَتَشْتِ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمَشْتَهِي فَنَاءَ قُرَيْشٍ بيد الله عُمُرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تُودَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لِحَيِّ بَقَاءُ
لَوْ تَقَفِّي وَتَرَكُ النَّاسَ كَانُوا غنم الذئب غاب عنها الرعاء

وينتقل بعد ذلك إلى الافتخار بقريش ، وكأنه يبرر أحقيتها بالخلافة .
فاستحقاقها ليس مجرد عاطفة وعصبية قبلية ، وإنما كان ذلك هو الوضع الطبيعي
لها . فهو يقول (٢) :

نَحْنُ مَنَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ وَالصَّدِّيقُ مَنَا التَّقِيُّ وَالْخُلَفَاءُ
وَقَتِيلُ الْأَحْزَابِ حِمْرَةٌ مَنَا أَسَدُ اللَّهِ وَالسَّنَاءُ سَنَاءُ
وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ ذُو الْجَنَاحَيْنِ هُنَاكَ الْوَصِيُّ وَالشَّهَدَاءُ
وَالزَّبِيرُ الَّذِي أَجَابَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْكَرْبِ وَالْبَلَاءُ بَلَاءُ
وَالَّذِي نَفَّصَ ابْنَ دُومَةَ مَا تَوَحَّيَ الشَّيَاطِينُ وَالسُّيُوفُ ظَمَاءُ

(١) الديوان : ص ٨٨ .

(٢) نفسه ص ٨٩ ، ابن دومة : يعني المختار الثقفي .

ويشيد بالزبيريين ، مادحاً مصعب بن الزبير مديحاً يأخذ الصبغة
الدينية فيقول (١) :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءٌ
يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَاءُ
.....

ثم ينهي القصيدة بالهجوم على خصوم الزبيريين من الأمويين .
حيث يدعو للثورة عليهم في نعمة واضحة . فيقول (٢) :

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفَرَاشِ وَلَمَّا يَشْمَلُ الشَّامُ غَارَةً شَعْوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاءُ
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمَيَّةٍ مُسْزَوْرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ
إِنْ قَتَلَى بِالطَّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَعَنَ قَتَلْتُمْ شِفَاءُ

ونلمس هذه الثورة ضد الأمويين في قصيدته التي يرثي بها قتلى موقعة
الحرة (٣) .

(١) نفسه ص ٩١ .
(٢) نفسه ص ٩٥ .
(٣) الديوان ص ٩٧ .

وقد استفاد ابن الرقيات من قدرته في فن الغزل فاستخدمه
لأغراض سياسية . فأخذ يتغزل غزلاً فاحشاً في عاتكة زوجة عبد الملك بن
مروان (١) وأم البنين زوجة ابنه الوليد (٢) . في عبث يقصد به إغاطة بني أمية
ولاهانتهم .

وإذا كان حظ الزبيريين من الشعر والشعراء قليلاً ، فإن الصورة
تختلف عند الشيعة والخوارج .

فقد عرف العصر الأموي عددًا غير قليل من الشعراء الذين أظهروا
ولاءهم لآل البيت . ومن بينهم الكميث بن زيد الأسدي ، وكثير بن
عبد الرحمن المعروف بكثير عزة ، وأيمن بن خريم ، وأبونميلة الأبار .

ويعتبر الكميث بن زيد أبرز شعراء الشيعة في هذا العصر على
الإطلاق ، كما يعد ديوانه (الهاشميات) أنموذجاً متقدماً للأدب الشيعي
ليس في العصر الأموي فحسب ، وإنما في مختلف العصور .

(١) نفسه ص ١٢٨

(٢) نفسه ص ١٢١ .

وهو يبدأ قصائد ديوانه بالحديث عن حبه لبني هاشم خلافاً لما جرت عليه القصائد القديمة في البدء ببياء الديار والوقوف على الأطلال . وهو يحاول من خلاله أن يثبت أحقية بني هاشم بالخلافة ، وأن الأمويين مغتصبون لها . وللوصول إلى هذا الغرض تفرع ديوانه إلى ثلاثة موضوعات كبرى أولها مدح بني هاشم ، وثانيها هجاء خلفاء بني أمية ، أما ثالثها فهو الموازنة بين جور بني أمية وعدل بني هاشم (١) .

ويستفيدا لكميت في هاشمياته من التطور الفكري الذي طرأ على العقل العربي فيعمد إلى الجدل العقلي في محاولته لإثبات حق بني هاشم ويظهر هذا جلياً في مناقشته لقضية ميراث النبي (٢) .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن هذا الاتجاه العقلي جاءه عن تتلمذه على يد واصل بن عطاء إمام المعتزلة (٣) . وقد رأى بعض الدارسين (٤) أن الهاشميات في حقيقتها ليست مدائح لبني هاشم وإنما هي تقرير لنظرية الزيدية الشيعية التي كان ينتمى إليها الشاعر ، وتعبير عن أفكار إمامها زيد بن علي . وبهذا عللوا تلك الروح الخطابية التي تتسم بها .

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٧١١ .

(٢) الهاشميات ص ٣٢ .

(٣) التطور والتجديد ص ٢٨٠ .

(٤) نفسه ص ٢٧٣ ، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص ٦٠٨ .

أما الخوارج فإن من المؤكد أن جزءاً كبيراً من شعرهم قد ضاع أو أهمل . وترجع سهير القلماوى ذلك إلى ما أصابهم من الاضطهاد، إذ أنه دون في عصر كان فيه للشيعة سلطان فعلي أو معنوي قوي ، وإن أكثر من دون—وه كانوا من الشيعة كأبى الفرج الذى لم يعط لهم اهتماماً حقيقياً . (١)

ورغم احترامنا لرأيها وتقديرنا له . إلا أننا لا يمكن أن نسلم به كلياً كتفسير لهذه الظاهرة . فنحن نعلم أن أبا الفرج ليس هو الوحيد الذى كتب عن الخوارج . فهناك من المؤرخين غيره من أعطى لهم اهتماماً كبيراً . وهذا ما نجده في الكامل للمبرد ، وأنساب الأشراف للبلاذري ، وفتوح بن أعثم ، وغيرها من المصادر القديمة . وهذا ما يدفع إلى البحث عن تفسير آخر لذلك . وهو في اعتقادى يتلخص في أنهم كانوا فئة خارجة على المجتمع مما جعلهم مشردين يعيشون في أماكن خاصة بهم ، بعيداً عن أعين أعدائهم . شأنهم في ذلك شأن الصعاليك في العصر الجاهلي . وهذا ما جعل سبل الاتصال فيما بينهم وبين مجتمعهم قليلة . مما لم يساعد على وصول شعرهم إلى أيدي الرواة . إلى جانب أن هذا الشعر كان يحمل معتقدات خاطئة . مما دعا المجتمع الإسلامي إلى نبذ أفكاره وعدم قبولها وبالتالي لم يجد ما قالوه الاهتمام الكافي لحفظه . وهو بهذا يشبه

(١) أدب الخوارج ص ٥٠ .

شعر القرشيين في أثناء الدعوة الإسلامية إذ أهمل شعرهم بسبب ما يحمله من فكر مضاد للإسلام وهجاء للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمسلمين . وقبل ذلك كله كون الشعر عندهم لم يكن هدفاً بحد ذاته ، وإنما كان تعبيراً عن حالة نفسية يمر بها الشاعر ، فيطلق أبياته ويقف عند ذلك فليس هناك شاعر منهم يلجأ إلى إلقاء شعره بين الناس .

ولعل أشهر شعراء الخوارج في هذا العصر هم الطرمّاح بن حكيم وقطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والحصين بن عمرو العنبري .

وشعراء هذا الحزب ملتزمون بقضيتهم أشد الالتزام . فهم دون غيرهم من شعراء الأحزاب السياسية قد قصروا ملكاتهم الشعرية على عقيدتهم الحزبية مهما اختلفت الأغراض التي عبروا بها عن هذه الفكرة من مدح أو رثاء أو هجاء ، وندر أن يخرج من بينهم شاعر انطلق في مدح من لا ينتمي إلى مذهبهم بدافع الخوف ، أو بغرض التكسب أو نيل حظوة ، بل إنك تجدهم يهاجمون من يفعل ذلك . فعمران بن حطان يتهم الفرزدق بالنفاق حين رآه ينشد وحوله الناس فيخطبه قائلاً (١) :

(١) شعر الخوارج ص ١٧٦ .

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادِ لِيُعْطَى
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ
لَا تَقُلْ لِلْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ
إِنَّ اللَّهَ مَا بِأَيْدِي الْعِبَادِ
وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقَسِّمِ الْعَوَادِ
وَتُسَمِّي الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

وفى شعرهم لانراهم يتحدثون عن مبادئهم السياسية بل يعبرون فيه عن مشاعرهم الذاتية والجماعية ، فيتدفقون حماساً للقتال في سبيل عقيدتهم ، ويمجدون قوادهم وأبطالهم الذين سقطوا شهداء في سبيلها ، ويتلهفون على اللحاق بهم ، ونيل الشهادة مثلهم ؛ لأنها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الجنة هدفهم الأسمى . وكل ذلك في بساطة وعفوية لا نجد لها نظيراً في الشعر العربي في مختلف عصوره ، ودون أن يعتمدوا إلى الحجج والبراهين لاثبات ما يقولونه لأنهم ليسوا بحاجة إلى ذلك لاقتناعهم الذاتي العميق به . وهذا ما يجعل قارئ شعرهم يحس بصدق أبياتهم . وهذا الصدق هو الذي دفع أحمد الشايب إلى أن يقول عن شعرهم إنه " أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي لا يشاركه في هذا الوصف شعر آخر " (١) .

(١) تاريخ الشعر السياسي ص ٢٠٤ .

ولعل ذلك يرجع إلى كون شعراء الخوارج هم " الزعماء أصحاب المذهب ، وهم المجاهدون حملة السيف ، وهم أنفسهم الشعراء ذوو الموهبة واللسان " (١) .

واتسم شعر الخوارج بأنه في أغلبه عبارة عن قصائد ومقطوعات قصيرة، فلا ترى لهم قصائد مطولة إلا قصيدتين لعمر بن الحصين العنبري .
إحداهما في رثاء أبي حمزة الشاري (٢) ، والأخرى قالها في وقعة قديد (٣).
ويعود ذلك في رأيي إلى حياتهم التي كانوا مشغولين فيها بالجهاد في سبيل مبادئهم التي اعتنقوها . فلم تساعد هم على التفرغ لهذا الفن مما قد يتيح لهم إطالة قصائدهم وتجويدها . فهم يختلفون عن الشعراء المحترفين الذين تفرغوا للشعر ولم يشغلهم عنه شاغل . والخوارج في هذا يكادون يكونون صورة مكررة من شعراء الصعاليك في الجاهلية (٤) ، وشعراء الفتوح في عصر صدر الإسلام (٥) . حيث اتسمت أغلب أشعار هؤلاء بأنها مقطوعات قصيرة .

(١) نفسه ص ٢٠٥

(٢) شعر الخوارج ص ٢٤٧ .

(٣) نفسه ص ٢٥١ .

(٤) الشعراء الصعاليك ص ٢٥٩ .

(٥) شعر الفتوح الإسلامية ص ٣٠٦ .

ثانياً : المتغيرات الاجتماعية :

طراً على المجتمع الإسلامي في العصر الأموي تغيير كبير في حياته أحدثه اتساع رقعة الدولة الإسلامية . فقد فتح العرب أرض فارس والسرور وعادت هذه الفتوح عليهم بالأموال الطائلة ، وأكسبتهم بعض العادات والتقاليد التي لم يألفوها من قبل في جزيرتهم . وتبع ذلك تغيير في نمط حياتهم ومعيشتهم اليومية . هذا الثراء والتطور المادي الذي انتشر في معظم الحواضر الإسلامية صاحبه اختلاط العرب بأهل الأمم التي افتتحوها بمالهم من تقاليد وأعراف خاصة بهم أثرت بلاشك في أسلوب الحياة الإسلامية في السنين اللاحقة . إلى جانب تلك الظروف السياسية التي واكبت ذلك العصر ، والتي أعقبت تغيير نظام الحكم ، وما صاحب ذلك من خروج على مبدأ الشورى التي كانت مبدأ أساسياً للحكم أثناء الخلافة الراشدة فأصبحت بعد ذلك وراثية أثناء حكم الأمويين . مما أوجد معارضة شديدة كانت دافعاً للأمويين إلى العمل بشتى السبل الكفيلة بالإبقاء على قسوة دولتهم واستقرارها .

ولعل أبرز معالم التغيير التي طرأت على الحياة الاجتماعية تتمثل فيما يلي :

يلي :

- ١ - غلب طابع الترف على حياة المجتمع الإسلامي في الحواضر الإسلامية حيث دخلت إليه عناصر جديدة من أجناس مختلفة لم تنشأ في ظلال البيئة الإسلامية ، ولم تتمكن منها تعاليم الإسلام ومبادئه ، فظلت

خاضعة لتقاليد وعادات اكتسبتها في حياتها الماضية ، واستطاعت بفضل تفوقها الحضاري أن تنقل هذه العادات إلى الحواضر الإسلامية التي دخلتها . وقد ساعدها على ذلك وجود جيل جديد رأى نفسه يعيش حياة مترفة يتمتع فيها بقسط وافر من الرفاهية ، مما جعله يندفع إلى الأخذ بسبل اللهو وفي مقدمتها الغناء الذي كان منتشراً بشكل كبير في الحجاز ، وفي الشام ساعد على ظهوره وانتشاره فراغ كان يشعر به الحجازيون ، وحرص من السلطة على صرفهم إلى اللهو والتمتع بلذات الحياة . هذا الجيل لم يكن له من عمق الإيمان والعقيدة ما يجعله قادراً على السيطرة على شهواته كما كان الجيل السابق ، ولهذا فقد كان أكثر استعداداً للاستسلام لمغريات الحياة الجديدة ومفاتها .

وقد ظهرت على الشعر الأموي ملامح من حياة التحضر السني طرأت على المجتمع الإسلامي آنذاك . وقد كان الشعر أكثر صدقاً واقناعاً في تصويرها من تلك القصص التي تتردد في كتب ألفت بعد ذلك بفترة ، وبعض ما جاء فيها موضع شك لما فيه من المبالغات والدسائس المقصودة .

ولعل في تصوير شعراء الغزل للمرأة آنذاك ، ما يعطى
أكبر دلالة على ذلك الترف الذي أصاب الحياة العربية . إذ أن المرأة
كانت وما زالت أكثر إقبالا على مغريات الحضارة وأكثر استسلاماً لها ،
والمرأة كما يصورها شعراء الحجاز تقيم في غرف تحف بها
الحدائق ، وتجد من يخدمها من الجواري اللواتي كفينها أمورها .
خلاف ما كان عليه الحال قبل مجيء الأمويين إلى الحكم .
يقول عمر بن أبي ربيعة :

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرِيَّانٌ مَلَتْهُ الْحَدَائِقُ أَخْضَرُ
وَوَالِ كَفَّاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلُ تَسْهَرُ (١)

ويقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

وَبَنَاتُ كَسْرَى فِي الْحَرِيرِ عَوَامِلٌ يَخْدُ مِنْهُنَّ
مَتَعَطِّفَاتٌ بِالْبُرُودِ عَلَى الْبِغَالِ وَفُرْهُنَّ (٢)

وهي تعتني بزینتها أشد الاعتناء ، وتحرص على الظهور بمظهر حسن .
فهي ترتدي ثياب الحرير ، والبرود اليمانية التي هي من أجود الملابس
عند العرب .

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ٦٧ .

يقول ابن الرقيات :

تَتَقَيَّ بِالْحَرِيرِ مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ وَخَزَّ الْعِرَاقِ وَالْأَسْتَارُ (١)

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

فَقَامَتْ إِلَيْهَا حُرَّتَانِ عَلَيْهِمَا كِسا آتَيْنِ مِنْ خَزِّ دِمَقْسٍ وَأَخْضَرِ (٢)

ويقول أيضاً :

لَقَدْ عَرَضْتُ لِي بِالْمُحْصَبِ مِنْ مَنِي لِحَيْنِي شَمْسٌ سَتَرَتْ بَيْمَانَ (٣)

كما أنها تزين جيدها بمختلف الجواهر من در وياقوت وزبرجد .

يقول العرجي :

تَعَلَّقَ هَذَا الْقَلْبُ لِلْحَيْنِ مَعْلَقًا غَزَالًا تَحْلَى عَقْدَ دُرٍّ وَيَارِقًا (٤)

ويقول عمر :

وَالزَّعْفَرَانُ عَلَى تَرَافِيسِهِمَا
وَزَبْرَجْدٌ وَمِنْ الْجَمَانِ بِهِ
وَبَدَائِدُ الْمَرْجَانِ فِي قَسْرَنِ
شَرَقٌ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّحْرُ
سَلْسُ النَّظَامِ كَأَنَّهُ جَمْرُ
وَالدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَالشَّذَرُ (٥)

(١) الديوان ص ٢٣ .

(٢) الديوان ص ٩٩ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

(٤) الديوان ص ١٦٣ .

(٥) الديوان ص ١٤١ .

وهي تستعمل مختلف العطور فتنتثرها على ملابسها ، وعلى جسمها
وتبالغ في ذلك كل المبالغة .

يقول عمر :

وَتَضَوَّعَ الْمِسْكُ الذِّكْيُ وَعَنْبَرٌ
من جِيَّهَا قَدْ شَابَهُ كَافُورٌ (١)

ويقول أيضاً :

يَفُوحُ الْقَرَنْفُلُ مِنْ جِيَّهَا وَرِيحُ الْيَلَنْجُوجِ وَالْعَنْبَرِ (٢)

وهي مولعة بشعرها ، فهي تكثر من تسريحه ، ودهنه ، بل وتطيبه
أيضاً .

يقول ابن الرقيات يصف امرأة تحمل طفلاً :

يَبْكِي فَتَسْكُتُهُ بِجُرْدَتِهَا
وَعَلَيْهِ مِنْهَا مَائِلُ الْفَرْعِ

مُعْدُوْدِنٌ جَمَعَتْ ذَوَائِبَهَا
بِالْمِسْكِ حَقٌّ مُجِيدَةُ الْجَمْعِ (٣)

ويقول عمر :

بِفَاحِمٍ مُكَرَّعٍ سَوْدٍ غَدَائِرُهُ
تَشْنِي عَلَى الْمَتْنِ مِنْهُ وَارِدًا جَثَلًا (٤)

(١) الديوان ص ١٣٠ .

(٢) الديوان ص ١٧٣ .

(٣) الديوان ص ٦٥ .

(٤) الديوان ص ٣٥٧ .

ويقول أيضاً :

تَقُولُ يَا عَمَّتَا كُفِّي جَوَانِبَهُ وَيَلِي بُلَيْتُ وَأَبْلَى جِيدِ الشَّعْرِ
مِثْلُ الْأَسَاوِدِ قَدْ أَعْيَا مَوَاشِطَهُ تَضِلُّ فِيهِ مَدَارِيهَا وَتَتَكَسَّرُ
فَإِنْ نَشَرْتَ عَلَى عَمْدٍ ذَوَائِبَهَا أَبْصَرْتَ مِنْهُ فَتَيْتَ الْمِسْكَ يَنْتَثِرُ (١)
وامتد اعتناؤها إلى عيونها فهي تكثر من تكحيلها .

يقول العرجي :

كَأَنَّ نِعَاجَ الرِّمْلِ أَهْدَتْ عُيُونَهَا إِذَا مَجْمَعَتْ أَشْفَارَهَا الْمَرَاوِدُ (٢)
ويقول عمر :

يَوْمَ قَالَتْ وَدَمْعُهَا يَفْسِلُ الْكُحْلَ أَرَدَتْ الْفِدَاةَ مِنَّا انْصِرَامَا (٣)
ويشير الشعر إلى أن الرجل - أيضاً - تبع المرأة في الأخذ بمعطيات الحضارة .
فقد ارتدى الطيلسان والبرود الرقيقة وخلع عنه الثياب الخشنة .

يقول العرجي :

لَمَّا رَأَيْتُ الَّذِي يَلْقَيْنِ مِنْ كَمَدٍ وَأَنَّ آخِرَ لَيْلِي سَوْفَ يَنْصَرِمُ
لِبِسْتُ سَاجِي عَلَى بُرْدِي مُنْطَلِقًا تَحْتَ الشَّمَالِ وَفِيهَا قَطَقْتُ شَبْمَ (٤)
ويقول عمر :

وَإِذْ أَنَا غَرَّ أَجَارِي دَدَا أَخُو لَذَّةِ كَصَرِيْعِ السَّكْرِ
مِنَ الْمُسْبِغِينَ رِقَاقَ السُّبُرودِ أَكْسُو النَّعَالِ فُضُولَ الْأَزْرِ (٥)

-
- (١) الديوان ص ٤٩٤ .
(٢) الديوان ص ١٢٠ ، مجمعت : أرخت أشفارها للتكحل ، والمرود : الميل الذي يتكحل به .
(٣) الديوان ص ٢٣٦ .
(٤) الديوان ص ٩ ، الساج : الطيلسان الواسع المدور ، الشمال : الريح الباردة القطقط : المطر الخفيف ، الشبم : البارد .
(٥) الديوان ص ١٧٦ .

كما يشير الشعراء إلى انتشار الغناء الذي كان أبرز وسائل اللهو
عندهم .

يقول عمر :

قَدْ دَعَانِي وَقَدْ دَعَاهَنَّ لِلَّهِ شُجُونٌ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْجَانِ
فَاهْتَصَرْنَا مِنَ الْحَدِيثِ غُصُونًا حَيْثُ لَا يَجْتَنِي لِعَمْرُكَ جَانِي
ذَاكَ طَوْرًا ، وَتَارَةً أَبْعَثُ الْقَيْنَةَ وَهَنَا بِالْمُزْهِرِ الْحَنَانِ (١)
ويقول أيضاً معبراً عن شغفه الشديد بالغناء واستماعه :

يَا أَهْلَ بَابِلَ مَا نَفِسْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ عَيْشِكُمْ إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ
مَاءَ الْفُرَاتِ وَطِيبَ لَيْلٍ بَارِدٍ وَسَمَاعَ مَنْشِدَتَيْنِ لَا بَيْنَ هِلَالٍ (٢)
ويصور العرجي مدى تأثير الغناء في أمثاله من الشباب اللاهي فيقول :

إِذَا دَعَتْ هَاجَ ذَا الْأَشْجَانِ مَنْطِقَهَا كَأَنَّهَا قَيْنَةٌ غَنَتْ عَلَى عَوْدٍ (٣)
وهكذا يظهر لنا من الأمثلة السابقة أننا أمام حياة جديدة لم تعرفها
العصور السابقة لهذا العصر . شملت نمط حياة العرب اليومية من مظهر
وملبس وغيرهما .

-
- (١) الديوان ص ٢٩٠ .
(٢) الديوان ص ٣٧٦ .
(٣) الديوان ص ١٦٠ .

٢ - احتدمت العصبية بين القبائل العربية ، وبلغت حدتها مدى لم تبلغه قبل ذلك . وقد كان وراء عودتها - إن صح أنها خمدت في عهد الخلافة الراشدة - دوافع متعددة أهمها :

أ - الدوافع السياسية :

كانت الحروب الداخلية التي حدثت عقب مقتل عثمان رضي الله عنه بين علي ومعارضيه بداية حقيقية لعودة العصبية القبلية بعد أن خمدت جذوتها منذ عهد النبوة ، فقد ظهرت بواكيرها في هذه الحروب ، ففي وقعة صفين - على سبيل المثال - تجلت بعض النزعات القبلية بين العدنانية والقحطانية . من ذلك أن رجلاً من قبيلة عك حض قومه على الاستبسال في القتال حتى لا تشمت بهم مضر^(١) ، وعند ما عقد معاوية الألوية في أحد أيام المعركة لرجال من مضر غمّ ذلك رجالاً من اليمن أرادوا ألا يتأمر عليهم إلا أحد منهم ، وعبر عن ذلك أحد شعرائهم . مما دفع معاوية إلى استرضائهم^(٢) . وبعد ما استقر الفريقان على التحكيم واختار معاوية عمرو بن العاص استشار على رؤساء جيشه في اختيار الحكم وكان من رأيه أن يكون عبد الله بن عباس ، غير أن الأشعث أبقى أن يكون الحكم من مضر

(١) وقعة صفين ص ٣٠٢ .

(٢) نفسه ص ٤٢٤ .

واختار أبا موسى الأشعري ، ولما أبدى على تخوفه من أن يخدع عمرو صاحبه ، أجابه الأشعث بقوله " والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضران " (١) .

وفي ظل حكم الأمويين رأى بعض خلفائهم أن إثارة العصبية القبلية وسيلة ناجعة لتقوية دولتهم ، وضمان استمرارها في كثير من الأوقات . فقيام العصبية القبلية بين القبائل وانشغالها بها لا يجعلها تفكر في معارضة الدولة والخروج عليها . وإنما يصبح جل اهتمامها التفوق على القبيلة الأخرى ، كما أن ذلك يجعل أمر اتحاد القبائل ضدها مستبعداً وذلك في حالة وجود معارضة عامة لها .

وقد كانت وسيلة الأمويين لإثارة العصبية تأتي عن طريق تقريب الخليفة أو والي لأفراد قبيلة ما ووضعهم في بعض المناصب الإدارية التي تعطي لقبيلتهم شيئاً من النفوذ السياسي . ويرجع هذا التقريب إما لعلاقة نسب أو مصاهرة بين الخليفة أو والي وتلك القبيلة ، أو لأنه وجد فيها قوة وإخلاصاً يجعلها قادرة على مساندة الدولة ودعمها عند الحاجة إلى ذلك .

(١) نفسه ص ٥٠٠ .

وقد كان هذا العمل كفيلاً بإثارة القبائل الأخرى التي ترى في ذلك استصغاراً لشأنها ، فيوغر صدورها ضد هذه القبيلة ، فتعمل بشتى الوسائل والسبل على زعزعة سلطانها ، فتشـور العصبيات ، وتشتعل الخصومات بين القبائل .

وقد كان معاوية بن أبي سفيان - مؤسس الدولة الأموية - أول من نهج هذه الطريقة ، حيث قرب إليه القبائل اليمنية التي كانت تمثل أكثر أنصاره في الشام (١) . ومن سار على منواله من الخلفاء يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد ، وقد كانا يقربان القيسية لمصاهرة يزيد لها (٢) .

وقد سار بعض ولاية بني أمية على نهج خلفائهم . فأسد بن عبد الله القسري يعلن تحيزه لليمانية ، ويخطب في يوم الجمعة خطبة يعلن فيها تعصبه . مما كان سبباً في عزله من قبل هشام (٣) . كما فعل ذلك الجنيد بن عبد الرحمن الذي استعمله هشام بن عبد الملك على خراسان سنة إحدى عشرة ومائة ، فقد كان لا يستعمل في ولايته إلا مـضرباً (٤) .

(١) الأغاني ٢٠ / ٢٠٨ .

(٢) الطبري ٧ / ٢٣٤ .

(٣) نفسه ٧ / ٤٧ .

(٤) نفسه ٧ / ٦٩ .

ب - الدوافع الاقتصادية :

لقد كان خروج بعض القبائل العربية من جزيرتها إلى العراق بعد الفتح الاسلامي، دافعاً له دوره الملموس في إثارة القبائل الأخرى ضدها والتي كانت تسكن هناك قديماً، حيث شاركتها في مواطن الماء والكلاء . وما معارك قيس وتغلب التي وقعت في الجزيرة بالعراق في أوائل العصر الأموي (١) إلا دليل حي يؤكد أن العامل الاقتصادي كان من الأسباب التي ساعدت على نشوء الصراع القبلي آنذاك . ولا ننسى هنا دور الشعر كعامل له أهمية كبرى في إثارة العصبية فحينما يعمد الشاعر إلى هجاء إحدى القبائل ، وإبراز مخازيها ، مفتخراً بقبيلته فهو بذلك يشعل الأحقاد في قلوب أفرادها ليس ضده فحسب وإنما ضد قبيلته أيضاً " فلم يكن الشعراء عصفرة في كثرتهم الغالبة دعاة سلام ورسائل محبة وأخوة ، على ما نتصوره اليوم من مهمة الشاعر ، وإنما كانوا أبواق فتنة ودعاة شر ، دأبهم أن يقرعوا طبول الحرب ويحرشوا بين القبائل ، فإذا وقعت الواقعة طفقوا يهللون لها ويرقصون حول نيرانها جذلين متتهجين " (٢) .

(١) أنساب الأشراف ٣١٣/٥ .

(٢) العصبية القبلية ص ٣٧٦ .

وهذا التغيير الذي طرأ على الحياة الاجتماعية أسهم بدوره في دفع الحركة الشعرية في هذا العصر ، وأعطى لها طابعاً معيناً . حيث ظهرت على الساحة الشعرية بعض التيارات التي تتناسب مع هذا التغيير .

فالشعر الغزلي الصريح جاء تعبيراً عن عواطف وأفكار جيل جديد من شباب الحجاز الذي وجد نفسه يحيا حياة سهلة يتمتع فيها بضروب من الترف والنعيم ، هيأتها له الثروات الطائلة التي خلفها الآباء للأبناء ونمت في ظل الإسلام من خلال التجارة أو من رصيد الغنائم التي كان الخلفاء يوزعونها عقب الفتوحات الإسلامية ، أو جاءتهم عن طريق العطايا والهبات التي كان يمنحها لهم الخلفاء الأمويون ، تلك الهبات التي ظلت مستمرة طوال العصر الأموي ، ولم تتوقف إلا فترة بسيطة في عهد هشام بن عبد الملك حيث قطعها عنهم بعد خروج زيد بن علي عليه . غير أنها لم تلبث أن عادت بعد وفاته في عهد الوليد بن يزيد (١) . وقد كانت السلطة الأموية تقصد بذلك استرضاءهم ، وإلهاءهم عن التفكير في معارضتها والخروج عليها كما فعل عبد الله بن الزبير .

(١) الأغاني ٢٢/٧ .

وكان من الطبيعي أن يتجه شعراء هذا الجيل المسترف
إلى الحديث عن المرأة ، وعلاقتهم بها ، ومغامراتهم معها .
فهذا ما يتناسب مع طبيعة حياتهم . وقد ساعدهم على ذلك
ما كانت تتمتع به المرأة من حرية في هذا المجتمع ، مما جعلها
لا تمنع في لقاء الرجال والحديث معهم . كما كانت تفعل سكينه
بنت الحسين التي كانت " تجالس الأجلة من قريش ، وتجتمع إليها
الشعراء " (١) .

ولعل ما دفع المرأة إلى ذلك هو شعورها الحاد بمنافسة
العنصر الأجنبي - متمثلاً في الجواري - الذي كان يملك - من
التفوق الحضاري والجرأة ما كان يجعله قادراً على اجتذاب الرجال
إليه بوسائله المختلفة ، ولعل الغناء الذي كان منتشرًا بشكل
كبير آنذاك أحدها . هذا إلى جانب قلة الرجال في المجتمع
حيث إن " كثيراً من الشبان خرجوا من وطنهم للغزو والجهاد
ولم يعودوا ، إما لأنهم قتلوا في الفتح أو لأنهم آثروا الأرض
الجديدة التي نزلوا فيها . . . ودائماً عقب الحروب تحدث مثل
هذه الهزات الاجتماعية " (٢)

(١) نفسه ١٤٣/١٦ .

(٢) التطور والتجديد ص ٢٢٥ .

وأبرز شعراء هذا اللون الشعري المتأثر بالحضارة الجديدة
عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، والعرجي ، وعبيد الله بن قيس
الرقيات ، والحارث بن خالد المخزومي .

ويتسم غزلهم بصراحته في تصوير العلاقة بين المرأة والرجل ،
وهم من خلاله يصورون مغامراتهم معها ، ومطاردتهم لها حتى في
موسم الحج ، وتنعكس فيه ملامح من حياة المرأة في عصرهم
وما نعمت به من ترف في العيش .

وقد كان الغزل عندهم غرضاً بحد ذاته ، يشمل القصيدة
كلها ، فلم يكن مجرد مطلع للقصائد كما كان عليه حال الغزل في
الجاهلية ، بل إن هناك من الشعراء من قصر جميع شعره
على هذا اللون ولم يتجاوزه ، إلى لون آخر كعمر بن أبي ربيعة
والحارث بن خالد المخزومي .

وقد أجاب عمر بن أبي ربيعة سليمان بن عبد الملك عندما سأله
" ما يمنعك من مدحنا ؟ قائلاً : إنني لا أمدح الرجال ، إنما
أمدح النساء " (١)

(١) الأغاني ٧٤/١ .

وهذه الإجابة من عمر جاءت طبيعية ؛ لأنها تعبر عن أفكار
شاب مترف لا يهمه التكسب بقدر ما يهمه التعبير عن عواطفه الذاتية .
وقد كان المجتمع الحجازي مشغولاً بهذا الغزل فهو يردده
ويتغنى به . ولعل هذا ما دفع جريراً إلى أن يجيب رجلاً من
أهل المدينة سألته أن يسمعه من شعره : " إنكم يا أهل المدينة
يعجبكم النسيب " (١) .

وقد كان الفقهاء لا يتخرجون من سماع هذا الشعر ، بل
 وإنشاده ، فعبد الله بن عباس سأل عمر بن أبي ربيعة أن يسمعه
رائيته (٢) ، وسعيد بن المسيب - أحد التابعين - كان - كما
تقول الرواية - ينشد الغزل في مسجد رسول الله (٣)

بل إن هناك من الفقهاء من نظم شعراً يتغزل فيه كعروة
ابن أذينة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعبد الرحمن بن أبي عمار
الجشمي ، غير أن غزلهم كان يتسم بعفته ، فلا نجد فيه تلك
الصراحة التي كانت تميز شعر قرناتهم .

-
- (١) الأغاني ٧٦ / ١ .
(٢) نفسه ٧٢ / ١ .
(٣) نفسه ٩٣ / ٥ .

وفي بادية الحجاز ونجد حيث ظلت الحياة الاجتماعية تحتفظ بطابعها البدوي بعيداً عن التأثير بالتيارات الحضارية القادمة من البلاد المفتوحة، نشأ لون غزلي آخر يختلف بطابعه عن الغزل الصريح ، حيث يتسم بعفته وطهارته وسموه وترفعه عن التناول الحسي للمرأة ، ويقصر فيه الشاعر العاشق كل شعره على امرأة واحدة يمنحها كل عواطف قلبه المشبوبة وهو ما عرف عند الدارسين بالغزل العذري نسبة إلى قبيلة عذرة التي اشتهرت بهذا اللون الذي جاء ليعبر عن نفوس صافية أشرفها الإسلام بقيمه ، وانغرست فيها تعاليمه . فكان نتاجها الشعري صدى لهذا التأثير واستجابة له . وكان من أبرز الأسماء الشعرية التي اعتنقت هذا اللون ، جميل بن معمر، وقيس بن ذريح ، وقيس بن الملوح وغيرهم .

كما ازدهر شعر الهجاء بعد أن شهد خفوتاً واضحاً في عهد الخلافة الراشدة ، حيث لم يتردد الخلفاء آنذاك في تعقب الهجائين ومعاقبتهم منعاً لهم من الاستمرار في التعرض لأعراض المسلمين والنيل منها . وقد كانت العصبية القبلية المشتعلة في هذا العصر - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - هي العامل الأكبر ، والأكثر فاعلية في تحريك هذا اللون الشعري

وجعله في واجهة الحركة الشعرية آنذاك . فالشاعر بصفته صوت
القبيلة ، والناطق باسمها ، لا يجد مناصاً من أن يدافع عنها
ويفتخر بها ، ويهاجم أي قبيلة تحاول أن تنافسها أو تنال منها
فيحتدم بذلك الهجاء بين شعراء القبائل المختلفة .

فالنقائض الشهيرة بين جرير والفرزدق كان التعصب القبلي
شرارتها الأولى ، وقصتها كما يرويها أبو عبيدة في مقدمة النقائض (١)
هي أن بني جحيش تنازعوا مع بني الخطفي في غدير بالقاع - وهذا
دافع اقتصادي - ، فأخذ بنو الخطفي يهجونهم ، فاستعان
بنو جحيش - لعدم قوتهم الشعر - بغسان بن ذهيل السليطي
الذي أخذته العصبية لبني عمه فهجا بني الخطفي ، وكان
جرير آنذاك راعياً يرعى غنم أبيه ولم يقل الشعر بعد . فأراد أن
يقف ضد غسان فمنعه قومه ، لأنهم رأوه غير ند له . غير أنه
ما لبث أن أثبت مقدرة ، حيث نظم رجزاً في هجاء السليطي ،
وكان أول شعر قاله ، ولحم بعد ها التهاجي بينهما . ومالبث
أن دخل بينهما شاعر ثالث هو البعيث المجاشعي الذي أشاد
بشعر غسان والذي كانت تربطه بقوم السليطي صلة رحم .

وقد كان ذلك دافعاً لجريير أن يهجوّه ، ثم لجّ التهاجي بين
جريير والبعيث . وقد كان جريير في هجائه لبني مجاشع مفحشاً
في حديثه عن نسائهم ، ولما لم يكن البعيث ندّاً لجريير،
فقد لجأت نساء بني مجاشع إلى الفرزدق - الذي كان آنذاك قد
عاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، وأن يقيد نفسه ولا يحل
قيده حتى يحفظ القرآن - فأثرن حفيظته ، ففض قيسده
واستجاب لهن ، وفتح بذلك باب النقائض بينه وبين جريير
تلك التي استمرت فترة طويلة تقارب أربعين سنة (١) ، ولم تتوقف
إلا بموت الفرزدق .

وهذا التعصب القبلي كان خلف نقائض أخرى . فزياد
الأعجم مولى عبد القيس وشاعرهم يهاجي كعب الأشجري شاعر الأزد (٢)
وليلي الأخيلية تهاجي النابغة الجعدي (٣) ، وغيرهم كثير .

غير أن العصبية لم تكن الدافع الوحيد لإثارة شعر الهجاء .
فقد كانت هناك دوافع أخرى مختلفة تتسم بالطابع الشخصي . فينشب
الهجاء بين شاعرين لخصومة شخصية بينهما ، والأمثلة على ذلك

(١) طبقات فحول الشعراء ٣٨٩/١ .

(٢) الأغاني ٢٨٧/١٤ .

(٣) نفسه ١٤/٥ .

كثيرة . فحكم بن معمر الخضري يهاجى ابن ميادة المـسـري
لانتقاد هذا الأخير لشعره (١) ، وأرطأة بن سمهية يهاجى
زميل بن عبد مناف لما وقع بينهما من لحاء تواعد على أثره زميل أرطأة^(٢)،
والحزين الكنانى يهجو عاصم بن عمرو بن عثمان لعدم إكـسـرام
عاصم له (٣) ، وعبد الرحمن بن الحكم يهاجى عبد الرحمن بن حسان
لأن هذا أقام علاقة مع امرأة ابن الحكم (٤) . فكل هذه الدوافع
تحركها الخلافات الشخصية .

وينبغي أن أشير هنا إلى نقطة هامة . وهى أن استمرار
الهجاء بين جرير والفرزدق لم يكن بدافع العصبية القبلية ، حيث
إن العلاقة الفردية بينهما كانت تحمل أحياناً نوعاً من التعاطف
فيما بينهما . فالفرزدق يتدخل لدى المهلب بن أبي صفرة لإعفاء
جرير من قتال الأزارقة (٥) ، وجرير يتوسط للفرزدق عند خالد
القسري الذي حبسه لهجائه له (٦) . فالواقع أن هجاءهما تحول
مع مرور الزمن إلى لون من المنافسة الأدبية ، إذ شعر الاثنان أن

(١) نفسه ٢٨٣ / ٢

(٢) نفسه ٣٧ / ١٣

(٣) نفسه ٣٣٩ / ١٥

(٤) نفسه ١١١ / ١٥

(٥) نفسه ٣٤٤ / ٢١

(٦) نفسه ٣٨٠ / ٢١

نقائضهما منحتهما شهرة واسعة . فكان أحدهما عندما ينتهياً
لإلقاء قصيدته ، يتحلق حوله الناس ، ويقابلونه بالتصفيق
والتهليل ، وبعد انتهائه منها يأخذون في ترديد أبياتها في
انتظار نقيضتها .

كما أنه أصبح لوناً من اللهو والتسلية يقصد به إضحاك
الناس ، وملء فراغهم . وهذا ما تؤكد تلك الصور الساخرة
التي تحفل بها نقائضهما .

فلو أنه حمل في استمراره طابعاً جاداً كما كان عليه الهجاء
المعروف عند العرب لشهرت معه السيوف لما تضمنه من قذف لنساء
العشائر والأمهات والأخوات (١)

وخاتمة القول فلقد أسهمت المتغيرات السياسية والاجتماعية في
العصر الأموي مساهمة فعالة في تنشيط الحركة الشعرية آنذاك . مما
جعل هذه الفترة من أكثر عصور الشعر العربي ازدهارا . كما كان لهذه
المتغيرات دورها في توجيه أغراض الشعر ، الأمر الذي ساعد على جعل
بعضها في واجهة الحركة الشعرية آنذاك .

(١) العصر الاسلامي ص ٢٥٠ .

الباب الأول

أثر الإسلام في الشعر الأموي

الفصل الأول : العوامل المؤثرة
الفصل الثاني : تطور القصيدة
العربية في الشعر
الأموي على هدى
الإسلام.

العوامل المؤثرة

لعل من المفيد قبل أن نقف على أثر الإسلام في الشعر الأموي، أن نلم بتلك المرحلة التي سبقت نشأة الدولة الأموية ، وامتدت أربعين سنة عقب الهجرة النبوية ، وتعارف الباحثون على تسميتها بعصر صدر الإسلام . وذلك لكي نعرف المدى الذي بلغه أثر الإسلام في نتائجها الشعري . فمن المعلوم أن تلك الفترة قد شهدت عدداً غير قليل من الشعراء المخضرمين الذين اعتنقوا الإسلام . وكان منهم من لازم الرسول صلى الله عليه وسلم إبان الدعوة الإسلامية وشارك إلى جواره في غزواته ضد المشركين . إما بلسانه كحسان بن ثابت ، أو بلسانه وسيفه معاً كعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . ولتسليماً بما يملكه الشعراء من رهاقة في الحس ، وقدرة على التأمل ، فمن المؤكد أن هذه الفئة المؤمنة من الشعراء قد تأثرت بمعطيات هذا الدين ومفاهيمه ، وظهر أثر ذلك في شعرها . فما هي ملامح ذلك الأثر ؟

إن ما يظهر من خلال الدراسات التي تيسر الاطلاع عليها والتي تناولت شعر تلك الفترة من هذا الجانب . هو إجماعها على أن الأثر الإسلامي ظل محدوداً ، وانحصر في نطاق ضيق يتمثل أغلبه في

استخدام الشعراء لبعض الألفاظ والتعابير الدينية ، أو اقتباسهم المباشر لبعض الآيات القرآنية . أما استلهاهم للقيم والتعاليم الجديدة - وهو الأهم - فقد كان نادراً لا يتجاوز عند أغلب الشعراء أبياتاً قليلة تتناثر في قصائد يسودها الطابع الجاهلي .

فالدكتور يحيى الجبوري في دراسته لشعر المخضرمين يصل إلى أن أثر الدين في شعرهم كان " وفقاً على استعمال ألفاظ وتعابير دينية ، أو ذكر أحداث ومناسبات إسلامية ، أو تضمين آيات قرآنية ، وكل هذا يدخل في باب النقل من تعاليم الإسلام لا الإبداع وابتكار المعاني المستوحاة من هدي الإسلام وتعاليمه ، فكان من المؤمل أن يستفيد الشعراء من أسلوب القرآن ، في التذكير والوعد والوعيد والمحااجة ، وسوق الأمثلة ، والقصص ، وغير ذلك . " (١)

ويتناول الجبوري شعر حسان فيرى ان قصائده تكون " مفصلة في ذكر فنون الجاهلية ، من فخر وحماس وهجاء ووصف ، فإذا ما تناولت أمراً إسلامياً نجد همّ الشاعر أن يذكر الرسول أو الكتاب أو الجهاد أو الضلالة

(١) شعر المخضرمين ص ٣٤٩ .

أو الهدى ، ثم سرعان ما يتخلص إلى معان جاهلية عامة ، من فخر وعصبية وحسن بلاء ، فكأن الدين يأتي ذكره استهلالاً لقصائد أو ختاماً لها ، أو المرور بالمعنى الديني مرّاً سريعاً في بيت أو أبيات" (١)

ويؤكد د . عبد القادر القط ما توصل إليه الجبوري ، وذلك في دراسته لشعر حسان بن ثابت ، فهو يرى أنه كان متأرجحاً " بين الأسلوب الجاهلي في صوره ولغته ومعانيه ، وأسلوب لا يمكن أن نسميه إسلامياً بالمعنى الصحيح ، وإنما يستخدم الشاعر فيه بعض الألفاظ القرآنية والمعاني الدينية ويتحلل فيه من المعجم الشعري الجاهلي مؤثراً البساطة التي قد تنتهي أحياناً إلى النظم والركاكة . ذلك لأن الشاعر شأنه في ذلك شأن سائر الشعراء المسلمين حينذاك لا يصدر في دفاعه عن الإسلام ، وهجائه للمشركين عن تصور ديني واضح المعالم، بل يخلط بين وقائع الحروب والأحداث الشخصية ، ومعان دينية يسيرة لا تعين على الاهتداء إلى أسلوب فني جديد ، يختلف عن الأسلوب الجاهلي" (٢)

(١) نفسه ص ٣٥٠

(٢) في الشعر الاسلامي والأموي ص ٤٦ .

وفي دراسته لشعر كعب بن مالك يشير د . عبد الله الجبري -
إلى أن أثر الإسلام على شعره كان ضئيلاً " فأغلب شعره سرد تاريخي
لأحداث الفترة ووقائعها ، وذكر مفصل لأسماء من شاركوا فيها . ولم
يحدث في شعره أي تطور نتيجة لتأثير الإسلام وتعاليمه إلا في حدود
ضيقة . ولم يوفق في التخلص من المفاهيم الغنية الموروثة فقد استمد
منها مادته وظلت الصورة القديمة للهجاء والمديح والفخر والثناء هي
الشائعة في شعره " (١)

ومن خلال دراسة قصيدة الرثاء الإسلامي (٢) عند حسان شاعر
الرسول نخرج بما يؤكد تلك النتائج التي توصلت إليها الدراسات
السابقة .

إن مجموع ما قاله حسان من رثاء في الإسلام - فيما صحت نسبته
إليه بلغ ثلاث عشرة قصيدة وست عشرة مقطوعة ، عدد أبياتها أربعة
وأربعون ومائتا بيت . قالها في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي
رثاء أصحابه أبي بكر وعمر وعثمان وحمزة وغيرهم من الصحابة ، وفي رثاء

(١) مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي العدد الخامس ص ٢٨٧ .
(٢) جاء اختيار الرثاء موضوعاً للدراسة لكونه أحد الأغراض الشعرية
التي كتب لها الاستمرار طوال ذلك العصر لعدم تنافيه مع القيم
الإسلامية . وكذلك لأنه من أكثر الأغراض قبولاً للتغيير في ظل
هذا الدين الحنيف ، نتيجة للرؤية الجديدة التي يحملها
الإسلام للموت الذي هو محور قصيدة الرثاء .

قتلى مؤتة ، وقتلى الرجيع ، وثلاثة أبيات يرثي بها ابنته . ويبدو التأثير الإسلامي في حوالى تسعين بيتاً منها . أي ما يمثل ٣٦٫٨ ٪ تقريباً . وهي نسبة ضئيلة لأن الجزء الأكبر منها لا يعد وأن يكون ألفاظاً ومصطلحات دينية ، أو سرداً لأحداث تاريخية . وكل ذلك أثر سطحي لا يعتد به .

ولعل في تحليلنا لقصيدتين قالهما الشاعر في فترتين متفاوتتين ما يؤكد لنا صدق ذلك .

فأطول قصائده في رثاء حمزة - ١٩ بيتاً - وقد قالها في أعقاب غزوة أحد - ٣ هـ ، حيث نجد الشاعر يبدؤها بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين ، وذلك في الأبيات من ١ - ٣ . ثم ينتقل بعد ذلك إلى تأبين حمزة ، فيعتمد على المفاهيم الجاهلية في تقدير الأفراد ، فهو يشيد بكرمه وشجاعته ورفعة نسبه ، ولا يختلف عن ذلك إلا وصفه لحمزة بالشهيد في البيت التاسع .
يقول حسان : (١)

دَعَّ عَنْكَ دَارًا قَدْ عَفَا رَسْمُهَا وَأَبَكَ عَلَى حَمْزَةٍ ذِي النَّائِلِ
الْمَالِي الشَّيْزِي إِذَا أَعْصَفَتْ غَبْرَاءُ فِي ذِي السَّنَةِ الْمَاجِلِ (٢)

(١) الديوان ص ٢٢٠

(٢) الشيزي : جفان تعمل من خشب الشيز.

والتاركِ القرنَ لدى ليدِه يعثرُ في ذي الخُصرِ الذَّابِلِ (١)
واللابسِ الخيلِ إذا أُحْجِمَتْ كاللَّيْثِ في غاباته الباسِـلِ
أبيضَ في الذُّرَّةِ مِنْ هاشِمٍ لم يَمِرْدُ وَنَ الحَقِّ بالباطِلِ
ما لِشَهِيدِ بَيْنَ أَرْماحِكُمْ شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلِ
ويصور في البيت الحادي عشر ما أحدثه موت حمزة ، فقد أظلمت الأرض
لفقده ، وأسود نور القمر . وهذه الصورة التي يرسمها حسان جاهلية
بحته ، فهو يقول (٢) :

وَإِنَّ امْرَأً غَوْدَ رَ فِي آلَةٍ مَطْرُورَةٌ مَارِنَةُ الْعَامِـلِ (٣)
أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِفَقْدِ أَنِهِ وَأَسْوَدَ نَوْرَ الْقَمَرِ النَّاصِلِ

ويدعو له في البيت الثاني عشر بدخول الجنة ، قائلاً : (٤)

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ مُكْرَمَةٍ الدَّاخِلِ

أما الأبيات الأخيرة ١٣ - ١٩ فهو يعود فيها إلى الاشادة بشجاعة
حمزة في الإسلام ، وما أنزله بالمشركين في قتاله لهم في غزوة بدر
ذاكراً في البيت الأخير أن جبريل كان وزيراً له في قتاله ، قائلاً : (٥)

.....

أَرَدَاهُمْ حَمَزَةً فِي أُسْرَةٍ يَمْشُونَ تَحْتَ الْحَلَقِ الذَّاوِلِ
غَدَاةَ جَبْرِيلَ وَزِيرُ لَهُ نَعَمْ وَزِيرُ الْفَارِسِ الْحَامِلِ

(١) القرن : الذي يقاوم في القتال ، اللبد : لبس السرج ، وذو الخصر :
الرمح . السنان الذابل : الرقيق الشديد .

(٢) الديوان ص ٢٢٠ .

(٣) الآلة : الحرية ، مطرورة : محدودة ، مارنة : لينة .

(٤) الديوان ص ٢٢١ .

(٥) الديوان ص ٢٢١ .

ومن بين قصائد الشاعر في رثاء عثمان مختار قصيدة مؤلفة من - ١٦ بيتاً - يفترض أنها قيلت في سنة ٣٥ من الهجرة أي في فترة متأخرة ، كانت الأحداث فيها قد هدأت ، وإن كان هناك استمرار لها في شكل فتوحات ، إلا أن الشاعر كان بمعزل عنها . كما يفترض أن الفترة التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فرصة مواتية لحسان للتأمل والتفكير ، والاستجابة بسرعة للمثل والمبادئ التي جاء بها الدين الحنيف . كما أنها كانت كافية لإبراز المعاني الدينية وتضمينها في شعره . وكان يتوقع منه أن يتخلص من بعض المفاهيم الموروثة ، يستبدل بها متطلبات العهد الجديد .

وكما أن مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه كان حدثاً عظيماً أحدث جرحاً عميقاً في وحدة المسلمين ، وردهم إلى جاهليتهم الأولى . وكان جديراً بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتفاعل مع هذا الحدث ويسخر له كل مواهبه ، ويطوع له كل ملكاته ، وذلك بشحذ هم المسلمين ، ودعوتهم إلى جمع الشمل ، والاحتكام إلى القرآن والسنة ، ونبذ الخلاف وتحذيرهم من الفرقة والشتات التي يستفيد منها أعداء الإسلام .

إننا بإلقاء نظرة سريعة على أطول قصائده في رثاء عثمان نجد أن حسان رضي الله عنه يستهلها " الأبيات ١ - ١١ " بتقرير موقف تاريخي حدث أثناء الحصار لدار عثمان رضي الله عنه وهو أن آل حزم ظلوا يسقونه الماء في غفلة من الرقباء . وهو يعني بذلك على الأنصار تخاذلهم عن نصره الخليفة وعدم وفائهم بعهدهم له عند مبايعتهم إياه بالخلافة بينما يشيد بمن وقفوا معه .

وفي البيتين الثاني والثالث عشر ينتقل إلى تأبين عثمان فلا يتحدث عنه باعتبار خليفه عادلاً ، ولا عن دوره في فترة الدعوة المحمدية وما قام به من نصره للرسول صلى الله عليه وسلم بالنفس والمال ، بل يسير على المفاهيم الجاهلية . فلا زال للنسب عنده دور كبير في تقدير عثمان ، مع أن الإسلام قد غض من التفاخر بالأنساب ، وجعل الفضل بالدرجة الأولى للمتقين " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (١) . والرسول صلى الله عليه وسلم أكد على هذا في حجة الوداع بقوله " وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " (٢)

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٠٩ .

يقول حسان (١) :

غَدَرُوا بِأَبِيخَ كَالِهَلَالِ مُبَرَّرٍ خَلَصَتْ مَضَارِبُهُ بِزَنْدٍ وَارٍ
مِنْ خَيْرِ خَنْدِفٍ كُلِّهَا بَعْدَ الَّذِي نَصَرُوا إِلَهَ بِهِ عَلَى الْكُفَّارِ
ويظهر أثر الإسلام واضحاً في شطر البيت الأخير من القصيدة حين
يذكر الشاعر أن بني عمرو بن عوف قد كتبوا مع الأبرار لوقوفهم مع
ال خليفة في أزمتهم ، قائلاً (٢) :

حَاشَا بَنِي عَمْرٍو بَنِي عَوْفٍ إِيْتَهُمْ كُتِبَتْ مَضَاجِعُهُمْ مَعَ الْأَبْرَارِ

إن الشاعر في قصيدته السابقتين يخضع للمفاهيم الجاهلية
التي ظلت تحكم شعره ، أما تأثره بالإسلام فقد كان مقصوراً في
أبيات محدودة .

وضالة الأثر الإسلامي ومحدوديته في شعر صدر الإسلام يجعل
الدارس في حيرة ، ويدفعه إلى التساؤل بحثاً عن الأسباب التي
قصرت بشعراء الدعوة الإسلامية عن الاستجابة لمتطلبات العهد
الجديد .

(١) الديوان ص ٢١٤ .

(٢) الديوان ص ٢١٥ .

إن هذه الفئة المؤمنة من الشعراء وهم الفئة التي عاصرت مراحل الدعوة منذ هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وشاركوا في صنع أحداثها ، وامتد بهم العمر بعد ذلك فترة شهدت العديد من التحولات المهمة والخطيرة في حياة الإسلام والمسلمين . ومع كل ذلك لم يستطيعوا أن يتمثلوا بشعرهم تعاليم الإسلام ومثلثه العليا ، فقلت العناصر الدينية في أشعارهم ، وظل سلطان الموروث الجاهلي شائعاً فيها ، وصعب عليهم تطويع مواهبهم وتسخير قدراتهم الفنية لخدمة الأهداف الإسلامية السامية . ولعل ذلك يعود لأسباب من أهمها :

أولاً : إن شعراء هذه الفترة كانوا من فئة المخضرمين الذين اكتمل نضجهم العقلي والفني في العصر الجاهلي مما جعل مفاهيم ذلك العصر ترسخ في أذهانهم ، وتنعكس على فنهم ، وكان من الصعب عليهم آنذاك أن ينفصلوا عنها بعد أن ألفوها دهرًا طويلاً امتزجت فيه بعقولهم ، وبعضهم أدرك الإسلام متأخرًا وقد تقدم به العمر .

ثانياً : إن عصر صدر الإسلام كان فترة انتقال قصيرة بين الجاهلية والإسلام . ومثل هذه الفترة لا تساعد أبداً على بروز الظواهر الجديدة . فالنفوس في حاجة إلى الاستقرار ، والأذهان في حاجة إلى تقبل أكثر لمتطلبات العهد الجديد .

يضاف إلى ذلك أن هذه الفترة كانت مليئة بالأحداث المتتابعة ، فالمسلمون يخرجون من غزوة ليدخلوا في أخرى . وهذا لم يتيح لشعرائهم الفرصة لمراجعة النفس والتأمل فيما حولهم ، ومحاولة استيعاب تعاليم الإسلام بشكل يتيح لها أن تتمكن من نفوسهم وتنعكس بالتالي على شعرهم . كما أنهم كانوا مشغولين بمتابعة ما يدور حولهم ، وهذا - أيضاً - لم يساعد هم على التعبير عن قيم الإسلام وتضمينها في شعرهم بصورة ملموسة .

ثالثاً : إن بعض الأغراض الشعرية التي كتب لها الاستمرار في ظل الإسلام - كالهجاء والفخر مثلاً - كان الهدف من استخدامها في معركة الدعوة الإسلامية هو الوقوف ضد استغلال قريش للشعر في محاولتها النيل من الرسول وأصحابه ، ولذا كان لابد لشعراء الرسول أن يخاطبوا المشركين ويفادحهم بمفاهيم الجاهلية التي يؤمنون بها ، فليس طبعياً أن يعيروهم بالكفر وهم غير مقتنعين بالإسلام . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوجه حسناً إلى ذلك الاتجاه بقوله " اهجم واثت أبا بكر يخبرك أي بمعائب القوم " (١)

(١) طبقات فحول الشعراء ٢١٧/١ .

غير أننا لا ينبغي أن نغفل عن نقطة هامة وهي أن الإسلام قد ألغى بعض الأغراض الشعرية التي تتناقض مع قيمه ومفاهيمه ، كالشعر الذي يتغنى بالخمرويصف مجالسها ، والغزل الفاحش الذي يتحدث عن المرأة تحت تأثير الغريزة الجنسية مما يجعل أبياتـه تصويراً حسياً بحثاً ، وكالهجاء الذي يتناول أفراد الجماعة المسلمة ليزرع بذور الشقاق بينهم ، أو المدح الكاذب الذي كان الدافع له هو الحصول على منافع شخصية وأطماع ذاتية .

وقد انعكس ذلك على شعر تلك الفترة فتلاشت بعض الأغراض الشعرية أو كادت ، وتضاءل شأن أغراض أخرى . إما لاستجابة الشعراء للتعاليم التي جاء بها الإسلام ، أو خوفاً من الموقف الصارم الذي اتخذه الخلفاء الراشدون من كل شاعر لا يتورع عن التعامل مع الأغراض الشعرية التي تتنافى مع هذا الدين .

وعلى الرغم من أن العصر الأموي لم يكن على تلك الصورة المثالية في الالتزام الديني الذي كان يتسم به عصر الخلافة الراشدة ، حيث عادت إلى أفق الحياة العربية بعض النزعات الجاهلية التي حاربها الإسلام والتي تمثلت في أبرز صورها في عودة العصبية القبلية ، وفي انتشار اللهو والمجون في الحواضر الإسلامية بسبب ضعف الوازع الديني

وبدافع الترف الذي أصاب الحياة الإسلامية عقب الفتوحات وما عادت به من ثروات طائلة . فإن ذلك لم يمنع من أن يظهر أثر الإسلام على مختلف الأغراض الشعرية ، ولم يكن ذلك محصوراً في استخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية ، أو الاقتباس من القرآن - وهي أبرز ملامح التأثير في الفترة السابقة - وإنما أصبحت المثل الإسلامية تمثل ركيزة في الفكرة الشعرية .

ولا نكاد نقف عند شاعر من شعراء العصر إلا ولمسنا في شعره بعض الملامح الإسلامية ، وإن كان ذلك متفاوتاً بينهم بحسب استعداد الشاعر النفسي لذلك . وقد شمل ذلك - كما أشرنا - مختلف الأغراض الشعرية بما فيها تلك التي لا تتفق في مدلولها مع قيم الإسلام ، مما قد يوحى بافتقارها إلى الروح الإسلامية .

فقد أصبح الهجاء - أحياناً - يعتمد على القيم والمثل الجديدة ، حيث استفاد منها الشعراء فعمدوا إلى توظيفها في قصائد هم للنيل من مهجويهم إما بتجريد هم منها ، أو بوصفهم بما يتنافى معها . وقد كان هذا اللون من الهجاء مصدر قوة لجريه ضد خصمه الفرزدق والأخطل .

كما أن الغزل هو الآخر تأثر بالمفاهيم الجديدة . فنشأ
الغزل العذري في بادية الحجاز ونجد ، وهولون جديد من الغزل
يتسم بالعفة والنقاء في تصوير علاقة الرجل بالمرأة بعيداً عن الحسية
التي كانت تحكم الغزل قبل ذلك . ويرى كثير من الباحثين (١) أنه
نشأ تحت تأثير الإسلام على شعرائه .

وقد هيأ لانعكاس الروح الإسلامية في نفوس شعراء تلك الفترة
عوامل مختلفة ترتبط بنشأتهم كما ترتبط بالبيئة المحيطة بهم ، وبالظروف
السياسية التي واكبت عصرهم . وهذه العوامل يمكن حصرها فيما
يلي - :

١ - إن شعراء هذه الفترة قد نشأوا في ظل الإسلام ، وتربوا في
ضوء تعاليمه مما أتاح لمفاهيم هذا الدين التي صاحبته منذ
طفولتهم المبكرة أن تمتزج في نفوسهم وتستقر فيها . وبالتالي
ساعد ذلك على ظهورها في شعرهم .

ولعل الفرزدق أصدق مثل على ذلك . فهذا الشاعر
على الرغم مما اتسمت به حياته من عدم التزام بالسلوك الديني
المطلوب - كما تشير المصادر الأدبية - (٢) فإننا نجد في شعره

(١) انظر مثلاً : العصر الاسلامي ص ٣٥٩
الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٤٢ .
(٢) انظر مثلاً الأغاني ٣٦٠ / ٢١ ، ٣٦٣ .

ما يدل على أثر قوي للإسلام عليه (١) وعلى ثقافة إسلامية عميقة تكونت لديه بفضل نشأته . كما أن له قصيدة فريدة يهجو بها إبليس ، ويصور فيها محاولاته لإغواء الإنسان المسلم وهي قصيدة تنم عن روح إسلامية حقة .

٢ - معرفتهم بالقرآن الكريم بما يحتويه من التعاليم والقيم ، ولما له من قيمة دينية لدى الإنسان المسلم .

وهناك ما يشير إلى أن بعض الشعراء كان حافظاً له أو حاول أن يفعل ذلك . فالفرزدق قيد نفسه في فترة من حياته وآلى ألا يفك قيده إلا بعد أن يحفظه (٢) ، والكميت كان حافظاً له (٣) . كما أن أعشى همدان كان في أول حياته منشغلاً به (٤) ولا نعدم أن يكون هناك شعراء آخرون فعلوا ذلك . فقراءة دواوين جرير ، وعمر بن أبي ربيعة ، والأحوص وغيرهم تؤكد أن هؤلاء الشعراء كانوا على علم ودراية بآيات القرآن الكريم وأحكامه .

(١) انظر كتاب : أثر الإسلام في شعر الفرزدق للدكتور مصطفى عبد الواحد .

(٢) الأغاني ٢٨٣/٢١ ، النقااض ١٢٧/١ .

(٣) خزنة الأدب ١٤٤/١ .

(٤) الأغاني ٣٤/٦ .

٣ - إن الشعراء كانوا يعيشون في بيئة إسلامية نشأ أفرادها في ظل الإسلام ، وانفرست فيهم تعاليمه التي اتخذوها منهجاً لحياتهم . فكان لابد للشعراء أن يسايروا فكر هذا المجتمع وأن يتماشوا معه بإبراز المفاهيم الجديدة التي جاء بها هذا الدين ، وأن يظهر أثر ذلك بارزاً في أشعارهم .

ومن هنا فقد كان جريبر يعمد إلى جعل المعاني الدينية عنصراً أساسياً في هجائه للأخطل والفرزدق . فهو في ذلك ينظر للمجتمع الإسلامي من حوله ، وهو على إدراك تام بأن تعبيره للفرزدق بالفسق والمجون ، وتعبيره للأخطل بالنصرانية سينقص من قدرهما في نظر الجمهور المسلم .

كما أن الأخطل الشاعر النصراني الذي كان يعتز بدينه ، والذي كان يدخل على عبد الملك بن مروان والصليب يتدلى من عنقه ، ولحيته تنفض خمراً (١) ، لم يستطع الانفلات من تأثير الإسلام فانعكست بعض الملامح الإسلامية في شعره (٢) . وذلك من واقع تأثير المجتمع المسلم من حوله .

(١) نفسه ٢٩٩/٨ .

(٢) حول الملامح الإسلامية في شعر الأخطل انظر كتاب الأخطل الكبير حياته وشخصيته وقيمه الفنية للدكتور فخر الدين قباوة

كما كان للحياة الدينية السائدة في العصر الأموي تأثيرها المؤكد على الشعراء . فهذه الفترة لم تكن بعيدة عن الالتزام الديني كلياً ، ولم يكن الجميع منغمسين في حياة اللهو . فقد انتشرت في بعض الحواضر الإسلامية حركة زهد ونسك وتكشف ووعظ ، من خلال بعض التابعين الذين أرادوا لسبب أو لآخر أن ينهجوا في حياتهم نهج الرعيل الأول من الصحابة ، وذلك بالإعراض عن الحياة الدنيا ومغرياتهما ، والتمسك بمبادئ هذا الدين تطلعاً لحياة الآخرة ، وما أعدّه الله لهم فيها من نعيم مقيم . ومنهم الحسن البصري ، ومطرف بن عبد الله الشخير^(١) ، ويزيد بن أبان الرقاشي^(٢) ، وصلة بن أشيم^(٣) وغيرهم .

وقد كان لهذه الفئة المتدينة - والوعاظ منهم خاصة - تأثيرها على الشعراء من خلال استماعهم لهم ، فالفرزدق كان على صلة وثيقة بمجلس الحسن البصري^(٤) - واعظ العراق الشهير - وعندما قال قصيدته في هجاء إبليس عرضها عليه^(٥) . وكأنما هو قد قالها تحت تأثير مواظ الحسن . كما أن جريراً - كما تقول الرواية - كان يجالس ابن سيرين التابعي الجليل^(٦)

(١) المعارف ص ٤٣٦ ، تهذيب التهذيب ١٠ / ١٧٣ .

(٢) تهذيب التهذيب ١١ / ٣٠٩ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٣٦٣ .

(٤) العقد الفريد ٥ / ٣٨٣ .

(٥) الأغاني ٢١ / ٣٠٤ .

(٦) العقد الفريد ٥ / ٣٨٣ .

فهذه الفئة وجدت أصداءها داخل نفوس الشعراء ، مما أسهم في بعث المعاني الدينية في قصادهم .

يقول شوقي ضيف : " فالشعر الأموي كتب في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقية صالحة ، فيها نسيك وعبادة ، وفيها تقوى وزهد . وليس معنى ذلك أن كل الشعراء كانوا ناسكين زاهدين وإنما معناه أن الحياة الروحية الجديدة لم تنفصل عن حياتهم الفنية، بل أثرت في كثير من جوانبها وطورتها ، وظهر هذا التطور في صور مختلفة " (١)

٤- كان العصر الأموي فترة قلق واضطراب سياسي ، إذ شهد صراعاً قوياً بين السلطة - ممثلة في الأمويين - وبين المعارضة بأحزابها الثلاثة من زبيريين وشيعة وخوارج . وقد كان مبعث هذا الصراع هو وصول الأمويين إلى الحكم عن طريق القوة - لا الشورى - ، وتكريسهم لإلغاء هذا المبدأ الإسلامي بتحويلهم الخلافة إلى أمر وراثي فيهم . وقد كانت أحزاب المعارضة ترى أن الأمويين ليسوا أكفاء لهذا المنصب وأن هناك من هو أجدر بها منهم . وبما أن الخلافة هي منصب ديني وجد في ظل الإسلام يخضع لأسس دينية ، ومن واقع إدراك الشعراء لهذه الحقيقة ذاتياً أو بتوجيه أحزابهم ، فقد كانوا حريصين على توظيف العناصر الدينية في جميع الأغراض الشعرية التي أرادوا من خلالها التعبير عن فكرهم الحزبي ، أو في تأييد وجهة نظر الحزب في الخلافة .

يروى عن عبد الملك بن مروان أنه قال مخاطباً الشعراء
الذين يمدحون بني أمية : " يا معشر الشعراء ، تشبهوننا
مرة بالأسد الأبحر ، ومرة بالجبل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلتم
فيما كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم :

نهاركمُ مكابدةٌ وصومٌ	وليلكمُ صلاةٌ واقترأُ
وليتم بالقرانِ وبالتزكَّى	فأسرعَ فيكم ذاك البلاءُ
بكى نجدٌ غداةً غدٍ عليكم	ومكةُ والمدينةُ والجواءُ
وحقَّ لكلِّ أرضٍ فارقوها	عليكم لا أبالكُم البكاءُ" (١)

فالخليفة الأموي كان يدرك تماماً أن اضفاء الصفات الدينية
عليه وعلى الأمويين سيعمل على تحسين صورتهم أمام الرعية ،
وسيوحي بجدارتهم بإمامة المسلمين . ومن هنا عمد إلى
توجيه الشعراء إلى هذا الاتجاه .

هذه هي مجمل العوامل التي كانت - في اعتقادي -
خلف بروز الأثر الإسلامي على شعر العصر الأموي . وهي كما
ظهر ترتبط بنشأة الشعراء ، كما ترتبط بالمجتمع المحيط بهم ،
وبالظروف السياسية التي واكبت عصرهم . والقول بوضوح أثر الإسلام
على شعر تلك الفترة لا يعنى بتاتا أن الروح الإسلامية كانت هي
الغالبة على المضمون الشعري آنذاك .

فهذا ما لا يتفق مع الواقع أبداً . فالشعراء الأمويون
- من دون شك - قد اطلعوا بشكل أو بآخر على تجارب
سابقهم من الجاهليين والمخضرمين الذين كانوا يمثلون
بالنسبة لهم أنموذجاً يحتذى في عالم الشعر . وهذا ما
تؤكدّه المصادر القديمة . فالفرزدق كان من بين الرواة
المعدودين (١) . وفي شعره ما يدل على اطلاعه على قصائد
القدامى ، وانكيا به عليها ، وإعجابه بها (٢) . كما أن
هناك ما يدل على معرفة شعراء آخرين بالشعر القديم
كالطرماح (٣) ، وجربير (٤) ، وجميل (٥) ، وذو الرمة (٦) . وقد
ساعد ذلك على استمرار المفاهيم القديمة لديهم . يضاف إلى
ذلك أن طابع العصر الأموي - كما أشرنا من قبل - لم يكن
على صورة من المثالية والالتزام الديني ، وإنما كان في بعض
جوانبه ترسيخاً لبعض المفاهيم القديمة .

-
- (١) البيان والتبيين ٣٢١/١
(٢) الديوان ١٥٩/٢
(٣) الأغاني ٣٦/١٢ ، الشعر والشعراء ٥٨٩/٢
(٤) الأُمالي ١٧٩/٢
(٥) الأغاني ٩١/٨
(٦) نفسه ٨٨/٦ .

ومن هنا فان ديوان الشعر العربي في العصر الأموي لم ينفصل عن التقاليد الشعرية الجاهلية ، فظلت لها قيمتها الملموسة فيه . مما يجعلنا نطالع نسبة كبيرة من القصائد الشعرية التي يغلب عليها الطابع الجاهلي . غير أن ذلك لا يمنع أبداً من القول ببروز الملامح الإسلامية في شعر ذلك العصر ، وأنها لم تنتظر إلى العصر العباسي لتظهر فيه ، كما يحاول إفهامنا بعض الباحثين .

يقول بروكلمان " ولم يؤثر الإسلام تأثيراً عميقاً في شعراء العرب كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك . فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين . ولم تسود روح الإسلام حقاً إلا بعد ظهور العباسيين " (١)

إن ما يقوله بروكلمان رأي يفتقر إلى الإنصاف ويجانب الواقع، وهو لا يمكن أن يصدر إلا عن قراءة ضيقة لشعر العصر الأموي .
فما الذي يمكن أن يقوله الدارس عن شعر الخوارج الذي تسوده الروح الإسلامية ؟ وبماذا يمكن تفسير شعر الزهد والتوبة الذي يضمه النتاج الشعري للعصر ؟ هل هناك عقيدة غير الإسلام كانت تقف خلف ذلك ؟ إن الواقع يؤكد أن الإسلام وضع بصماته بوضوح على شعر تلك الفترة ، وانعكس ذلك جلياً لا في المضامين الشعرية فحسب ، وإنما امتد إلى لغة الشعر وصوره الفنية .

(١) تاريخ الأدب العربي ٣٦/١ .

” ” الفصل الثاني ” ”

((*) ” تطور القصيدة العربية في الشعر الأموي (*))

على هدي الإسلام

تطور القصيدة العربية في العصر الأموي على هدي الإسلام

جاء الإسلام والشعر يحتل في نفوس العرب مكانة كبيرة ، ومنزلة رفيعة
فهو علمهم الذي " لم يكن لهم علم أصح منه " (١) ، وهو ديوانهم وسجل مفاخرهم
الذي خلد آدابهم وعلومهم وأخلاقهم . وليس أدل على مكانته في نفوسهم
ما يذكر عن احتفاء القبيلة العربية بنبوغ شاعر بين أبنائها (٢) . فالشاعر منهم
كان نجماً لامعاً يحترمه القاضي والداني ، ليس لأنه فقط يحمي أعراضهم ، ويدافع
عن أحسابهم ، ويخلد مآثرهم ، ويشيد بذكورهم ولكن أيضاً لأن العرب أمة شاعرة
تطرب للشعر وتقدر المواهب الأدبية ، ولهذا احتل الشاعر منزلة كبيرة في قومه
لما لشعره من وقع كبير في نفوسهم .

وقد ساعد ذلك على وجود حركة شعرية نشطة لم يصل إلينا منها إلا القليل (٣).
والقارئ للشعر الجاهلي يجد أن شعراءه قد طرّقوا مختلف الأغراض الشعرية
من مديح وفخر وهجاء وغزل وحكمة ورثاء ووصف . وكثيراً ما كانت بعض هذه الأغراض
تتداخل في القصيدة الواحدة . فقد بيدوها الشاعر بالغزل أو الوصف ثم تجده
ينقل إلى المديح أو الفخر أو أي موضوع آخر يريد التعبير عنه .

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٤/١ .

(٢) العمدة ٦٥/١ .

(٣) قال أبو عمرو بن العلاء " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم
وافراً لجاءكم علم وشعر كثير " طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ ، وانظر

الخصائص لابن جني ٣٨٦/١ .

والمضمون الشعري في القصيدة الجاهلية مثل عواطف وقيم المفاهيم السائدة ، وكانت القصيدة تبعاً لذلك معبرة عن واقع الحياة الجاهلية . ولما جاء الإسلام أبطل كثيراً من نزعات الجاهلية ومعتقداتها ، وحمل معه كثيراً من المتغيرات الدينية والاجتماعية التي أحدثت في الحياة العربية تحولاً كبيراً . . . وانقسم العرب عند ظهور الدعوة إلى فريقين . فريق يناصر الدعوة ويؤيدها ، وفريق يعارضها ويحارب أتباعها . والذي يعنينا من هذه الخصومة هو الشعر . فقد كان أحد أسلحتها ، إذ نشب صراع أدبي كان بين شعراء النبي صلى الله عليه وسلم وشعراء قريش ومن وقف بجانبها يناصرها من الأعراب . فحينما أغرت قريش شعراءها وشعراء القبائل المجاورة لها بهجاء الرسول والنيل منه ومن دعوته وأتباعه ، حينئذ اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم للرد على أعدائه بنفس سلاحهم . فدعا شعراء الأنصار لحماية أعراض المسلمين والدفاع عنهم وعن عقيدتهم .

ويلاحظ على الشعر في تلك الفترة أنه ظل في مجمله جاهلياً . إن من حيث الشكل أو المضمون ، حتى عند شعراء المسلمين الذين عارضوا خصومهم بمثل أقوالهم وعيروهم بالمثالب والأيام والوقائع . والرسول صلى الله عليه وسلم كان يدرك أبعاد هذا اللون من الهجاء ووقعه في نفوس المشركين . لذا وجه حسناً هذه الوجهة وقال له : " اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجم وجبريل معك " (١)

ونظراً لارتباط الشعر بالمتغيرات الكثيرة والأحداث المتتالية التي مرت على الجزيرة في ذلك العصر . فقد تعرض شعر هذه الفترة بصورة أكبر للطمس والضياع ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ومع ذلك فإن في هذا القليل الذي وصل إلينا منسوباً إلى عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين من بعده، ما يجعل الدارس يسلم بأن القصيدة الشعرية في ذلك العصر قد طرأ عليها بعض التطور تبعاً لما أحدثه الإسلام في النفوس، وما غرسه من قيم روحية واجتماعية ظهر أثرها على الشعر . لقد تمثل هذا الأثر الديني بإدخال عناصر إسلامية على شكل القصيدة ومضمونها . كما اقتصر الشعراء على النظم في الموضوعات التي تتمشى وطبيعة الحياة الدينية الجديدة . وتطورت اللغة الشعرية بفعل الإسلام، أو اكتسبت تعابير جديدة من القرآن والفاظاً لم تكن معروفة من قبل . كما ظهر على القصيدة في عصر صدر الإسلام تأثير الشعراء بالمعاني الدينية، وهذا وإن كان ضئيلاً ومحدوداً إلا أنه كشف عن قدرة الشاعر، وأظهر تفاعله مع واقع الحياة الدينية الجديدة . ولمزيد من الكشف عن هذا الأثر الديني الذي أصاب القصيدة العربية منذ بداية الدعوة وحتى نهاية العصر الأموي .

يحسن بنا أن نقوم بتتبع سريع للقصيدة من خلال بعض الأغراض الشعرية انطلاقاً من العصر الجاهلي ومروراً بعصر صدر الإسلام حتى نصل إلى العصر الأموي . حيث سنقف أمام بعض النصوص الشعرية الفريدة التي يغلب عليها الطابع الإسلامي وإن لم يكن يسودها، لكن نحاول من خلال تحليلنا لها الكشف عن المدى الذي وصلت إليه القصيدة العربية في تطورها على هذي الإسلام .

المديح

يعتبر المديح أحد الموضوعات الشعرية التي ترك لنا فيها شعراء العربية عبر العصور نتاجاً ضخماً ، ويرجع ذلك لكونه طريقة التكسب الأولى عند بعض الشعراء. كما أنه كان الوسيلة الإعلامية الوحيدة للدعاية الشخصية في تلك الأزمنة التي لم تكن تعرف وسائل الإعلام الحديثة ، مما كان يدفع كثيراً من ذوي الرفعة والجاه إلى بذل الأموال بسخاء للشعراء لكي يشيدوا بهم ، فيرضوا غرورهم ويعلموا قد رهم ويكسبهم حمداً وذكرأً حسناً بين قومهم وبين القبائل الأخرى : ومن خلال نظرة في تلك القصائد المنسوبة إلى العصر الجاهلي والتي كان المديح موضوعها الأساسي ، يتضح لنا أن الأفكار الشعرية التي كان الشعراء يضمنونها قصائدهم لا تخرج عن التفني بنسب الممدوح العريق ، وحسبه الرفيع ، وشجاعته الفذة ، والإشادة بأمجاد قبيلته وانتصاراتها ، والحديث عن جوده وعن ناره التي يؤمنها المحتاجون في الليالي الباردة ، وما إلى ذلك من الخصال التي كانت محل تقدير القوم واعتزازهم في العصر الجاهلي .

وقد سارت القصيدة في عصر صدر الإسلام على منوال ذلك النهج القديم وإن ظهر عليها أثر إسلامي فهو ضئيل لا يذكر . إذ أن التركيز كان منصباً على الأفكار القديمة في النظر إلى الممدوح . وهذا ما يظهر لنا في هذه الأبيات التي قالها حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

يقول حسان :

والله ربِّي لا نُفَارِقُ مَا جَدَّا عَفَّ الْخَلِيقَةَ سَيِّدَ الْأَجْدَادِ
مُتَكْرِّمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَا بَذَلَ النَّصِيحَةَ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
مِثْلَ الْهَلَالِ مَبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ سَمَحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ
إِنْ تَتْرَكُوهُ فَإِنَّ رَبِّي قَسَادٌ أُمْسَى يَعُودُ بِفَضْلِهِ الْعَوَادِ (١)

وكما نرى في الأبيات السابقة ، فان حسناً لا يزال خاضعاً للمفاهيم الجاهلية في تقدير الأفراد . فهذه الخصال وإن كتب لها الاستمرار في ظل الإسلام إلا أنه أضاف إليها ما هو أهم كالوصف بالتقى ، والصلاح والزهد ، وحب الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما إلى ذلك من الصفات التي أوردها القرآن الكريم في حديثه عن المؤمنين .

ويلاحظ أن شعر المديح كان قليلاً في عهد النبوة والخلافة الراشدة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده لم يكونوا راغبين في المديح ؛ لأن فيه من مظاهر الأبهة والتعظيم والكبرياء الكاذب ما ينهى عنه الإسلام .

أما في عصر بني أمية فإن خلفاءه كانوا على قناعة تامة بأن الشعر هو الصوت الدعائي الأول الذي يساعد هم في توطيد حكمهم ، فدفعوا مع ولاتهم في الأمصار الإسلامية الأموال الطائلة إلى الشعراء بسخاء منقطع النظير ، وقد روههم أعظم تقدير فاندفع هؤلاء في مدحهم والإشادة بهم .

وقد ظهر على شعرهم المدح بالمضامين الإسلامية كالتقى ، والصلاح ، والعدل ، وإقامة فرائض الدين ، وبناء المساجد ، والجهاد في سبيل الله ، والإشادة بضربهم على أيدي العابثين بأمن الدولة . وغير ذلك من المعاني التي استحدثها الإسلام وصارت أساساً يقوم به الأفراد . والدارس لقصيدة المديح في العصر الأموي يدرك بأن من أهم الأسباب التي دفعت الشعراء خصوصاً المحترفين منهم إلى تضمين المعاني الدينية ، والتأكيد عليها ، وإضافتها على الخلفاء والولاة ، إنما يعود إلى الصراع الحاد الذي نشب بين الأمويين وبين خصومهم السياسيين من زبيريين وشيعة وخوارج . مما جعل الخلفاء حريصين على أن ينسبهم الشعراء إلى هذه المعاني الدينية التي صبغ خصومهم السياسيون دعوتهم بها .

وتكشف قصيدة كثير عزة التي قالها في مدح عمر بن عبد العزيز عن المدى الذي بلغته قصيدة المديح من التطور على هدي الإسلام . فالشاعر بعد مقدمته الطليعة القصيرة ينجح في سائر أبيات القصيدة الاثني والعشرين في التخلص من تلك المفاهيم القديمة الموروثة عن العصر الجاهلي ، والتي كان الشعراء المداحون يلحون على ترديدها في قصائد هم . وكانت تدور حول التغني بشجاعة الممدوح ، والإشادة بجوده وكرمه ، والثناء على عراقة نسبه ، وما إليها من مفاهيم كانت تخضع لنمط تفكير الإنسان العربي في الجاهلية . وقد استطاع الشاعر أن يستبدل بها مفاهيم جديدة استقاها من الإسلام .

فهو في قصيدته يتناول شخصية الخليفة عمر بن عبد العزيز المتفردة بين خلفاء بني أمية بما عرف عنها من التزام ديني من جانبين رئيسين : أما أولهما

فهو الحديث عن زهد الخليفة ، وإعراضه عن الدنيا مع كل ما تظهره من مفاتها
التي تغري الإنسان بالإقبال عليها والتمتع بها ، وإدراكه بأنها دار الفناء ؛
رغبة منه في دار البقاء . هذا على الرغم من كونه الخليفة الذي لا يمنعه مانع
سوى الله من الوصول إلى ما يرغبه بفضل ما يمتلكه من السلطة . أما الثاني فهو
إشادته بتقوى الخليفة ، والثناء على حرصه على إقامة الحق والعدل حتى أمسى
المسلمون وهم راضون عن ولايته .

ولاشك أن هذه المعاني التي يرددها الشاعر ، والتي تتحدث عن الاستقامة
وصدق الدين والتقوى والصلاح والإعراض عن الدنيا ومباهجها والأخذ بأسباب
الآخرة والزهد والعدل والحق ، هي معان جديدة تولدت في ظل الإسلام
وعلى ضوء تعاليمه ، ولم تكن معروفة من قبل . يقول كثير عزة (١)

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وأظهرت نور الحق فاشتد نوره	على كل لبس بارق الحق مظلم
وعاقبت فيما قد تقدمت قبله	وأعرضت عما كان قبل التقدم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي	أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
تكلمت بالحق المبين وإنما	تبين آيات الهدى بالتكلم
إلا إنما يكفي الفتى بعد زيفه	من الأود البادي شفاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها	ترأى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة	وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما	سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها في منع	ومن بحرها في مزيد الموج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غايية	بلغت بها أعلى البناء المقدم

فلما أتاكَ الْمَلِكُ عَفْوَاً وَلَمْ يَكُنْ
تَرَكْتَ الَّذِي يَغْنَى وَإِنْ كَانَ مُونِقاً
وَأَضَرَّتْ بِالْغَانِي وَشَمَرَتْ لِلَّذِي
وَمَالِكَ إِذْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ
سَمَا لَكَ هُمْ فِي الْفَوَادِ مُؤَرَّقٌ
فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا
يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي
وَلَا بَسْطَ كَفٍ لَا مَرِيٍّ غَيْرِ مُجْرِمٍ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُونَ لِقَسَمُوا
فَعَشِيتَ بِهِ مَا حَاجَّ لِلَّهِ رَاكِبٌ
فَأَرْبِحَ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِمُبَايَعٍ

لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمٍ
وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمٍ
أَمَّا مَلَكٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَلَا دَمٍ
بَلَغَتْ بِهِ أَهْلَ الْمَعَالِي بِسُلْمٍ
مَنَادٍ يُنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ
بِأَخْذٍ لِدِينَارٍ وَلَا أَخْذٍ دِرْهَمٍ
وَلَا السَّفَاكَ مِنْهُ ظَالِمٌ أَمْلٌ مَحْجَمٍ
لَكَ الشُّطْرَ مِنْ أَعْمَا رَهْمٍ غَيْرِ نُدَمٍ
مُغِذٌ مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمِ—زَمِ
وَأَعْظَمَ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظَمَ

الرثاء

يقصد بالرثاء بكاء الموتى مع تأبينهم بذكر محامدهم ومحاسنهم . ولعله أكثر موضوعات الشعر صدقاً لأن الشاعر وهو يرثي عزيزاً فقد به بعد أن عايشه عمراً ، فكأنما هو يرثي نفسه لشعوره بأنه سيؤول إلى نفس المصير مما يغلف قصيدته بعاطفة حزينة .

وقد عرف الشعر العربي منذ أقدم عصوره بدءاً بالعصر الجاهلي هذا الفن . وقد كانت قصيدة الرثاء عند شعرائه تقوم على ندب المييت ، والتحسر عليه ، وإظهار الجزع والمرارة من القدر الذي يهلك الأصحاب والأحبة ، وكانوا يقفون في تأبينهم للميت أمام ما كان يتسم به من مناقب فاضلة هي محط أنظار الناس في ذلك الوقت كالكرم ، والشجاعة ، والوفاء ، والحمية ، بالإضافة إلى عراقة نسبه .

وكان هؤلاء لا يجدون سبيلاً لتعزية أنفسهم إلا بالتأسي ، وطلب السقيا لقبر الميت .

ومع مجيء الإسلام كان من المتوقع أن يظهر على الرثاء شيء من الاختلاف عما كان عليه في العصر الجاهلي . كأن يعتمد الشعراء في قصائدهم إلى المزاجية بين العناصر البارزة قديماً والتي ظلت لها قيمتها في الإسلام ، وبين عناصر يستقونها من قيم هذا الدين وتعاليمه . غير إن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فظلت قصيدة الرثاء تسير على نمطها الجاهلي . أما العناصر الإسلامية فقد كانت قليلة أو بالأصح نادرة ، وإن لم تكن منعدمة في كثير من القصائد .

ويرجع ذلك الى أن شعراء عصر صدر الإسلام ظلوا أوفياء للتقاليد التي ألفوها في الجاهلية .

فهذا كعب بن مالك يرثي حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - الذي استشهد في غزوة أحد . فنراه يثني على نسبه ، وكرمه ، وشجاعته وهي معايير جاهلية بحتة .

يقول كعب :

قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ	حيث النبوة والندى والسؤدد
والعاقر الكوم الجلال إذا غدت	ريح يكاد الماء منها يجمد
والتارك القرن الكمي مجدلاً	يوم الكربة والقنا يتقصّد
وتراه يرفل في الحديد كأنه	ذوليدة شئن البرائن أريد ^(١)

قَرْمٌ عَلَا بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ	ونراه يرثي جعفر بن أبي طالب فيعيد نفس المعايير القديمة قائلاً :
قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ إِلَّا لَهُ عِيَادُهُ	قَرْعًا أَشَمَّ وَسُودًا مَا يُنْقَلُ
فَضَلُوا الْمَعَاشِرَ عِزَّةً وَتَكْرُمًا	وعليهم نزل الكتاب المنزل
لَا يُطْلِقُونَ إِلَى السَّفَاهِ حُبَاهُمْ	وتغمدت أحلامهم من يجهل
بِيضُ الْوُجُوهِ تَرَى بَطُونُ أَكْفَهُمْ	ويرى خطيبهم بحق يفصل
	تندى إذا اعتذر الزمان المحل ^(٢)

وإن كنا نجد عندهم بعض الملامح الإسلامية كطلبهم للميت الرحمة ، والصلوات ، وتعزيتهم أنفسهم بأن مصيره إلى جنات النعيم . وهذا ما يظهر في قول حسان يرثي حمزة رضي الله عنه :

(١) السيرة النبوية ١٥٧/٢ ، ذوليدته : يعني أسدا . شئن : غليظ .
البرائن للسباع بمنزلة الأصابع للناس . الأريد : الأغبر خالطه السواد .
(٢) نفسه ٣٨٦/٢

وَأَسْوَدَ نَوْرُ الْقَمَرِ النَّاصِلِ
عَالِيَةِ مَكْرَمَةِ الدَّاخِلِ (١)

أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِفَقْدِ أَنْبِيَاءِهِ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِي جَنَّةِ

وقول كعب بن مالك يرثي حمزة أيضاً :

كَرَامُ الْمَدَاخِلِ وَالْمَخْرَجِ
لِوَاءِ الرَّسُولِ بِذِي الْأَضْوَجِ (٢)

وَقَتْلَاهُمْ فِي جَنَانِ النَّعِيمِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللَّوَاءِ

وفي العصر الأموي أصاب القصيدة تطور آخر ، حيث اتسمت ببروز العناصر الإسلامية بشكل يفوق ما كانت عليه في عصر صدر الإسلام ، بينما تضاءلت فيها المفاهيم الجاهلية ، إن لم تكن تلاشت أحياناً ، كما يظهر واضحاً في قصائد الرثاء عند الخوارج .

ف نجد شعراء هذا العصر قد عبروا عن أحزانهم بكثير من المعاني

الإسلامية الجديدة .

فهذا عمران بن حطان يعبر في هذه الأبيات التي يخاطب بها زوجته عن إيمانه بحتمية الموت ، وأنه أمر لا مفر منه ، وقضاء قضاء الله على جميع البشر فهو يقول :

ثُمَّ أَطْلُبِي أَهْلَ أَرْضٍ لَا يُمُوتُونَ
إِلَّا بِرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ
تُدْنِي سَرِيرًا إِلَى لَحْدٍ يَمْشُونَ
وَقَبْلَ مَوْتِهِمْ مَاتَ النَّبِيُّونَ
مِنْ حَادِثٍ لَمْ يَزَلْ يَأْجُمُرُ يُعِينَا
وَمَا نَعَاهُ بِذَاتِ الْغُصْنِ نَاعُونَا (٣)

إِنْ كُنْتَ كَارِهَةً لِلْمَوْتِ فَارْتَحِلِي
فَلَسْتُ وَاجِدَةً أَرْضًا بِهَا بَشَرٌ
إِلَى الْقُبُورِ فَمَا تَتَفَكَّرُ أَرْبَعَةَ
يَا جَمْرٌ قَدْ مَاتَ مِرْدَاسٌ وَإِخْوَتُهُ
يَا جَمْرٌ لَوْ سَلِمَتْ نَفْسٌ مَطَهَّرَةٌ
إِذَنْ لَدَامَتْ بِمِرْدَاسٍ سَلَامَتُهُ

(١) الديوان ص ٢٢١

(٢) السيرة النبوية ١٣٨/٢ .

(٣) شعر الخوارج ص ١٦٠ .

كما نرى في أبيات وضاح اليمن التي يرثي بها أباه وأخاه التزامه بالصبر على قضاء الله ، وإيمانه بأن الموت هو مصير كل الأحياء مهما طال بهم الحياة ، وإن الناس متساوون أمام هذا المصير المحتوم ، كما نلمس عنده إيمانه بالبعث حيث يوفى الناس حقوقهم ، فهو يقول :

سَأَصْبِرُ لِلْقَضَاءِ فَكُلُّ حَيٍّ	سَيَلْقَى سَكْرَةَ الْمَوْتِ الْمَذُوقِ
فَمَا الدُّنْيَا بِقَائِمَةٍ وَفِيهِمْ	مِنَ الْأَحْيَاءِ ذُو عَيْنٍ رَمُوقِ
وَالْأَحْيَاءُ أَيَّامٌ تَقْضَى	يَلْفُ خَتَامُهَا سَوْقًا بِسُوقِ
فَأَغْنَاهُمْ كَأَقْدَمِهِمْ إِذَا مَا	تَقَضَّتْ مَدَّةُ الْعَيْشِ الرَّقِيقِ
كَذَلِكَ يُبْعَثُونَ وَهُمْ فُرَادَى	لِيَوْمٍ فِيهِ تَوْفِيَةُ الْحُقُوقِ (١)

وفي رثائه لعمر بن عبد العزيز يتحدث قطرب النحوي عن الأجر الذي سيناله الناس نتيجة مصابهم الجلل في الخليفة ، فيقول :

أَمَّا الْقُبُورُ فَإِنَّهِنَّ أَوَانِسٌ	بِجَوَارِ قَبْرِكَ وَالْدِيَارُ قُبُورُ
جَلَّتْ رَزِيْقَتُهُ فَعَمَّ مَصَابِيْهُ	فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ (٢)

وفي رثائه لزوجته أم حُرْزَة نجد جريراً يدعو لها بالصلوات والرحمة من الله والملائكة والأبرار والصالحين ، قائلاً :

صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا	وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ وَالْأَبْرَارُ
وَعَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلِّمَا	نَصَبَ الْحَجِيجُ مُلْبِدِّينَ وَغَارُوا (٣)

ويتكرر هذا الدعاء في كثير من قصائد الرثاء ، وهذا ما يبدو لنا في هذه الأبيات :

(١) الأغاني ٦ / ٢٢٩

(٢) الكامل ٤ / ٢٩

(٣) الديوان ٢ / ٨٦٤ .

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مِنْ مَقْعُودَةٍ
فَصَلَّى عَلَى قَبْرَيْهِمَا اللَّهُ إِنَّمَا
صَلَّى إِلَاهُ عَلَيْكَ مِنْ ذِي حَفْرَةٍ
صَلَّى إِلَاهُ عَلَى امْرِئٍ غَادَرْتُهُ
سَأْبُكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ إِنَّنِي
فَدَامَتْ عَلَيْكَ بِالسَّلَامِ تَحِيَّةٌ
إِذْ لَا يَلَاغِيكَ الْمَكَانُ الْبَلَقَعُ (١)
خَلَّافُهُ مِنْهَا عَلَى سُنَّةِ الرَّسْلِ (٢)
خَلَّتِ الدِّيَارُ لَهُ فَهِنَّ قَفَارُ (٣)
بِالشَّامِ فِي جَدَثِ الضَّرِيحِ الْمُلْجَدِ (٤)
رَأَيْتُ يَدَ الْمَعْرُوفِ بَعْدَ الْكُشَلِ
مَلَائِكَةُ اللَّهِ الْكَرَامِ وَصَلَّتْ (٥)

وقد برزت بوضوح فكرة الجنة التي سيثاب بها الفقيد ، إن مات وهو مستمسك
بدين الله ، أو شهيداً في سبيله .

وهذا ما عبر عنه الفرزدق في رثائه للجراح بن عبد الله الحكمي الذي

استشهد في أذربيجان ، فهو يقول :
لَقَدْ صَبَرَ الْجَرَّاحُ حَتَّى مَشَتْ بِهِ
فَأَصْبَحَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ مُحَمَّدٌ
جُزُوا بِالسَّرِيرَاتِ الَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ
إِلَى الْغُرْفَةِ الْعُلْيَا رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ السَّيُوفُ الصَّوَارِمُ
أَخُوهُمْ وَمَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ فَهُوَ سَالِمٌ
جَزَاهُمْ بِهَا مُحْصَى السَّرَائِرِ عَالِمٌ
مُقِيمًا وَلَا مِنْهَا هُوَ الدَّهْرُ رَائِمٌ (٦)

-
- (١) شعر الخوارج ص ١٩٤ .
(٢) ديوان الفرزدق ١٤٧/٢ .
(٣) ديوان جرير ٧١٩/٢ .
(٤) شعر اسماعيل بن يسار ص ٣٢ .
(٥) شعر الكميت بن زيد الأسدي ١٤٧/١ .
(٦) الديوان ٢٥١/٢ .

ويرثي عبد الرحمن بن جمانة الباهلي أبا قتيبة بن مسلم الباهلي فيقول :

كَأَنَّ أَبَا حَفْصٍ قُتِيْبَةُ لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ لَمْ يَعْلُ مِنْبَرًا
وَلَمْ تَخْفِقِ الرَّايَاتُ وَالْقَوْمُ حَوْلَهُ وَقُوفٌ وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرًا
دَعَتْهُ الْمَنَايَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَى الْجَنَّاتِ عَفَاً مُطَهَّرًا
فَمَا رُزِيَ إِلَّا سَلَامٌ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِمِثْلِ أَبِي حَفْصٍ فَبِكَيْهِ عَبَّهَرَا (١)

ويرثي الفرزدق من مات من قومه مع ابن الأشعث، ومن مات أيام الطاعون .

فيصور مساجد هم التي خلت منهم فهي كالبلاقع ، فيقول :

فَإِنْ أَبْكَ قَوْمِي يَا نَوَّارُ فَإِنِّي أَرَى مَسْجِدَ يَهُمُّ مِنْهُمْ كَالْبَلَاقِعِ (٢)
وهذه الصورة الشعرية الجديدة نجد لها مثيلاً عند هشام بن عقبة - أحد

أخوة ذي الرمة - وذلك في رثائه لأخيه أوفى ، فهو يقول :

خَوَى الْمَسْجِدُ الْمَعْمُورُ بَعْدَ ابْنِ دَلْهِمٍ : وَأَمْسَى بِأَوْفَى قَوْمِهِ قَدْ تَضَعَّعُوا (٣)

وقد استلهم شعراء العصر الأموي المقاييس الإسلامية في تقدير الأفراد كالتقوى،

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحب الجهاد . . . الخ ليجعلوها منطلقاً

أساسياً لهم في تأبين موتاهم والبكاء عليهم . وهذا ما سيتجلى لنا من خلال

دراسة قصيدة عمرو بن الحصين العنبري ، والتي تعتبر أنموذجاً متقدماً للدلالة

على ما بلغته قصيدة الرثاء من تطور نتيجة تأثرها بالإسلام .

(١) الطبري ٥٢١/٦ .

(٢) الديوان ٣٩٤/١ .

(٣) حماسة أبي تمام ٣٨٩/١ .

فبعد مقدمة القصيدة التي يوظف فيها الشاعر الغزل لخدمة موضوعه ، نجده يدعوه أن يلحقه برفاقه ، وأن يمنحه الشهادة مثل هؤلاء الفتية الذين صبروا نفوسهم على الجهاد في سبيل عقيدتهم ، قائلاً (١) :

يَا رَبِّ اسْلِكْنِي سَبِيلَهُمْ ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالتَّقَى أَزْرِي
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفُوسَهُمْ لِلْمَشْرِفَةِ وَالْقَنَا السُّمْرِ

ثم يتوقف بنا أمام حياتهم التي تمثل صورة رائعة للإنسان المؤمن ، فقد كان هؤلاء أوفياء للذم إذا عقدوها ، أعزاء في العسر واليسر ، متحفزين لعمل الصالحات ، ناهين عن المنكر ، قائلاً :

تَاللَّهِ أَلْقَى الدَّهْرَ مِثْلَهُمْ حَتَّى أَكُونَ رَهِينَةَ الْقَبْرِ
أَوْفَى بِذِمَّتِهِمْ إِذَا عَقَدُوا وَأَعَفَّ عِنْدَ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
مَتَأْهِوْنَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهُونَ مِنْ لَأَقَوَا عَنِ الزُّكْرِ

ويصف مجالسهم ، ويتحدث عن حالتهم فيها . فقلوبهم ترتجف لذكر الله ، وتنطلق آهاتهم عند ذلك ، فتخالهم لخشوعهم في يوم الحشر العظيم فيقول :

صَمْتُ إِذَا اخْتَضَرُوا مَجَالِسَهُمْ وَزَنُّ لِقَوْلِ خَطِيبِهِمْ وَقَرِ
إِلَّا تَجِيثُهُمْ فَإِنَّهُمْ رَجَفُ الْقُلُوبِ بِحَضْرَةِ الذِّكْرِ
مَتَأْهِوْنَ كَأَنْ جَمْرَ غَضًّا لِلْمَوْتِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ يَسْرِي
تَلْقَاهُمْ إِلَّا كَأَنَّهُمْ لَخُشُوعِهِمْ صَدَرُوا عَنِ الْحَشْرِ
فَهُمْ كَأَنَّ بِهِمْ جَوَى مَرَضٍ أَوْ مَسَّهُمْ طَرْفٌ مِنَ السَّحْرِ

ويعود إلى الحديث عن حياتهم الدينية ، فهم قليلو النوم خوفاً من عقاب الله ،
يظل الفرد منهم يقوم ليله إلى الفجر يتلو آيات القرآن الكريم ، ويكثر من
الصوم في الأيام الحارة غير مبال بما يحسه من الظم ، مبتعداً عن الملذات
لا يخضع لأهواء نفسه ، وما تدعوه إليه من الأمور السيئة .

يقول العنبري :

لا ليلهم ليلٌ فيلبسهم	فيه غواشي النوم بالسَّكر
إلا كذا خلساً وآونة	حذر العقاب فهم على دُعر
كم من أخ لك قد فُجعت به	قوام ليلته إلى الفجر
متأوهاً يتلو قوارع من	آي الكتاب مفرح الصدر
نصبٌ تجيش بنات مهجته	م الخوف جيش مشاشة القدر
ظمان وقدة كل هاجرة	تراك لذته على قـدر
تراك ما تهوى النفوس إذا	رغب النفوس دعا إلى المُرّي
ومبرأ من كل سيئة	عف الهوى ذامرة شـزر

وكما نرى فأكثر هذه الصفات التي ذكرها الشاعر هي انعكاس لمعاني آيات
القرآن الكريم في وصفها للمؤمنين .

الهجاء

الهجاء أحد الفنون الشعرية التي شغلت حيزاً كبيراً من النتاج الشعري عبر عصور الأدب العربي المختلفة .

وللهجاء ذوافع متعددة فمنها القبلي الذي يكون نتيجة للنزاع بين القبائل على الماء والكلاً ، أو تبعاً للمواجهات الحربية بينها فيرفع الشاعر صوته مفتخراً بقبيلته ، ومسداً سهام لسانه على القبيلة الأخرى . ومنها الشخصي الذي تحركه المناقرات الفردية بين الشعراء . وبعد الإسلام عرف العرب الهجاء الديني والسياسي .

وهناك ذوافع أخرى غير أنها قليلة الشأن لا تقاس بما ذكرنا . (١)

والهجاء إما مادي يقوم على تناول الأعراض وذكر العورات كالتعيير بالقصر والدامة والعور وما إلى ذلك .

وإما معنوي وهو الذي يعنى بالخصال التي يكره الناس أن يوصفوا بها كوضاعة النسب والجبن والبخل .

والهجاء تعبير من الشاعر عن عاطفة الغضب في نفسه تجاه من يقف منه موقفاً لا يرضاه .

والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام تحمل في مضمونها رفضاً للهجاء بما يدعو إليه من التنازع والشقاق بين الناس ، وهذا ما تعبر عنه الآيات الكريمة في قوله عز وجل " إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم

(١) انظر كتاب الهجاء للدكتور محمد سامي الدهان .

ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب
يغس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون" (١)

كما عبر عن ذلك صراحة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: " من

قال في الإسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هدر " (٢)

غير أن قصيدة الهجاء ظلت موجودة في المجتمع الإسلامي في المدينة
إبان الدعوة المحمدية . وكان ذلك شيئاً طبيعياً لأن قريشاً عمدت إلى سلاح
الشعر لمحاربة المسلمين والنيل من أعراضهم ، فلم يجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم مناصاً من أن يطلب من شعراء الصحابة أن يردوا عليهم فيقول
لحسان بن ثابت رضي الله عنه : " اهجهم . أو هاجهم وجبريل معك " (٣)
ويقول له : " اهجهم كأنك تنضحهم بالنبل " (٤) .

وقد كانت قصائد حسان ورفاقه تسير على النهج الجاهلي في الهجاء
والذي كان يقوم على القذف في الأعراض ، والطعن في الأنساب والأحساب ،
وذكر الأيام ، والتعبيير بالمثالب والألقاب ، ووصمهم بكل مالا يليق من جبن
وخبت وما إلى ذلك من الصفات الذميمة التي كانت تتردد على ألسنة الشعراء
في العصر الجاهلي . (٥)

(١) الحجرات ١٠ ، ١١ .

(٢) العمدة ١٧٠/٢ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٢١٧/١ .

(٤) نفسه ٢١٧/١ .

(٥) روى أبو الفرج في الأغاني "كان يهجوهم يعني قريشاً ، ثلاثة نفر من الأنصار
يجيئونهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان
حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، وبالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم
بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه ، ويعلم أن
ليس فيهم شيء شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم
قول حسان وكعب ، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا
وفقهوا الإسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة" الأغاني ٢٣١/١٦

يقول الدكتور محمد محمد حسين عن الهجاء في هذه الفترة أنه " ظل كما كان جاهلياً في صميمه ، معتمداً على الأنساب ، والتعابير بضعف العصبية ، وخمول الذكر ، والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للمهاجمين من الأعداء ، والقعود عن الثأر ، إلى أمثال هذه الخصال التي تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر — بالمثل الدينية إلا قليلاً " (١)

فهذا حسان بن ثابت يهجو أحد المشركين فيقول :

تشبه بالأكارم عبد شمس	لثيم وابن ذي جد لثيم
ومالك حين تنتقد المعالي	حديث في الأمور ولا قديم
وتنفيكم هيص عن أبيها	بشجع حيث تختطرق القروم
وعمران بن مخزوم فدعها	هناك السر والحسب الصميم (٢)

ويخاطب كعب بن مالك عبد الله بن الزبعرى فيقول :

سألت بك ابن الزبعرى فلم	أنباك في القوم إلا هجيناً
خبثاً تطيف بك المدييات	مقيماً على اللؤم حيناً فحيناً
تبجست تهجو رسول المليك	كقاتلك الله جلفاً لعيناً
تقول الخنائم ترمي به	نقي الثياب تقياً أميناً (٣)

ولاشك أن غلبة العناصر الجاهلية على هجائهم أمر يفرضه واقع تلك الفترة ، فشعرهم موجه إلى قوم جاهلي العقيدة ، لا يؤمنون بالإسلام ، فكان لابد للشعراء أن يخاطبوهم بمفهومهم .

(١) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٩٣ .

(٢) الديوان ص ١١٧ .

(٣) السيرة النبوية ١٦١/٢ .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه الشعراء هذا الاتجاه ، فقد كان يقول لحسان : "اهجهم" ، واثأ أبا بكر يخبرك - أي بمعائب القوم" (١) وقد خفت شعر الهجاء في الفترة الباقية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الفتح لانتها الأسباب الداعية إليه ، واستمر الأمر كذلك أثناء حكم الخلفاء الراشدين ، واتخذ هؤلاء موقفاً صارماً من الهجائيين وصل إلى حد السجن والتعزير . (٢)

وفي العصر الأموي وبفعل بعض العوامل السياسية والاجتماعية ، عادت قصيدة الهجاء لتنبؤ مرة أخرى مكانة ذات شأن في الحركة الشعرية آنذاك . ورغم احتفاظها بكثير من المفاهيم الجاهلية ، فقد ظهرت عليها بعض الملامح الإسلامية . وهذا شيء طبيعي لأن شعراءها نشأوا في ظل تعاليم الإسلام ، فعرفوا كل ما يتنافى مع هذا الدين فاستفادوا منه في هجائهم . فهذا جرير نجده عند هجائه للفرزدق يعيره بالفسق ، وارتكاب المحرمات ، والتعدي على حدود الله ، والركض في المواخير خلف القاسقات ، فيقول :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ حِينَ يَدْخُلُ مَسْجِداً رَجَسَ فليس طَهُورُهُ بِطَهُورٍ
إِنَّ الْفَرَزْدَقَ لَا يَبَالِي مُحَرِّمًا وَدَمَ الْهَدْيِ بِأَذْرَعٍ وَنُحُورٍ (٣)

(١) طبقات فحول الشعراء ٢١٧/١ .

(٢) انظر ص ٨ من هذا البحث .

(٣) الديوان ٨٥٧/٢ .

وما كان جارٌّ للفرزدق مُسَلِّمٌ ليأمنَ قرداً يعلُّه غيرَ نائمٍ
أُتيتَ حدودَ الله مذ أنتَ يافعٌ وشبتَ فما ينهاك شيبُ اللهازمِ
تتبعُ في المأخورِ كلَّ مُريبٍ ولست بأهلِ المحصناتِ الكرائمِ (١)
وهذا الحزين الكناني يهجو أحدهم ، فيصمه بالنوم عن التقوى ، وبالفحش والكذب ، فيقول :

لعمرك ما عمرو بن عمرو بما جِدَّ ولكنه كزُّ اليدينِ بخيلٍ
ينامُ من التقوى ويوقظه الخنا فيخبطُ أثناء الظلامِ يجولُ
فلا خيرَ في عمرو لجارٍ ولا لسه ذمَّامٌ ولكنَّ للثامِ وصولُ
مواعيدُ عمرو ترهاتٌ ووجهُ على كلِّ ما قدَّ قلتُ فيه دَلِيلُ
جبانٌ وفحاشٌ لثيمٌ مذمَّمٌ وأكذبُ خلقِ الله حينَ يقولُ (٢)

ويهجو الفرزدق أحد أبنائه فيتهمه بالعقوق ، والعصيان لأوامره ويحذره من عقاب الله في ذلك ، قائلاً :

أأنَّ أُرِشْتَ كفاً أبيك وأصباحَتُ يدَاكَ يدَا السَّيِّئِ فَإِنَّكَ جاذِبُهُ
إذا غلبَ ابنُ بالشَّبابِ أباً له كبيراً فإنَّ اللهَ لا بدَّ غَالِبُهُ
رَأَيْتُ تَبَاشِيرَ الْعُقُوقِ هِيَ الَّتِي من ابنِ امرئٍ ما إن يَزَالَ يُعَاتِبُهُ
ولما رَأَيْتُ قَدْ كَبُرْتُ وَإِنِّي أخو الحيِّ واستغْنَى عن المسحِ شاربُهُ
أصَاخَ لِغُرْبَانِ النَّعِيِّ وَإِنَّهُ لَأُزُورُ عَنْ بَعْضِ الْمَقَالَةِ جَانِبُهُ (٣)

(١) الديوان ١٠٠١/٢ .

(٢) ديوان أشعار الموالى ١٦٢/١ .

(٣) الديوان ١٠٥/١ .

والهجاء بالنصرانية ، والسخرية من طقوسها الدينية ، والتعيير بدفع الجزية ،
وشرب الخمر ، وأكل لحوم الخنازير ؛ كانت أحد الملامح الجديدة التي ترددت
فى هجاء شعراء العصر الأموي وبخاصة جرير الذي كان يلح على ترديد هذه
المعاني في هجائه للأخطل ، كما في قوله :

يا ذا العباءة إنَّ بشرًا قد قَضَى	ألا تجوزَ حكومةَ النشوانِ
قبح الإله من الصليب إِلَهَهُ	واللابسين برانس الرهبانِ
والتابعين جرجسًا وبنِيَهُ	والتاركين مساجدَ الرحمنِ
والذابحين إذا تقاربَ فصْحُهُمْ	شُهبَ الجلودِ خسيصةَ الأثمانِ (١)

هذه هي بعض ملامح التجديد في مضامين قصيدة الهجاء في العصر
الأموي . وتعتبر قصيدة الفرزدق في هجاء إبليس نصاً فريداً لم نجد له مثيلاً
في الشعر العربي قديمه وحديثه . فالشاعر لا ينطلق في قصيدته من رغبة
دنيوية أجبره عليها الدفاع عن نفسه أو عن قبيلته ضد من ينافسهما ، وإنما
كان منطلقه دينياً بحثاً فهو يدافع عن عقيدته . وعدوه فيها هو عدو كل فرد
مسلم ، وليس الفرزدق هو الوحيد الذي يعاني من محاولات إبليس لإغوائه
وإنما البشرية جمعاء . وبهذا يخرج النص من كونه تعبيراً عن هم ذاتي
إلى مجال أرحب يحتوى هموم الجماعة المؤمنة . والشاعر في بداية القصيدة يعلن
أنه قد قرر التوبة عن مسلكه القديم الذي كان ينتهجه في حياته ، وذلك بشتمه
للمسلمين بسية القول ، فقد شفى الله صدره وأنار بصيرته بآيات القرآن الكريم ،
ويؤكد تصميمه على الابتعاد عن ارتكاب الأوزار خوفاً من لقاء يوم معلوم فيقول (٢)

(١) الديوان ١٠١٥/٢

(٢) الديوان ٢١٢/٢

لَبِئْسَ رِتَاجٌ قَائِمٌ وَمَقَامٌ
وَلَا خَارِجًا مِنْ فِي سَوْءٍ كَلَامٍ
دُرُوءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ ذَاتُ حُومٍ
عَشَا بَصْرِي مِنْهُنَّ ضَوْءٌ ظَلَامٍ
رَهِينَةٌ أَوْزَارِ عَلِيٍّ عِظَامٍ
إِذَا كَانَ يَوْمُ الْوَرْدِ يَوْمُ خِصَامٍ
وَرَائِي وَدَقْتُ لِلدَّهْرِ عِظَامِي
عَشِيَّةً غَبَّ الْبَيْعِ نَحْيِي حِمَامٍ
وَمَا كَانَ يُعْطِي النَّاسَ غَيْرَ ظَلَامٍ

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنِّي
عَلَى قَسَمٍ لَا أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا
أَلَمْ تَرَنِي وَالشَّعْرُ أَصْبَحَ بَيْنَنَا
بَيْنَ شَفَى الرَّحْمَنِ صَدْرِي وَقَدْ جَلَا
فَأَصْبَحْتُ أَسْعَى فِي فَكَاكِ قِلَادَةٍ
أَحَازِرُ أَنْ أَدْعَى وَحَوْضِي مُعَلَّقٍ
وَلَمْ أَنْتَهَ حَتَّى أَحَاطَتْ خَطِيئَتِي
لَعْمَرِي لِنَعْمِ النَّحْيِ كَانَ لِقَوْمِهِ
بِتَوْبَةٍ عَبْدٍ قَدْ أَنْابَ فُؤَادُهُ

ثم يأخذ الفرزدق في هجاء إبليس ، فيعلن فراره إلى الله بعد أن استسلم
لأبي الجن دهرًا طويلًا ، كان يذلل له فيه سبل الشر والمعصية ويعد به الخلود
والبقاء ، قائلاً :

فَلَمَّا انْتَهَى شَيْبِي وَتَمَّ تَمَامِي
مَلَأَقِ الْأَيَّامَ الْمَنُونِ حِمَامِي
وَكُنْتُ أَرَى فِيهَا لِقَاءَ لِسَامٍ
عَلَى حَالِهَا مِنْ صِحَّةٍ وَسَقَامٍ
أَبُو الْجَنِّ إِبْلِيسُ بَغِيرُ خَطَامٍ
يَكُونُ وَرَائِي مَسْرَّةً وَأَمَامِي (١)
سَيِّخِلِدُنِي فِي جَنَّةٍ وَسَلَامٍ

أَطَعْتُكَ يَا إِبْلِيسُ سَبْعِينَ حِجَّةً
فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيَقَنْتُ أَنَّ نِي
وَلَمَّا دَنَا رَأْسُ الْتِي كَفْتُ خَائِفًا
حَلَفْتُ عَلَى نَفْسِي لَا أَجْتَهِدَنَّهَا
أَلَا طَالَ مَا قَدَيْتُ يَوْضِعُ نَاقَتِي
يَظَلُّ يُمْنِي عَلَى الرَّحْلِ وَارِكًا
يُبَشِّرُنِي أَنْ لَنْ أَمُوتَ وَأَنَّه

وبعد هذا يتوقف الفرزدق أمام مخازي إبليس ومكائده عبر القرون ، فيسرد لنا قصصاً عن ذلك استمدتها من القرآن الكريم .

فهذه قصة فرعون وغرقه في اليم ، بعد عصيانه الله ومحاولته للحاق

بموسى ومن آمنوا معه .

فَقُلْتُ لَهُ هَلَّا أَخِيكَ أَخْرَجْتِ	يَمِينُكَ مِنْ خَضِرِ الْبَحْرِ طَوَامٍ
رَمَيْتَ بِهِ فِي الْيَمِّ لَمَّا رَأَيْتَ سَهْ	كِفْرَقَةَ طُودِي يَذْبُلُ وَشَمَامٍ
فَلَمَّا تَلَاقَى فَوْقَهُ الْمَوْجُ طَامِيًا	نَكَصْتَ وَلَمْ تَحْتَلْ لَهُ بِمَرَامٍ

وهذه قصة نبي الله صالح وناقته التي عقراها أهل الحجر بعد أن سول لهم الشيطان ذلك .

أَلَمْ تَأْتِ أَهْلَ الْحَجَرِ وَالْحَجَرُ أَهْلُهُ	بِأَنْعَمَ عَيْشٍ فِي بَيْوتِ رُحَامٍ
فَقُلْتُ اعْقُرُوا هَذِي اللَّقُوحَ فَإِنَّهَا	لَكُمْ أَوْ تُنِخُوها لِقُوحُ غَرَامٍ
فَلَمَّا أَنَاخُوهَا تَبَرَّاتَ مِنْهُمْ	وَكُنْتَ نَكُوصًا عِنْدَ كُلِّ ذِمَامٍ

وأخيراً يتوقف أمام ما حدث لآدم وزوجه عند ما أغواهما إبليس فأخرجهما من الجنة .

وَأَدَمَ قَدْ أَخْرَجْتَهُ وَهُوَ سَاكِنٌ	وَزَوْجَتُهُ مِنْ خَيْرِ ذُرِّ مُقَامٍ
وَأَقْسَمْتُ يَا إِبْلِيسُ أَنَّكَ نَاصِحٌ	لَهُ وَلِهَا إِقْسَامٌ غَيْرُ إِثَامٍ
فَظَلَا يَخِيْطَانُ الْوَرَأَقَ عَلَيْهِمَا	بِأَيْدِيهِمَا مِنْ أَكْلِ شَرِّ طَعَامٍ

فهؤلاء جميعاً زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، ثم تبرأ منهم
كما فعل مع قرون أخرى .

فَكَمْ مِنْ قُرُونٍ قَدْ أَطَاعُوكَ أَصْبَحُوا أَحَادِيثَ كَانُوا فِي ظِلَالِ غَمَامٍ
ثم يؤكد الفرزدق رفضه لمودة إبليس ، بل وإعلانها حرباً شعواء عليه ،
فيقول :

وَمَا أَنْتَ يَا إِبْلِيسُ بِالْمَرْءِ أَيْتَفِي رِضَاهُ وَلَا يَقْتَادُنِي بِزِمَامٍ
سَأُجْزِيكَ مِنْ سَوَاءٍ مَا كُنْتَ سَقْتَنِي إِلَيْهِ جُرُوحاً فَيْكَ ذَاتِ كِلَامٍ
تُعَيِّرُهَا فِي النَّارِ وَالنَّارُ تَلْتَقِي عَلَيْكَ بِزُقُومٍ لَهَا وَضِرَامٍ

ويؤكد في نهاية القصيدة على توقفه عن الهجاء وعصيان إبليس ، قائلاً :
وإنَّ ابْنَ إِبْلِيسَ وَإِبْلِيسَ الْبَنَا لَهُمْ بَعْدَ ذَابِ النَّاسِ كُلِّ غَلَامٍ (١)
هُمَا تَقْلَافِي فِيَّ مِنْ فَمَوِيَّهِمَا عَلَى النَّابِجِ الْعَاوِي أَشَدَّ رِجَامٍ
فالفرزدق الذي تتحدث عنه الروايات التاريخية وأشعار جرير فتصفه بالفسق ،
نجدّه في القصيدة السابقة وقد تجلّى في شعره أثر الإسلام واضحاً . ولم
يكن ذلك لولا نشأته الإسلامية ، واستيعابه لمبادئ الإسلام ، وتفهمه
لتعاليمه النيرة .

(١) ألبنا : سقيا ، أى عذّبنا كل فرد من الناس .

الباب الثاني

أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي

الفصل الأول : الشعر السياسي

الفصل الثاني : الغزل

الفصل الثالث : الهجاء

الفصل الرابع : موضوعات أخرى

أعني بالشعر السياسي ذلك اللون " الذي يتعاطى شئون الحكم تأييداً أو تفنيداً ، أو يتناول علاقة الأمة بغيرها في حرباً أو سلم " (١) .

ومن المعلوم أن هذا اللون الشعري ليس غرضاً بحد ذاته ، وإنما هو أغراض متعددة ، فقد يكون مديحاً أو هجاءً أو فخراً أو غزلاً أو رثاءً . غير أن هذه الأغراض تصب جميعها في نبع واحد هو انتماء شاعرها السياسي بغض النظر عن حقيقة هذا الانتماء وصدقه .

ومعظم الباحثين (٢) يعتقدون بأن الشعر السياسي ليس وليد العصر الأموي ، وإنما وجد هذا الفن الشعري قبل ذلك في العصر الجاهلي ، إذ كانت كل قبيلة عربية تمثل كياناً مستقلاً له نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي الخاص به . فهي أشبه ما تكون بالدولة الصغيرة . وقد كانت لهذه الدولة مصالحها التي تصطدم أحياناً بمعارضة من القبائل الأخرى قد تصل إلى الصدام الحربي . وقد كان الشعر يسهم خلالها بدوره المرسوم له في ذلك المجتمع القبلي ، وذلك بتأييد القبيلة ومهاجمة خصومها . وهو ما يمكن أن نسميه شعراً سياسياً .

ولما جاء الإسلام وحد بين القبائل العربية ، وجعلها كياناً واحداً يخضع لنظام معين هو الخلافة الإسلامية ، وقد كان ذلك سبباً في حدوث نقلة كبرى للشعر السياسي في ظل حكم الدولة الأموية ، إذ نشأ صراع حاد بين الأمويين وأحزاب المعارضة السياسية أسهم فيه الشعر بدور واضح .

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ص ٨ .

(٢) نفسه ص ٨ ، تاريخ الشعر السياسي ص ٤٠ . ، أدب الخوارج ص ١٤ .

تاريخ الشعر العربي للكفراوي ص ٨٢ .

وقد كان الباعث لهذا الصراع هو الخلافة الإسلامية ، التي هي منصب

وجد في ظل الإسلام يخضع لضوابط دينية .

يقول ابن خلدون :

" الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية
الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة
فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا
به " (١) .

ولما كان هذا المنصب - كما ذكر ابن خلدون - يخضع للدين ، فقد كسان
حتمياً على شعراء الأحزاب المختلفة - بما فيها الحزب الحاكم - أن يعمدوا
إلى إعطاء مضامينهم الشعرية التي يعبرون من خلالها عن فكرهم الحزبي بعداً
دينياً يتناسب مع حقيقة القضية التي يعالجونها . وهذا ما يتضح للباحث من
خلال دراسة الشعر الذي خلفه لنا هذا الصراع السياسي . فقد استلهم الشعراء
الأفكار والمثل الإسلامية الجديدة ، وجعلوها ركيزة أساسية يتحركون في إطارها
لتأييد أحزابهم ومهاجمة خصومها . وهذا ما سنعرض له في الصفحات التالية .

١ - شعر الأمويين :

كانت السلطة الأموية تواجه منذ بداية حكمها معارضة شديدة لها ، وقد زاد من حدة هذه المعارضة تغيير معاوية بن أبي سفيان لنظام الحكم الإسلامي بجعله الخلافة أمراً وراثياً في أسرته ، بعد أن كانت تقوم على الشورى الإسلامية أثناء الخلافة الراشدة .

وقد كانت المعارضة بأحزابها الكبرى من شيعة ، وزبيريين ، وخوارج تتهم الأمويين باغتصاب الخلافة دون أدنى حق لهم فيها ، وكان شعراؤها ينالون من سلوك خلفائهم ، ويظهرونهم في صورة لا تتناسب مع مركزهم الديني . ومن هنا فقد كان خلفاء بني أمية حريصين على توجيه الشعراء الذين يمدحونهم عن رغبة أو رهبة إلى استخدام العناصر الإسلامية في مدائحهم لهم ، وذلك لتحسين صورتهم في عيون الرعية ، وإظهارهم في صورة من المثالية الدينية تتفق مع منصبهم ، ولتبرير وصولهم إلى سدة الحكم ، وتفنيد ما يدعيه خصومهم . وقد عبر عن ذلك عبد الملك بن مروان ، وعاتب الشعراء الذين اعتمدوا على المثل الجاهلية عند مدحهم للأمويين ، ودعاهم إلى التعامل مع المثل الإسلامية الجديدة التي تتناسب مع مكانة الأمويين الدينية .

جاء في الأغاني عن عبد الملك بن مروان أنه قال : " يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ، ومرة بالجبل الأعر ، ومرة بالبحر الأجاج . أأقلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم :

نهاركم مكابدةً وصومٌ وليكم صلاةٌ واقترأُ
وليتم بالقرآن وبالتزكَّى فأسرع فيكم ذاك البلاءُ
بكى نجدٌ غداةً غدٍ عليكم ومكةُ والمدينةُ والجواءُ
وحقَّ لكل أرضٍ فارقوها عليكم لا أبالكم البكاءُ (١)

ولم يتردد الشعراء - والمحترفون منهم خاصة - في الاستجابة لذلك إرضاءً لنزعة مدد وحيهم وطمعاً في أعطياتهم . فكان مدحهم بجانب تردده لبعض العناصر التقليدية القديمة كالإشادة بكرم الممدوح ، وشجاعتهم ، ووفائهم . وما إلى ذلك من مثل كانت تتردد عند شعراء العصر الجاهلي ، يحمل صبغة دينية ساعد الشعراء على تمثلها نشأتهم الإسلامية الأولى ، ومعرفتهم بالقرآن الكريم ، واستيعابهم لمعانيه ، بالإضافة إلى تأثير المجتمع الإسلامي المحيط بهم . فهم تارة يصورون الخلافة حقاً للأمويين - دون غيرهم - لأن الله اختارهم لها ، وفضلهم على الناس في ذلك .

قال جرير :

زُورُوا يَزِيدَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ وَاسْتَبَشَرُوا بِمَرِيحِ النَّبْتِ مَحْبُورِ (٢)
وقال الأخطل :

تَمَّتْ جُدُودُهُمُ وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ وَجَدُّ قَوْمِ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكِيدُ
هُمُ الَّذِينَ أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُمْ لَمَّا تَلَاكَ نَوَاصِي الْخَيْلِ فَاجْتَلَدُوا (٣)

-
- (١) الأغاني ٢٠ / ٣١٠ ، وانظر لعبد الملك قصة مشابهة مع عبيد الله بن قيس الرقيات في نفس المصدر ٧٩ / ٥ .
- (٢) الديوان ١٤٧ / ١ .
- (٣) شعر الأخطل ٤٤٢ / ٢ .

وقال الأحموس الأنصاري :

إِمَامٌ أَتَاهُ الْمَلِكُ عَفْوَاً وَلَمْ يُثِيبْ عَلَى مُلْكِهِ مَالاً حَرَاماً وَلَا دَمَماً
تَخَيَّرَهُ رَبُّ الْعِبَادِ لَخَلْقِهِ وَلِيّاً وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمَماً
فَلَمَّا قَضَاهُ اللَّهُ لَمْ يَدْعُ مُسْلِماً لِبَيْعَتِهِ إِلَّا أَجَابَ وَسَلَمَماً (١)

وتارة أخرى يصورون الحكم الأموي وكأنه أمر محتوم قد ره الله فلا بد من نفاذه .
وهم يتأثرون في ذلك بالنزعة الجبرية التي انتشرت بين فرق المتكلمين آنذاك .
وليس من المستبعد أن الدولة الأموية كانت تدعمها وتساعد على انتشارها ،
لأنها تفضي بالناس إلى الاعتقاد بأن الحكم الأموي قدر مقدور أراد به الله لهذه
الأمّة ، فلا مناص من التسليم به والإذعان له ، وليس هناك داع للتمرد عليه
والثورة ضده ، مهما اتصف حكامه بالجور والتالم ، لأن ذلك يعد اعتراضاً على
الإرادة الإلهية التي قدرت لهم ذلك .

وتتردد هذه الفكرة كثيراً عند جرير ، فهو يقول مادحاً عبد الملك بن مروان :

اللَّهُ طَوَّقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ
إِنَّ الْخِلَافَةَ بِالذِّى أُولِيَّتُمْ فَيْكُمْ فَلَيْسَ لِمُلْكِهَا تَحْوِيلُ (٢)

ويقول أيضاً :

يَجْزِيكَ رَبُّكَ حَسَنَ قَرْضِكَ إِنَّهُ حَسَنُ الْمَعُونَةِ وَاسِعُ الْمُتَقَرِّضِ
وَاللَّهُ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً خَيْرُ الْبَرِيَّةِ وَارْتَضَاكَ الْمُرْتَضِي
أَعْطَاكَ رَبُّكَ مِنْ جَزِيلٍ عَطَائِهِ مُلْكًا كَعُوبِ قَنَاتِهِ لَمْ تَرْفُضِ (٣)

(١) الديوان ص ١٩٦ .

(٢) الديوان ٩٤/١ .

(٣) نفسه ٦٢٠/٢ .

ويقول-أيضاً-من قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك :

إِنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى بِالنَّصْرِ كَزِلْوَائِهِ وَالْمَغْنَمِ
ذُو الْعَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً مُلِكْتَ فَأَعْلُ عَلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمَ (١)

ويستفيد أعشى تغلب من هذه النزعة فيبرر بها ما يقوم به الخلفاء من أعمال الظلم والتعسف فيقول :

أَمِنْ حُزَّةٍ بِالْفَخْذِ مِنْكَ تَبَاشَرْتُ عُدَاكَ فَلَا عَارٌ عَلَيْكَ وَلَا وَزُرُ
وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجُوحَهُ لَكَالدَّهْرِ لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ (٢)

وقد أضاف الشعراء على خلفاء بني أمية كثيراً من الصفات الإسلامية التي تظهرهم في صورة من المثالية والالتزام الديني تتطلبها مكانتهم . وهم يضيفونها على جميع الخلفاء ، دون تفريق بينهم ، فالصفات التي يضيفونها على عمر بن عبد العزيز تتردد - أيضاً - في مدح يزيد بن عبد الملك على الرغم مما في سيرتهما من اختلاف لا يخفى على الدارسين . وتمثل ذلك في حديثهم عن عدل الخلفاء باعتبار العدل من أبرز القيم الإسلامية المرتبطة بالحكم ، والتي ينبغي للحاكم المسلم أن يكون متصفاً بها .

يقول الفرزدق من قصيدة يمدح بها سليمان بن عبد الملك :

كَشَفْتَ عَنِ الْأَبْصَارِ كُلِّ عَشَائِبَهَا وَكُلُّ قَضَاءٍ جَائِرٍ أَنْتَ عَادِلُهُ
وَقَدْ عَلِمَ الظُّلْمُ الَّذِي سَلَّ سَيْفَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْعُدْوَانِ أَنَّكَ قَاتِلُهُ
وَلَيْسَ بِمُحْيِي النَّاسِ مَنْ لَيْسَ قَاضِيًا بِحَقٍّ وَلَمْ يَبْسُطْ عَلَى النَّاسِ نَائِلُهُ

(١) الديوان ٧٠/١ .

(٢) الصبح المنير في شعر أبي بصير ص ٢٨٩ .

فَصَبَحَ صُلْبُ الدِّينِ بَعْدَ التَّوَائِبِ عَلَى النَّاسِ بِالْمَهْدِيِّ قَوْمَ مَايْلَهُ
حَمَلَتْ الَّذِي لَمْ تَحْمِلِ الْأَرْضُ وَالَّتِي عَلَيْهَا فَأَدَيْتَ الَّذِي أَنْتَ حَامِلُهُ
إِلَى اللَّهِ مِنْ حَمْلِ الْأَمَانَةِ بَعْدَ مَا أُضِيعَتْ وَغَالَ الدِّينَ عَنَّا غَوَايِلُهُ
جَعَلْتَ مَكَانَ الْجَوْرِ فِي الْأَرْضِ مِثْلَهُ مِنْ الْعَدْلِ إِذْ صَارَتْ إِلَيْكَ مُحَاصِلُهُ (١)

ويقول جرير مادحاً هشام بن عبد الملك :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى بِعَدْلٍ أَهْلُ الْحِلِّ وَاجْتَنَبَ الْحَرَامَا
أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَ اللَّهُ مُلْكُكُمْ تَمَامًا
وَبَارَكَ فِي مَسِيرِكُمْ مَسِيرًا وَمَقَامِكُمْ مَقَامًا
فِيَارَبِّ الْبَرِّيَّةِ أَعْطِ شُكْرًا وَعَافِيَةً وَأَبْقِ لَنَا هِشَامًا
وَشَقْنَا بِالنَّجَاحِ إِذَا بَلَّغْنَا إِمَامَ الْعَدْلِ وَالْمَلِكِ الْهُمَامَا
عَطَاءُ اللَّهِ مُلْكَكَ النَّصَّارَى وَمَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِهِ وَصَامَا (٢)

كما أشادوا بتنفيذ الخلفاء لأحكام الله سبحانه ، وإقامتهم للفرائض الشرعية
وتحدثوا عن ورع الخلفاء وتقواهم ، وأثنوا على حرصهم على أداء الواجبات
الدينية .

يقول جرير من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان :

لَوْلَا الْخُلَيْفَةُ وَالْقُرْآنُ نَقَرُوهُ مَقَامَ لِلنَّاسِ أَحْكَامَ وَلَا جَمْعُ
أَنْتَ الْأَمِينُ أَمِينُ اللَّهِ لَا سَرْفٌ فِيمَا وَلِيْتَ وَلَا هِيََابٌ رَوْعُ

(١) الديوان ٩٠/٢

(٢) الديوان ٢٢٤/١

وَأَرَى الزَّيَادَ مِنَ الْأَعْيَاصِ فِي مَهْلٍ فَالْعَالَمُونَ لَمَّا يَقْضِي بِهِ تَبَاسُحُ
مَا عَدَّ قَوْمٌ بِإِحْسَانٍ صَنِيعَهُمْ إِلَّا صَنِيعَكُمْ فَوْقَ الَّذِي صَنَعُوا
أَنْتَ الْمُبَارَكُ يَهْدِي اللَّهُ شِيعَتَهُ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دِينَهُ الْبِدْعُ (١)

وفي قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ، يتغنى نابغة بني شيبان بما اتصف به الخليفة من بر وتقوى . فهو - كما يقول - يحيي ليله في ركوع وسجود ، وبكاء وابتهاال ، وقراءة خاشعة للقرآن ، ويمتدح عدله ، ووفاءه بالعهود خشية من الله . وهذه القصيدة تظهر يزيد في صورة تتناسب مع ما كان عليه الرعييل الأول من الصحابة ، ولا تتفق مع تلك الصورة التاريخية التي تعطيها المصادر القديمة حول سيرة يزيد . (٢)

أُعْطِيَ الْحَيَاءُ وَالْعَفَافَ مَعَ الْجُودِ وَرَأْيًا يَفُوقُ رَأْيَ الرَّجَالِ
وَحَبَاهُ الْمَلِكُ تَقْوَى وَبِرًّا وَهُوَ مِنْ سَوْسٍ نَاسِكٍ وَصَّالِ
يَقْطَعُ اللَّيْلَ آهَةً وَانْتِحَابًا وَابْتِهَالًا لِلَّهِ أَيُّ ابْتِهَالِ
تَارَةً رَاكِعًا وَطَوْرًا سَجُودًا ذَا دُمُوعٍ تَهْلُ أَيُّ انْهِلَالِ
وَلَهُ نَحْبَةٌ إِذَا قَامَ يَتَلَوُّ سَوْرًا بَعْدَ سُورَةِ الْأَنْفَالِ
عَادِلٌ مُقْسِطٌ وَمِيزَانٌ حَقٌّ لَمْ يَحِفْ فِي قَضَائِهِ لِلْمَوَالِ
مُوفِيًا بِالْعَهْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَنْ يَعْفُو يَكُنْ غَيْرَ قَتَالِ
مُحْسِنٌ مُجْمَلٌ تَقِيَّ قُتُوبِي وَهُوَ أَهْلُ الْإِحْسَانِ وَالْإِجْمَالِ (٣)

(١) الديوان ١/ ٢٩٥ .

(٢) حول سيرة يزيد اللاهية انظر الطبري ٧/ ٢٢ ، البيان والتبيين ٢/ ١٢٣ ، الأغاني ١٥/ ١٢٢ .

(٣) الديوان ص ٦٨ .

ويقول عدي بن الرقاع العاملي يمدح الوليد بن عبد الملك :

صَلَّى الَّذِي الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا مَا جَمَعُوا الْجُمُعَا
عَلَى الَّذِي سَبَقَ الْأَقْوَامُ صَاحِيَةً بِالْأَجْرِ وَالْحَمْدِ حَتَّى صَاحِبَاهُ مَعَا
هُوَ الَّذِي جَمَعَ الرَّحْمَنُ أُمَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ وَكَانُوا قَبْلَهُ شِيعَا
عَذْنَا بِذِي الْعَرْشِ أَنْ نَحْيَا وَنَقْدَهُ وَأَنْ نَكُونَ لِرَاعٍ بَعْدَهُ تَبَعَا
إِنْ الْوَلِيدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ 'مَلِكٌ عَلَيْهِمْ عَانَ اللَّهُ فَارْتَفَعَا
لَا يَمْنَعُ النَّاسَ مَا أُعْطِيَ الَّذِينَ هُمْ لَهُ عِبَادٌ وَلَا يَعْطُونَ مَا مَنَعَا (١)

ويقول عبد الله العجلي يمدح هشام بن عبد الملك وبني مروان :

إِنَّكُمْ مَعَشَرُ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَفُوزُوا بِدُرِّهَا الْمَحْشُودِ
لَمْ يَرِ اللَّهُ مَعَشَرًا مِنْ بَنِي مُرَّةٍ وَإِنْ أَوْلَى بِالْمُلْكِ وَالتَّسْوِيدِ
قَادَةُ سَادَةِ مُلُوكٍ بِحَارٍ وَبِهَا لَيْلٌ لِلْقُرُومِ الصَّيْدِ
أَرْحِييُونَ مَا جِدُونَ خَضَمُونَ مِنْ حِمَاةٍ عِنْدَ أَرْدَادِ الْجُلُودِ
يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزْزِ وَيُحْيُونَ لَيْلَهُمُ بِالسَّجُودِ (٢)

وقد استفاد شعراء البلاط الأموي من عقيدة (المهدية) التي كان يقول

بها الشيعة . فوصف بعضهم الخليفة الأموي بالمهدي المنتظر، ولم يكن ذلك

من منطلق التقليد فحسب ، وإنما هو كما ذكر الدكتور أحمد الحوفي :

" نوع من مقابلة الدعوى بمثلها ، فإذا كان شعراء الشيعة ، أودعاة السفينانية

يتوقعون مجيء إمام منهم يملأ الأرض عدلا ، فإن شعراء البيت مرواني الأموي

لا يتوقعون مجيئه فحسب ، بل يقررون أنه هو الخليفة القائم ، وبهذا يوقعون

(١) الشعراء الشاميون ص ٥٩ ، الأغاني ٢٩٩/١ .

(٢) الأغاني ٣٠٦/١١ .

اليأس في قلوب الشيعة وقلوب الذين يميلون إلى عقيدتهم في رجعة الإمام
ويوثقون دعاة السفينية ، فتضعف قوة هؤلاء وهؤلاء ، وتقتصر حماساتهم ، وتهدأ
ثوراتهم " (١)

فالفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك فيشير إلى أنه هو المهدي الذي
أخبرت به الكتب السماوية ، مشيداً بعدله الذي كان فيه خير المسلمين فيقول :

أَنْتَ الَّذِي نَعَتَ الْكِتَابُ لَنَا	فِي نَاطِقِ التَّوْرَةِ وَالزُّبُرِ
كَمْ كَانَ مِنْ قَسٍّ يَجْمَرُنَا	بِخِلَافَةِ الْمُهْدِيِّ أَوْ حَبْرٍ
جَعَلَ إِلَاهَ لَنَا خِلَافَتَهُ	بِرِّ الْقُرُوحِ وَعِصْمَةِ الْجَبْرِ
كَمْ حَلَّ عَنَّا عَدْلُ سُنَّتِهِ	مِنْ مُغْرِمٍ ثَقُلَ وَمِنْ إِصْرٍ (٢)

وفي قصيدة لجبرير يمدح بها هشام بن عبد الملك ، يصفه فيها بالمهدي الذي
يُنْفِذُ إِلَيْهِ النَّاسُ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ ، كما أنه هو الإمام الذي استبشر المسلمون
بحكمه لإقامته فرائض الدين وواجباته فيهم .

يقول جبرير :

إِلَى الْمُهْدِيِّ نَفَزَ إِنْ فَرَعْنَا	وَنَسْتَسْقِي بِغُرْتِهِ الْغَمَامَا
وَحَبْلُ اللَّهِ تَعَصُّكُمْ قُوَاهُ	فَلَا نَخْشَى لِعُرْوَتِهِ انْقِصَامَا
رَضِينَا بِالْخِلَافَةِ حِينَ كُنَّا	لَهُ تَبَعًا وَكَانَ لَنَا إِمَامَا
تَبَاشَرَتْ الْبِلَادُ لَكُمْ بِحُكْمٍ	أَقَامَ لَنَا الْفَرَائِضَ وَاسْتَقَامَا (٣)

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ص ١٦٢ .

(٢) الديوان ١/ ٢٦٤ .

(٣) الديوان ١/ ٢٢٥ .

وقد يجنح شاعر كالفرزدق في إشادته الدينية بالخلفاء إلى المبالغة .
وذلك لعدم التزامه لجانب الصدق ؛ لكونه محترفاً ينصب اهتمامه في الحصول
على مزيد من العطايا والهبات التي يغدقها الخليفة عليه ، ولأن ذلك يجد
قبولاً واستحساناً لدى الخليفة الذي يرى فيه دحضاً لما تقوله الأحزاب المعارضة
عن بعد الخلفاء الأمويين عن الالتزام بأمور الدين وتنفيذ تعاليمه .

فهو يمدح يزيد بن عبد الملك فيسمو به إلى مصاف الأنبياء ، فيزعم أنه
لو كان هناك نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن يزيد هو النبي
المختار .

يقول الفرزدق :

وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الْمُصْطَفَىٰ مِنْ عِبَادِهِ	نَبِيٌّ لَهُمْ مِنْهُمْ لِأَمْرِ الْعَزَائِمِ
لَكُنْتَ الَّذِي يَخْتَارُهُ اللَّهُ بَعْدَهُ	لِحِمْلِ الْأَمَانَاتِ الثِّقَالِ الْعِظَائِمِ
وَرِثْتُمْ خَلِيلَ اللَّهِ كُلَّ خَزَائِنِهِ	وَكُلَّ كِتَابِ النُّبُوَةِ قَائِمِ
بِحُكْمِ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ عَرْشُهُ	بِمَا فِي ثَرَى سَبْعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَالِمِ
وَحَبْلُكَ حَبْلُ اللَّهِ مِنْ يَعْتَصِمُ بِهِ	إِذَا نَالَهُ يَأْخُذُ بِهِ حَبْلٌ سَالِمِ (١)

ويمدح هشام بن عبد الملك فيقول :

وَلَوْ أُرْسِلَ الرُّوحُ الْأَمِينُ إِلَىٰ أَمْرِي	سَوَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفِينَ الْأَكَامِ
إِذَا لَأَتَتْكَ كَفِّيْ هِشَامَ رِسَالَةٍ	مِنْ اللَّهِ فِيهَا مُنْزَلَاتُ الْعَوَاصِمِ (٢)

(١) الديوان ٢٨٢/٢ .

(٢) نفسه ٣٠٢/٢ .

والمبالغة التي تظهر في الأبيات السابقة والتي يلح عليها الفـرزـدق كثيراً في مدحه للأمويين، تتسم بالفلو الشديـد. فهو قد جعل الخليفة الأموي في مصاف الأنبياء أو يكاد .

وكان قيام خليفة أموي بعمل يحمل الطابع الديني كفيلاً بأن يندفع الشعراء إلى تخليده في شعرهم ، وتمجيد الخليفة من خلاله ، واستغلاله للتدليل على دينه وفضله .

فعند ما قرر الوليد بن عبد الملك تحويل بيعة دمشق إلى مسجد كان لهذا العمل صдаء الكبير عند شعراء الأمويين الذين تسابقوا للإشادة به ، فقال نابغة بني شيبان بهذه المناسبة :

هَلْ بِأَسْرُبِكَ عَمَّنْ رَامَ مَصْرُوفُ	يَا أَيُّهَا الْأَجْدُعُ الْبَاكِي لِهَلِكِهِمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُخْفِي الشَّرَاسِيفُ (١)	تَدْعُو النَّصَارَى لَنَا بِالنَّصْرَاحِيَّةِ
فَصَخَّرَهَا عَنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ مَنْسُوفُ	قَلَعْتَ يَمَعَتَهُمْ عَنْ جَوْفِ مَسْجِدِنَا
بَاتَتْ تَجَاوِئَنَا فِيهَا الْأَسَاقِيفُ	كَانَتْ إِذَا قَامَ أَهْلُ الدِّينِ فَايْتَهَلَوْا
كَمَا تَصَوَّتُ فِي الصُّبْحِ الْخَطَاطِيفُ	أَصْوَاتُ عَجْمٍ إِذَا قَامُوا بِقَرَبَتِهِمْ
وَصَادِقٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعْرُوفُ	فَالْيَوْمَ فِيهِ صَلَاةُ الْحَقِّ ظَاهِرَةٌ
فِيهِنَّ مِنْ رَبَّنَا وَعْدٌ وَتَخْوِيفُ (٢)	فِيهِ الْمَثَانِي وَآيَاتُ مَفْصَلَةٍ

(١) الشراسيف : جمع شرسوف وهو غصروف معلق لكل ضلع مثل غصروف الكتف .

(٢) الديوان ص ٥٢ .

وقال الفرزدق مشيداً بما قام به الوليد :

فرقت بين النصارى في كنائسهم
وهم معاً في مصلاتهم وأوجههم
وكيف يجتمع الناقوس يضربُهُ
فهمت تحويلها عنهم كما فهمنا
داود والملك المهدي إذ حكما
فهمك الله تحويلاً لبيعتهم
والعابدين مع الأسحار والعتَم
شئت إذا سجدوا لله والصنم
أهل الصليب مع القراء لم تنم
إذ يحكمان لها في الحرث بالغنم
أولادها واجتزاز الصوف بالجلَم
عن مسجدٍ فيه يتلى طيبُ الكلام (١)

وقال جرير :

ولقد سموت إلى النصارى سموّة
إن الكنيسة كان هدم بنائهما
فأراك ربك إذ كسرت صليبهم
رجفت لوقعتها جبال الديلم
قسراً فكان هزيمة للأخسر
نور الهدى وعلمت ما لم تعلم (٢)

ولم يتوقف شعراء البلاط الأموي عند مدح بني أمية ووصفهم بالتحلي بالخصال

الإسلامية ، وإنما عمدوا إلى هجاء معارضيتهم ، والخارجيين عليهم ، مستخدمين
في ذلك ألفاظاً ذات مدلولات دينية كالنفاق ، والفسق ، والضلال ، والشرك
والإلحاد وما إليها ، مع تصوير الحرب التي يخوضها الأمويون ضد خصومهم
بالجهد الذي يريدون به توطيد الدين ودعم أركانه .

(١) الديوان ٢١٠/٢ .

(٢) الديوان ٧١/١ .

فالفرزدق - في قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان - يتهم الزبيريين بالإلحاد ، ويجعل قتال الأمويين لهم واجباً دينياً يقومون به لإعادة العزة للإسلام فهو يقول :

إِذَا لَاقَى بَنُو مَرْوَانَ سَلَّوْا	لَدَيْنَ اللَّهِ أَسْيَافًا غَضَابًا
صَوَارِمَ تَمْنَعُ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ	يُوكِّلُ وَقَعَهُنَّ بِمَنْ أَرَابَا
بِهِنَّ لَقُوا بِمَكَّةَ مُلْحِدِيهَا	وَمُسْكِينَ يُحْسِنُونَ بِهَا الضَّرَابَا
فَلَمْ يَتَرَكْنَ مِنْ أَحَدٍ يُصَلِّي	وَرَاءَ مُكَذِّبٍ إِلَّا أَنْابَا
إِلَى الْإِسْلَامِ أَوْ لَاقَى ذَمِيمًا	بِهَا رُكْنَ الْمَنِيَةِ وَالْحَسَابَا (١)

ويرمي أعشى همدان عبد الرحمن بن الأشعث ومن شاركوه ثورته ضد الأمويين بالفسق ، ونقض المواثيق ، وإحداث البدع التي ليس لها أساس في الإسلام وأنهم قتلوا في سبيل ضلال وقتنة ، ويشيد بالحجاج وأتباعه من أنصار بني أمية . فهم أهل الحق الذين أظهرهم الله وأيدهم بنصره .

يقول أعشى همدان :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نَوْرُهُ	وَيُطْفِئَ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتُخْمَدَا
وَيُظْهِرَ أَهْلَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ	وَيَعْدَلَ وَقَعَ السَّيْفِ مَنْ كَانَ أَصِيدَا
وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِيهِ	لَمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَشِيقَ الْمُؤَكَّدَا
وَمَا أَحْدَثُوا مِنْ بَدْعٍ وَعَنْظِيمَةٍ	مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْعَدْ إِلَى اللَّهِ مَصْعَدَا

وما نَكُثُوا من بَيْعَةٍ بعدَ بَيْعَةٍ إِذَا ضَمْنُوهَا اليَوْمَ خَاسُوا بِهَا غَدًا
وَجَبْنَا حَاشَاهُ رَبُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ
فَلا يَصْدُقُ فِي قَوْلٍ وَلَا صَبْرٍ عِنْدَهُمْ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ
فَقَتَلَهُمْ قَتْلَى ضَالِلٍ وَفَتَنَنِيهِ
وَحَيَّهُمْ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطَرَّدًا (١)

ومن الواضح التأثير القرآني في الأبيات السابقة .

وعند ما مدح كعب الأشقر المہلب بن أبي صفرة في حروبه ضد الخوارج وصفهم بالكفر، والجور عن الصراط المستقيم ، واتباع دين لم تأت به الرسائل، قائلاً :

لَوْلَا الْمُهَلَّبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا
إِذَا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَدُّوا
أَنَّهُارَ كَرَمَانَ بَعْدَ اللَّهِ مَا صَدُّوا
بِالْمُحَكَّمَانِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا
جَارُوا عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا
دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ (٢)

واستفاد الشعراء من القصص القرآني الذي يدور حول الأمم الضالّة، فاستحضروها في أشعارهم ليقترنوا الخارجين على الأمويين بها . فجزيريتهم آل المہلب بن أبي صفرة بالتفريط في الدين، والطفيان في ثورتهم ضد يزيد ابن عبد الملك ، ويشبههم بقوم ثمود في عصيانهم وفيما آلوا إليه من مصير مؤلم، فيقول :

(١) الديوان ص ١٠١
(٢) شعراء أمويون ٢/٤٠٣ .

آل المهلب فرطوا في دينهم
وطنيوا كما فعلت ثمود فباروا
إن الخلافة يابن دحمة دونها
لجج تضيق بها الصدور غماراً (١)

ويقول الفرزدق في تلك الحادثة :

كيف ترى بطشة الله التي بطشت
قائد الجياد من البلقاء منقبضاً
حتى أتت أرض هاروت لعاشرة
لما رأوا أن أمر الله حاق بهم
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
بابن المهلب إن الله ذو نقم
شهرًا تقلقل في الأرسان واللجم
فيها ابن دحمة في الحمراء كالأجم
وأنهم مثل ضلال من النعم
كأنهم من ثمود الحجر أو إرم (٢)

وشطر البيت الأخير اقتبسه الشاعر من قوله تعالى : . . فأصبحوا لا يرى
إلا مساكنهم " (٣)

وخلاصة القول فقد اتخذ الخلفاء الأمويون من الشعراء أبواقاً تساعدتهم
على تحسين صورتهم أمام الرعية ، والتي تعمل أحزاب المعارضة على تشويهها .
وقد كان الدين محوراً مهماً في كل قصائدهم التي يعبرون من خلالها عن الخلفاء .
فهم وصلوا الحكم لأن الله فضلهم على الناس وأختارهم لذلك ، ولأن قدرهم أن
يحكموا الناس ، وهم جديرون بذلك لالتزامهم الديني ، هذا الالتزام الذي
يظهرهم أحياناً في صورة من المبالغة الممجوجة .

أما معارضوهم فهم ضالون ، ملحدون ، مشيرون ، لا فرق بينهم وبين الأمم
الضالة .

(١) الديوان ٦٤٧/٢ ، ابن دحمة : يزيد بن المهلب ، أمه دحمة .

(٢) الديوان ٢٥٢/٢ .

(٣) الأحقاف ٢٥

٢ - شعر الزبيريين :

يتميز شعر الزبيريين بقلته فهو لا يكاد يذكر قياساً بشعر الأحزاب السياسية الأخرى . وهو أمر يعود - كما أشرنا من قبل - إلى قصر الفترة التي عاشها هذا الحزب أولاً ، وإلى عدم اهتمام زعيمه عبد الله بن الزبير بالشعر والشعراء ثانياً .

ود يوان شاعرهم الأول صيد الله بن قيس الرقيات ليس مقصوداً على السياسة . فهو يتضمن عدداً كبيراً من قصائد الغزل الذي يعد ابن الرقيات أحد أعلامه المرموقين في العصر الأموي ، كما أنه يضم - أيضاً - قصائد قالها الشاعر في مدح الأمويين بعد نهاية الزبيريين في محاولة لاسترضاء خلفاء بني أمية . وتعد همزية صيد الله بن قيس الرقيات في هجاء الأمويين ومناصرة الزبيريين وثيقة تاريخية لهذا الحزب بما تضمنته من أفكار سياسية ، وهي أول ما يجب الوقوف عنده في شعره .

إن الشاعر بعد مقدمته الطللية التي يظهر فيها حسرته المريرة لا يختلف قريش وتناحر أبنائها وصراهم حول الحكم - الأبيات ١ - ١٧ - ، يعمد إلى محاولة إثبات أحقيتها بالخلافة ضد كل من يحاول أن يسلبها هذا الحق أو يتمنى زوالها - وفي مقدمتهم الخوارج - ولهذا فهو يشير إلى دورها الإسلامي .

فإليها ينتسب النبي صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة السماوية التي انتشرت شرقاً وغرباً ، وإليها ينتمي الصفوة المختارة من أصحابه الذين جاهدوا في سبيل الدين بأموالهم وأنفسهم ، بدءاً بأبي بكر الصديق ، وحمزة أسد الله ، وعلي بن جعفر ابني أبي طالب ، وانتهاءً بالزبير بن العوام الذي ينتسب إليه هذا الحزب الذي يدعو إليه ابن الرقيات ، فهذه الصفوة المختارة تجعل قريشاً جديرة بالسيادة على العرب والمسلمين .

يقول ابن الرقيات :

لَوْ بَكَتْ هَذِهِ السَّمَاءُ عَلَى قَوْمٍ كَرَامٍ بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ
نَحْنُ مِنْهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ وَالصَّنْسِيْدَةُ يَقُّ مِنْهُ التَّقِيُّ وَالْخَلْفَاءُ
وَقَتِيلُ الْأَحْزَابِ حَمَزَةٌ مِنْهُ أَسَدُ اللَّهِ وَالسَّنَاءُ سَنَاءُ
وَعَلِيُّ وَجَعْفَرُ ذُو الْجَنَاحِ الْبَيِّنِ هُنَاكَ الْوَصِيُّ وَالشَّهيدُ
وَالزَّبِيرُ الَّذِي أَجَابَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكَرْبِ وَالْبَلَاءُ بِلَاءُ (١)

ويقرن ابن الرقيات مصعب بن الزبير بهذه الصفوة المباركة . فهو امتداد لهم
واستمرار لنهجهم في اتباع الحق ومحاربة الباطل . وهو بذل ينقل من مديح
قريش إلى مديح مثليها الأكفاء - في نظره - وهم الزبيريون . ومصعب يعد الرجل
الثاني في الحزب .

يقول عبيد الله :

وَالَّذِي نَغَصَّ ابْنُ دَوْمَةَ مَا تَوَحَّى حَيَّ الشَّيَاطِينُ وَالسُّيُوفُ ظِمَاءُ
فَأَبَاحَ الْعِرَاقَ يَضْرِبُهُمُ بِالسُّيُوفِ صَلْتًا وَفِي الضَّرْبِ غِلَاءُ
غَيْبًا عَنْ مَوَاطِنِ مُقْطِعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا السُّيُوفُ رِخَاءُ (٢)

ويتخذ مديحه لمصعب بعداً دينياً . فالله قد فضله على جميع حاسديه ، ونصره
عليهم ، وهو شهاب من الله أنار به الظلماء التي غطت على المسلمين ، كما أنه
ملتزم بكل ما يجب أن يكون عليه الحاكم المسلم من تواضع لله ، وبعد عن الجبروت ،
واعتماد بالتقوى في جميع الأمور . فهو يقول :

(١) الديوان ص ٨٩ .

(٢) نفسه ص ٩٠ .

هَ بِمَا فَضَّلْتُ بِهِ النُّجُبَاءُ	حَسَدًا إِذْ رَأَوْكَ فَضَّلَكَ اللَّـ
كَ فِي اللَّـ إِذْ خَرَجْتَ الرَّيَّاءُ	فَعَلَى هَدْيِهِمْ خَرَجْتَ وَمَا طِبُّ
لَكَ نَزْلٌ مِثْلُ مَا يَزُولُ الْعَمَّاءُ	إِنْ تَعَشْ لَا نَزْلٌ بِخَيْرٍ وَإِنْ تَهْ
هَ تَجَلَّيْتُ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ	إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّـ
جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَّاءُ	مَلَكُهُ مَلِكٌ قُوَّةٌ لَيْسَ فِيهِ
لَحَ مَنْ كَانَ هَمِّهِ الْاِتِّقَاءُ	يَتَّقِي اللَّـ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْ
نَكَ بِالنَّقْصِ وَالشَّقَاءِ شَقِيَّاءُ	إِنْ لِلَّـ دَرَقُومٌ يَرِيَّادُ
قَ وَهَرَقَ كَلَابُكَ الْأَعْدَاءُ (١)	بَعْدَ مَا أَحْرَزَ الْإِلَهُ بِكَ الرِّتْدَ

ويعود بعد ذلك إلى الافتخار بقريش ففي كنفها يوجد البيت الحرام الذي يقصده الحجاج من كل فج ، وأهلها هم حجابة الذين يعتنون به . وينطلق من ذلك للهجوم على القبائل اليمنية التي قامت على أكتافها الدولة الأموية . فهي لم ترع حرمة هذا البيت بل حرقتة . ويشيد بالزبيريين الذين أعادوا بناءه بعد ذلك .

يقول ابن الرقيات :

لَيْسَ لِلَّـ حُرْمَةٌ مِثْلُ بَيْتِ	نَحْنُ حَجَابُهُ عَلَيْهِ الْمُلَاءُ
خَصَّهُ اللَّهُ بِالْكَرَامَةِ فَالْبَا	دُونََ وَالْعَاكِفُونَ فِيهِ سَوَاءُ
حَرَّقَتْهُ رِجَالُ لَحْمٍ وَعَكَّ	وَجُذَامٌ وَحَمِيرٌ وَصُدَاءُ
فَبَيْنَاهُ بَعْدَ مَا حَرَّقُوهُ	فَاسْتَوَى السَّمَكَ وَاسْتَقَلَّ الْمِنَاءُ (٢)

(١) الديوان ص ٩١ ، العماء : السحاب .

(٢) نفسه ص ٩٥ .

والعناصر الدينية - كما رأينا - تمثل جانباً مهماً في الأفكار الشعرية في همزية ابن الرقيات . فهو يركز عليها في محاولة إثباته لحق قريش أولاً ، وأحقية الزبيريين ثانياً ، كما يجعلها منفذاً للهجوم على الأمويين من خلال اتهامه لأنصارهم من القبائل اليمنية بانتهاك الحرمات المقدسة .

وفي قصيدة أخرى يصور ابن الرقيات حرص الزبيريين على أن يكون حكمهم قائماً على المبادئ الإسلامية . فهم يتقبلونبيعة المسلمين وفق

تعاليم هذا الدين . فهو يقول :

تَدَارِكُ أَخْرَانَا وَنَمُضِي أَمَانَا	وَتَتَّبِعُ مَيِّمُونَ النَّقِيَّةَ نَاسِكَا
إِذَا فَرِغْتَ أَظْفَارَهُ مِنْ قَبِيلَةٍ	أَمَالَ عَلَى أُخْرَى السُّيُوفِ الْبَوَاتِكَا
عَلَى بَيْعَةِ الْإِسْلَامِ بَايَعَنَّ مَصْعَبَا	كَرَادِيْسُ مِنْ خَيْلٍ وَجَمْعَا ضِبَارِكَا
نَغَيْتَ بِنَصْرِ اللَّهِ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ	فَأَصْبَحْتَ تَحْقِي حَوْضَهُمْ بِرِمَاحِكَا
تَدَارَكْتَ مِنْهُمْ عَشْرَةَ نِهَكْتَ بِهِمْ	عَدُوَّهُمْ وَاللَّهُ أَوْلَاكَ ذَلِكَا (١)

ولم يكن ابن الرقيات وحيداً في الإشادة بالزبيريين . فقد شاركه في ذلك شعراء آخرون كانوا إما محترفين امتدحوا الزبيريين طمعاً في عطاياهم ، أو ممن أعجبته منجزات هذا الحزب .

ومن هؤلاء النابغة الجعدي الذي مدح عبد الله بن الزبير فرأى في شخصه إعادة لسيرة الخلفاء الراشدين في رعايتهم لشؤون المسلمين ، واهتمامهم بالفقراء ، وامتدح فيه اتخاذ العدل مبدءاً له حيث ساوى بين الناس جميعاً متبعاً سيرة الخلفاء الراشدين .

(١) الديوان ص ١٣١ ، الكراديس : الجماعات ، ضبارك : كثير .

يقول النابغة :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلِيَتْ نَسَا وعثمانَ والفاروقَ فارتاحَ معدَمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ فَاسْتَوَوْا فعَادَ صَبَاحًا حَالُكَ اللَّيْلُ مَظْلَمُ
أَتَاكَ أَبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدَّجَى دُجَى اللَّيْلِ جَوَابُ الْفَلَاحِ عَثْمَمُ
لَتَجْبِرَ مِنْهُ جَانِبًا ذَعَذَعْتُ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالزَّمَانُ الْمَصْمَمُ (١)

والبيتان الأخيران يظهران حقيقة شاعرهما فهو لا يعدو أن يكون مداحاً - كشعراء البلاط الأموي - وما يهمه هو ما يريد من المال .

ويهاجم أعشى همدان - من منطلق إعجابه بالزبيريين - حركة المختار الثقفي فيتهمه بالشعوذة والضلال ، ويصف جيشه بأنهم شرطة الكفر ، معلنًا مبايعته لعبد الله بن الزبير التي تأتي تبعاً لإيمانه بالإسلام ، قائلاً :

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَبْعِيَّةٌ وَإِنِّي بِكُمْ يَا شُرْطَةَ الْكُفْرِ عَارِفُ
وَأَقْسِمُ مَا كُرْسِيكُمْ بِسَكِينَةٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ لُقِّتَ عَلَيْهِ اللَّفَائِفُ
وَإِنْ لُبَّسَ التَّابُوتُ فَتَنَّاوْا إِنْ سَعَتْ حَمَامٌ حَوَالِيهِ وَفِيكُمْ زَخَارِفُ
وَإِنِّي أَمْرُو أَحْبَبْتُ آلَ مُحَمَّدٍ وَآثَرْتُ وَحْيًا ضُمَّنَتْهُ الْمَصَاحِفُ
وَتَابَعْتُ عَبْدَ اللَّهِ لَمَّا تَتَابَعْتُ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ شُمُطُهَا وَالْغَطَارِفُ (٢)

من كل هذا يتضح أن الإسلام ترك بصماته الواضحة على الشعر الزبيرى رغم قلته . وتمثل ذلك في إضفاء الشعراء صفات دينية على رجال هذا الحزب ، مع الإشادة بتمسكهم بالقيم الإسلامية في حكمهم ، ومهاجمة اعدائهم ، واتهامهم بما يتنافى مع هذا الدين ، وكل ذلك من أجل تأييد هذا الحزب والدعوة له .

(١) الديوان ص ٢٠٤ ، عثمم : جمل قوي شديد .

(٢) الديوان ص ١٤٢ .

٣ - شعر الشيعة :

يعتبر ديوان الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي أنموذجاً فريداً للشعر السياسي في العصر الأموي ، وصورة معبرة عن الفكر الشيعي في تلك الفترة . فقد نظم الكميت قصائد هذا الديوان ومقطوعاته التي يصل عدد أبياتها إلى ما يزيد عن ستين وأربعمئة بيت ، ليعبر من خلالها عن ولائه القوي لبني هاشم ، وليقرر فيها أحقية البيت الهاشمي بالخلافة ، وليظهر الأمويين في صورة المغتصبين الجائرين ، وداعياً للثورة ضدهم لإعادة الحق إلى أهله . مما جعله في نظر أحد الدارسين شاعر الشيعة الأكبر في العصر الأموي (١) . وهذا ما يجعل من الهاشميات أنموذجاً حياً نستطيع من خلاله أن ندرس أثر الإسلام في شعر الشيعة في ذلك العصر .

والكميت يصدر في هاشمياته عن وعي عميق بفحوى القضية السياسية التي يعالجها . وهي قضية الخلافة (الإمامة) التي هي منصب ديني وجد بعد الإسلام . ومن هنا فقد كان الدين يتمثل بوضوح عبر كل الموضوعات الشعرية التي كان الشاعر يتحرك من خلالها للتعبير عن مبادئه السياسية .

فإذا ما مدح بني هاشم - ومديحه لهم يستغرق جزءاً كبيراً من ديوانه - فإنه يعتمد إلى إضفاء هالة دينية عليهم ليس في الإشارة إلى قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم فقط ، وإنما في التفني بالصفات الإسلامية الرفيعة التي يتحلون بها ، والتي تجعلهم جديرين بالإمامة أكثر من غيرهم . فهم موصوفون بالعدل ، والزهد ، والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبعد عن الفحش ، والسلامة من النيمة ، إلى جانب بعض الصفات التقليدية التي ظل لها دورها بعد الإسلام .

يقول الكميت :

بل هواي الذي أُجِنُّ وأُبْدِي لبني هاشم فُروع الأَنَسَامِ
للقريبين من نَدَى والبُعِيدِين من الجَوْرِ في عَرَى الأحكامِ
والمُصِيبِينَ بَابَ مَا أخطأ النَّاسُ ومرسى قواعد الإسلام (١)

.....

راجحي الوزن كالملي العَدَلِ في السَّيرَةِ طَبِينِ بالأُمُورِ العظامِ (٢)

.....

وهم الآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأُمَرَاءِ بِتَقْوَاهُمْ عُرَى لَا أَنْفَصَامِ
والمُصِيبُونَ وَالْمُجِيبُونَ لِلدَّعْوَةِ وَالْمُحَرِّزُونَ خَصْلَ التَّوَامِي
وَمُحِلُونَ مُحَرَّمُونَ مُقَرَّرُونَ لِحَلِّ قَرَارِهِ وَحَافِظُونَ رَامِ
سَاسَةٍ لَا كَمَنْ يَرَى رَهِيَّةَ النَّاسِ سَوَاءً وَرَهِيَّةَ الْأَغْنَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيِّهِ أَوْ كَسَلِيمَانَ بَعْدَ أَوْ كِهَشَامِ
رَأْيِهِ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَاثَةِ فِي الثَّائِجَاتِ جُنَحِ الظَّلَامِ (٣)

والكميت في البيتين الأخيرين يعتمد إلى الموازنة بين عدل بني هاشم وجور بني
أمية الذين يعاملون المسلمين معاملة الأغنام، وهذا الرأي في الأمويين ليس مقصوراً
على خليفة معين وإنما هو عام يشمل الحكام الأمويين جميعاً .

(١) الهاشميات ص ٨

(٢) نفسه ص ١١ ، طبيين : الطب الحاذق من الرجال الماهر يعلمه .

(٣) نفسه ص ١٤ ، رأيه : أي رأى الواحد من هؤلاء الخلفاء كراي أصحاب
القطع الكثيرة من الغنم .

ويقول من قصيدة أخرى :

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ فِي بَيْوتِهِمْ سَنَخُ التَّقَى وَالْفَضَائِلُ الرَّتَبُ
وَالطَّبِيبُونَ الْمَبْرُؤُونَ مِنَ الْآفَاقَةِ وَالْمُنْجِبُونَ وَالنُّجُوبُ
وَالسَّالِمُونَ الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الْعَيْبِ وَرَأْسُ الرُّؤُوسِ لَا الذَّنَبُ (١)

.....

وَالْوَاظِعُونَ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الشَّغَابِ إِنْ شَغِبُوا (٢)

.....

إِلَى مُزَوَّرِينَ فِي زِمَارَتِهِمْ نَيْلُ التَّقَى وَاسْتَمْتِ الْحَسَبُ (٣)
ويقول أيضاً :

وَلَيْسَ التَّفَحُّشُ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا طَيْرَةُ الْغَضَبِ الْمُغْضِبِ
وَلَا الطَّعْنُ فِي أَعْيُنِ الْمُقْبِلِينَ وَلَا فِي قَفَا الْمَذِيرِ الْمَذْنِبِ
نُجُومُ الْأُمُورِ إِذَا أَدْلَسَتْ بظُلُمَاءِ دِيْجُورِهَا الْغَيْهَبِ (٤)

وإذا ما هجا بني أمية فإنه يضعهم في صورة مناقضة للصورة المثالية التي رسمها لبني هاشم ، فهو مجردهم من جميع الصفات التي يجب على الحاكم المسلم الالتزام بها . فتراهم يتهمهم بتعطيل أحكام الله ، والجور في معاملته المسلمين ، ومخالفتهم لأوامر الله في ذلك . ويبالغ في تصوير جورهم فهو يجعلهم مضرب المثل فيه .

-
- (١) الهاشميات ص ٥٦ ، سنخ: سنخ كل شيء أصله .
(٢) نفسه ص ٥٧ ، الوازعون : الناهون عن المنكر .
(٣) نفسه ص ٦٠ .
(٤) نفسه ص ٧٧ .

يقول الكميته في لاميته التي تتسم بقوة تعابيرها ، وتعد أقرب قصائد الديوان إلى حقيقة الشعر :

وَهَلْ مُدِيرٌ بَعْدَ الْإِسَاءَةِ مُقْبِلُ	أَلَا هَلْ عَمِي فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ
فَيَكْشِفُ عَنْهُ النُّعْسَةَ الْمُتَزَمِّلُ	وَهَلْ أُمَّةٌ مُسْتَيْقِظُونَ لِرُشْدِهِمْ
مَسَاوِيهِمْ لَوْ كَانَ ذَا الْمِيلِ يُعْدَلُ	فَقَدْ طَالَ هَذَا النُّومُ وَاسْتَخْرَجَ الْكَرَى
عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَتَحَوَّلُ	وَعَطَّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانَتْ نَا
وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ	كَلَامُ النَّبِيِّينَ الْهَدَاةِ كَلَامُنَا
أُمُورٌ مُضِيعٌ آثَرُ النَّوْمِ بِهِ لُ (١)	فَتِلْكَ أُمُورُ النَّاسِ أَضَحَّتْ كَانَهَا
فَفِيكُمْ لَعَمْرِي ذُو أَفَانِينَ مَقُولُ	فِي سَاسَةِ هَاتُوا لَنَا مِنْ حَدِيثِكُمْ
عَلَى الْحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ	أَأَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ
فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمُنُونَ وَنَهْزِلُ	فَكَيْفَ وَمَنْ أَنَّى وَإِذَا نَحْنُ خِلْفَةُ
عَلَى مَا بِهِ ضَاعَ السَّوَامُ الْمُؤِيلُ (٢)	أَنْصَلِحْ دُنْيَانَا جَمِيعًا وَدِينُنَا
مَنْ الْقَوْمِ لَا شَارٍ وَلَا مُتَنَبِّلُ (٣)	بُرِينَا كَبْرِي الْقِدْحِ أَوْهَنْ مَتْنَهُ
مَنْ الرُّهَقِ الْمَخْلُوطِ بِالنُّوْكِ أَثُولُ (٤)	وَلَا يَةَ سَلْفِدٍ أَلْفَ كَانَسَهُ
وَبِالنَّهْيِ فِيهِ الْكُودَنِيُّ الْمُرْكَلُ (٥)	كَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ يُعْنَى بِأَمْرِهِ

- (١) البهل : واحد ها باهل يقال ناقة باهلة وباهل وهي التي تكون مهمة بغير راع .
 (٢) مؤيل : أي كثير مهمل ، والسوام : هي الإبل الراعية ترسل ولا تعلف .
 (٣) القدح العود إذا بلغ فشذب عنه الغصن وقطع على مقدار النبل الذي يراد من الطول والقصر . والشاري المصلح . ومتنبل صاحب نبل . والمتن الظهر . وأوهن أي أضعف .
 (٤) السلفد الذئب ويريد به هنا العالج . والألف الرجل العمي البطيء الكلام .
 والرهب السفه . والنوك الحمق . والأثول الطائش .
 (٥) الكودني نسبة إلى الكودن وهو البرذون يشبه به البليد . والمركل السذي يضربه راكبه برجله في مراكله ليعدو ويسرع .

أَلَمْ يَتَدَبَّرْ آيَةً فَتَدَلَّسَهُ عَلَى تَرَكٍ مَا يَأْتِي أُمُّ الْقَلْبِ مُقْفَلُ
فَتَلَّكَ مُلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعَنَاءِ الْمَطْوَلُ
رَضُوا بِفِعَالِ السُّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ فَقَدْ أَيْتَمَوْا طَوْرًا عَدَاءً وَأَثَكُلُوا
وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلَنَا لَا جَوْرَ مِنْ حُكَامِنَا الْمُتَمَثِّلِ (١)

كما يتهمهم بإحداث البدع في الدين ، واستحلال دماء المسلمين ، واغتصاب حقوقهم في الغنائم .

يقول الكميت :

لَهُمْ كُلَّ عَامٍ بَدْعَةٌ يُحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوَجَّلُوا
كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِيءْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلُ
تَحِلُّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَخْلَةِ الْمُتَهَدِّلُ
وَلَيْسَ لَنَا فِي الْفِيءِ حِظٌّ لَدَيْهِمْ وَلَيْسَ لَنَا فِي رَحْلَةِ النَّاسِ رَحْلُ
فِيَارِبُ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى عَلَيْهِمْ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعُولُ (٢)

والشاعر يرسم في الأبيات السابقة صورة قاتمة للدولة الأموية التي اتخذ حكامها الجور مبدأ لهم في معاملة المسلمين ، مخالفين بذلك تعاليم الإسلام التي تدعو إلى العدل والرأفة . وهو بذلك يعبر عن روح ثورية تدعو للتمرد على الأمويين باعتبارهم غير أهل للإمامة وذلك بسبب سيرتهم التي لا تتفق كلياً مع الإسلام .

(١) الهاشميات ص ٦١ .

(٢) نفسه ص ٦٤ .

ويستفيد الكميت من التطور الفكري الذي طرأ على العقل العربي آنذاك،
فيعمد إلى الجدل العقلي الذي يقوم على النظر المحض تارة ، وعلى الاحتجاج
بآيات القرآن تارة أخرى؛ ليدل على أحقية الهاشميين بالخلافة .

يقول الكميت :

بَخَاتَمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورُهُمْ	فَلَمْ أَرْغَضِبًا مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً	تَأُولَاهَا مِنَّا تَقَىُّ وَمُعْرِبُ
وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَآيَا تَتَابَعَتْ	لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا الَّذِي الشُّكُّ مَنْصَبُ
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُ نَنَا	وَبِالْفِذِّ مِنْهَا وَالرَّدِّ يَفِينُ نَرْكَبُ (١)

.....

وَقَالُوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا	وَمَا وَرِثْتَهُمْ ذَاكَ مِنَّا وَلَا أَبُ
يَرُونَ لَهُمْ حَقًّا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا	سَفَاهًا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجِبُ
وَلَكِنْ مُوَارِثُ ابْنِ أَمِنَةَ الَّذِي	بِهِ دَانَ شَرَقِيٌّ لَكُمْ وَمَغْرِبُ (٢)
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ	لَقَدْ شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَابُ
وَعَكُّ وَلَخْمٌ وَالسُّكُونُ وَحَمِيرٌ	وَكُنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ
وَلَا نُنْتَشِلَتْ عُضُوبٌ مِنْهَا يَحَابِرُ	وَكَانَ لَعَبْدُ الْقَيْسِ عُضُوٌّ مُؤَرَّبُ
وَلَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَدْلَسَةٌ	وَلَا غُيْبًا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ غُيِبُ
هُمْ شَهِدُوا بَدْرًا وَخَيْرَ بَعْدَهَا	وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالِدَمَاءُ تَصِيبُ
وَهُمْ رَأَيْمُوهَا غَيْرَ ظُفْرِ وَأَشْبَلُوهَا	عَلَيْهَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَتَحَدَّبُوهَا
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ	فَإِنْ ذَوِي الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ (٣)

(١) الهاشميات ص ٣٠ .

(٢) نفسه ص ٣٢ .

(٣) نفسه ص ٣٣ ، الظفر : العاطفة على غير ولدها المرضعة له . وأشبيل عليه عطف
عليه وأعانته . وتحذبوا : أي تآزرروا على نصرته .

ففي الآيات السابقة يقرر الكميّ حق بني هاشم بالخلافة عن طريق الاستشهاد بآيات القرآن الكريم في سور حاميم وغيرها . وهي قوله تعالى " لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " (١) وقوله عز وجل : " إنما يريد الله ليذّهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً " (٢) ، وقوله تعالى " وآت ذا القربى حقه " (٣) . فهذه الآيات ناطقة بحق قرابة بني هاشم ، وهي آيات لا يمكن تأويلها بغير ذلك . وهذا الاستشهاد بآيات القرآن لا يأتي اعتباراً ، وإنما يجيء به الشاعر في مقدمة مناقشته لقضية ميراث النبي صلى الله عليه وسلم ، فالأمويون - كما يقول - يدعون أنهم ورثوا الإمامة عن آبائهم وهو ادعاء باطل ؛ لأن صاحب الحق في ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم فهو المورث الحقيقي . ثم ينتقل بعد ذلك إلى تفنيد قولهم بأن النبي لا يورث ، فلو صح هذا القول - في نظره - لشاركتهم فيها القبائل العربية من عك ولخم وحمير والسكون وغيرها ، ولكان للأنصار منها جزء كبير لدورها في نشر الدعوة الإسلامية . فإن كان الأمويون يرون أنها لا تصلح إلا لقريش فإن أهل البيت أولى بها منهم بحق قرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم .

ويمثل المديح النبوي جزءاً مهماً من الهاشميات ، وهو مديح يستمد عناصره من التصوير القرآني للرسول ، وما حدث به صلى الله عليه وسلم عن نفسه .

(١) الشورى ٢٣ .

(٢) الأحزاب ٣٣ .

(٣) الروم ٣٨ .

يقول الكميّ :

إلى السراج المنير أحمد لا يعدّ لني رغبة ولا رهـب
عنه إلى غيره ولو رفح النَّـاس إلى العيون وارتقبوا
وقيل أفرطت بل قصدت ولو منفي القائلون أو ثلبوا
إليك يا خير من تضمّنت الأرض وإن عاب قولي العيب (١)

.....

والسابق الصادق الموفق والخاتم للأنبياء إذ ذهبوا
والحاشر الآخر المصدق للأول فيما تناسخ الكتب
مبشراً منذراً ضياء به أنكر فينا الدوار والنصب (٢)
من بعد إذ نحن عاكفون لها بالعتير تلك المناسك الخيب (٣)
وملة الزاعمين عيسى بنم اللـ وما صوروا وما صلبوا
مهاجراً سائلاً وقد شالبت الحرب لقاحاً لغبرها الكتب
يا صاحب الحوض يوم لا شرئ للمسلمين سوارد إلا ما كان يضطرب
نفسى قدت أعظمها تضمّنها قبرك فيه العفاف والحسب (٤)

فالكميت في الأبيات السابقة ، يضيف على الرسول صلى الله عليه وسلم الصفات الدينية التي تليق به . فهو خاتم الأنبياء ، الذي يحشر الناس من خلفه . وهو المبشر النذير الذي أنقذ به الله الناس من ظلمات الجهل وعبادة الأوثان ، وكذب ادعاء النصارى بأن عيسى ابن الله ، وهو صاحب الحوض الذي تستقي منه أمته يوم القيامة .

(١) الهاشميات ص ٥٢ .

(٢) الدوار اسم صنم وحجر يدورون حوله شبه بالبيت والنصب حجارة تنصب كذلك يطيفون حولها .

(٣) العتير ضم كان يعتر له . أي يذبح .

(٤) نفسه ص ٥٣ .

٤ - شعر الخوارج :

يمثل الدين عنصراً أساسياً في تجربة الخوارج الشعرية . فليس هناك شاعر منهم لم يتأثر به ، ويستمد من عناصره في مضامين شعره . وهذا ما جعله ينعكس عندهم بشكل لا يوجد له مثيل في شعر العصر الأموي . كما ظهر واضحاً تأثرهم الشديد بالقرآن الكريم حيث أكثروا الاقتباس من ألفاظه ومعانيه وصوره . وأجدني أوافق سهير القلماوي فيما ذهبت إليه حول تأثير فئة القراء المتدينين على أدب الخوارج " إن هذه الفئة المتعبدية المتقشفة لم تكن كل الخوارج ، ولكنها كانت الفئة الممتازة وكانت مثلاً حياً أمامهم إن لم يقللوه فلا بد أنهم يتأثرون به أقوى أثر لقربه منهم وتشابهه معهم فيما يؤمنون به " (١) والشعر الخارجي لا يستلهم النظرية السياسية التي آمن بها هذا الحزب، وإنما يستمد عناصره من تصويره لحياتهم ، وجهادهم في سبيل مبادئهم التي نذروا أنفسهم لتحقيقها في مجتمعهم الإسلامي، نتيجة قناعتهم الذاتية بصحتها وعدالتها .

فقد عبر الخوارج عن رفضهم لجميع ألوان العصبية القبلية والعرقية ، وأسقطوا فيما بينهم كل الفوارق الاجتماعية . وهو أمر طبيعي يتماشى مع نظريتهم السياسية التي تنظر إلى المسلمين من منظور واحد . فلا سبيل للتفاضل فيما بينهم إلا من خلال معيار جديد عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (٢) وهو معيار التقوى الإسلامي .

(١) أدب الخوارج ص ٤١ .

(٢) الحجرات ١٣ .

وهذا المفهوم عبر عنه شاعرهم عمران بن حطان بقوله :
 فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ رُبُّنَا وَأَوْلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مِنْ شَكْرٍ (١)
 والإسلام هو انتماءهم الحقيقي ، ومصدر فخرهم . فهم يرفضون القبيلة بكل
 ما تمثله من حسب عريق .

يقول عيسى بن فاتك الخطبي :
 أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا فَخَرُوا بِبِكْرٍ أَوْ تَمِيمٍ
 كَلَّا الْحَيَّيْنِ يَنْصُرُ مَدْعِيَهُ لِيَلْحَقَهُ بِذِي الْحَسْبِ الصِّمِ
 وَمَا حَسْبُ وَلَوْ كَرُمْتُ عَسْرُوقٌ وَلَكِنِ التَّقِيُّ هُوَ الْكَرِيمُ (٢)
 والله سبحانه هو الذي يقرب بينهم لا القرابة والنسب . فهم يمنحون ودهم لكل
 منتم للعقيدة التي يؤمنون بها .

يقول مرداس بن أدية :
 مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ كَانَ لَهُ وَدِّي وَشَارِكُهُ فِي تَالِدِ الْمَالِ
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَا أَحِبُّهُمْ إِلَّا لَوَجْهِكَ دُونَ الْعَمِّ وَالْخَالِ (٣)
 وشعراء الخوارج يرسمون لرفاقهم - باختلاف الغرض الذي يتعاملون معه فخرأ
 كان أم مديحاً أم رثاءً - وهو الأغلب - صورة مثالية للإنسان الخارجي يستمدونها
 من المثل الإسلامية الجديدة التي جاء بها هذا الدين ودعا الإنسان المسلم إلى
 الالتزام بها . وأبرز سماتها الواقعية الشديدة فهي بعيدة كل البعد عن

(١) شعر الخوارج ص ١٨٣ .

(٢) نفسه ص ٧٢ .

(٣) نفسه ص ٦٤ .

المبالغة والغلو ، لأنها صورة صادقة عن واقع حياتهم كما صورتها المصادير القديمة (١) .

وتتجلى ملامحها في الحديث عن حرص الخوارج الشديد على أداء الواجبات الدينية من صوم وصلاة ، وقيامهم الليالي للتهجد ، وكثرة قراءاتهم للقرآن ، وخشوعهم الشديد عند سماعهم للذكر ، ورغبتهم العميقة في الاستشهاد في سبيل مبادئهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتراحمهم فيما بينهم .

يقول عيسى الخطي يرثي مرداس بن أدية ومن مات معه من الخوارج في قصيدة تعتبر أحد النماذج الفريدة في الرثاء الاسلامي :

أَلَا فِي اللَّهِ لَا فِي النَّاسِ شَالَتْ	بَدَاوِدَ وَإِخْوَتَهُ الْجُدُوعُ
مَضَوْا قَتْلًا وَتَمْزِيقًا وَصَلْبًا	تَحَوُّمَ حَوْلِهِمْ طَيْرٌ وَقُوعُ
إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابِدُوهُ	فَيُسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفَ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا	وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سَجُودُ	أَنْيُنُ مِنْهُ تَنْفِرُ الضَّلُوعُ
وُخِرْسُ بِالنَّهَارِ لَطُولِ صَمْتٍ	عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خَشُوعُ
يَعَالُونَ النَّحِيبَ إِلَيْهِ شَوْقًا	وَإِنْ خَفَضُوا فَرِيَهُمْ سَمِيحُ (٢)

(١) انظر - على سبيل المثال - الكامل ١٦٣/٣ وما بعدها .

(٢) شعر الخوارج ص ٧٠ .

وبصور شاعر خارجي آخر حياة هذه الفئة التي يقطع أفرادها نهارهم
جهاداً في سبيل مبادئهم ، وليلهم قياماً للتقرب إلى ربهم
رافضين للدنيا وزخرفها ، طمعاً في الفوز بجنان النعيم التي هي هدفهم
الأول ، فيقول :

كَمْ مِنْ فَتَى نَجْدَةٍ لَا اللَّهُوتِيْمُهُ	ومن خطيبٍ لدينِ اللهِ وصافٍ
ليث النهار وقسَى الليل في ثِقَةٍ	للوهينِ في دينه والضميم عيافٍ
ماض إذا أحجم الأبطال أو نكلوا	عند النزول إلى الأفراد ولآف
لا هائبٌ يوم هيجاً من منازلِ	لنفسه في لهيبِ الحَرْبِ قذاف
في الروع ليس بطياشٍ ولا وكلٍ	نكسٍ وعن شُبُهاتِ اللبسِ وقافٍ
لَمْ أَلَقْ مِثْلَهُمْ فِي النَّاسِ أَهْلَ هُدًى	في طَولِ حُلٍّ وترحالٍ وتطُوافٍ
قومٌ شروا كَدَرَ الدنيا وباطِلَها	بمنزلٍ من جنانٍ شربه صافٍ
ما راقَهُمْ زُخْرُفُ الدُّنْيَا وبهجَتُها	ولا الترفلُ في خَزٍّ وأَفْوافٍ
وقد موا فَضْلَ دُنْيَاهُمْ لَا خُسْرَةَ	ثَوَابٌ مفروضُهُ أضعافُ أضعافٍ (١)

وتبكي مليكة الشيبانبة أخاها فتقول :

من لجاراتكِ الضعافِ إذا حُلَّ بها نازلٌ من الحدَثَانِ
من لضيفٍ يَنْتَابُ في ظُلْمَةِ الليلِ إذا قَلَّ مُنْزَلُ الضيفانِ
سَوْفَ أَبْكِي عَلَيْكَ مَا سَمِعْتُ أَذُنَايَ يَوْمًا تِلَاوَةَ الْفُرْقَانِ
أَيْنَ مَنْ يَحْفَظُ الْقِرَابَةَ والصَّبْرَ وَيُؤْتِي لِحَاجَةِ اللَّهْفَانِ
ويحوطُ المولى ويصطنعُ الخيرَ وَيَجْزِي الإحسانَ بالإحسانِ
ويكفُ الأذى ويبتذلُ المعروفَ سَمَحَ اليَدَيْنِ سَبْطَ الْبَنَانِ (٢)

(١) شعر الخواج ص ٢٨٥ .

(٢) نفسه ص ٢٣٨ .

وديان شعرهم حافل بالنماذج الشعرية التي تضيء عليهم هذه الصورة
المثالية . كقصيدة عمرو بن الحصين العنبري في رثاء أبي حمزة (١) ، وقصيدته
في وفاة قنيد (٢) ، ومقطوعة الطرماح بن حكيم في رثاء الشراة (٣) وما قالتها
مليكة الشيبانية (٤) ، وغيرها كثير .

وهي صورة تختلف عن مثيلاتها عند شعراء الأحزاب الأخرى . فهي
ليست مقصورة على زعمائهم، وإنما تمتد لتشمل كل فرد ينتمي إلى عقيدتهم ويجاهد
في سبيلها ، وليس الهدف منها تحسين صورتهم أمام الناس بل هو التعبير عن
عواطفهم الذاتية تجاه رفاقهم في النضال ، وتصوير مدى ألمهم لفقدانهم ، ولتحريض
أنفسهم على الاستمرار في ذلك الطريق للوصول إلى هدفهم الأسمى وهو تحقيق
العدالة أو الشهادة . . ومن هنا فقد غلب موضوع الرثاء على شعرهم الذي يصفون
من خلاله هذه الصورة المثالية على فئتهم . فالقيمة الفردية للخارجي هي فيما
يقدمه من تضحيات في سبيل مبادئه .

وفي شعرهم تتدفق حماسة قوية ، تختلف جذرياً عن حماسة الجاهليين
فليس دافعها الفروسية وإبراز الذات ، وإنما تنبع من شعور ديني عميق ،
ويتضح فيها إيمانهم القوي بالتضحية في سبيل عقيدتهم ، ويطؤها التحريض على
الجهاد والاستماتة فيه ، والحرص على الخروج منه بالنصر أو الشهادة . وهذه

(١) شعر الخوارج ص ٢٤٢ .

(٢) نفسه ص ٢٥١ .

(٣) نفسه ص ٢٦٥ .

(٤) نفسه ص ٢٣٨ وما بعدها .

الرغبة في الموت - الشهادة جاءت من واقع إيمانهم بالرؤية الإسلامية له ، والتي تصوره كأجل محقوم للإنسان، محدد بساعة لا يتقدم عنها ولا يتأخر .

فقطري بن الفجاءة يدعو نفسه في أحد المواقف القتالية إلى الصمود والإقدام ، ويهون عليها الموت الذي هو أجل محقوم لكل حي ، قائلاً :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقَاءَ يَوْمٍ على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصَبْرًا في مجالِ الموتِ صَبْرًا فما نيلُ الخلود بمُسْتَطَاعِ
ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عزٍّ فيطوى عن أخي الخنع المراعِ
سَبِيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حَيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعي^(١)

ويقول - أيضاً - في موقف مماثل معبراً عن زهده في الحياة ، ورغبته القوية في نيل الشهادة التي طال انتظاره لها :

حَتَّى مَتَى تُخْطِئَنِي الشَّهَادَةُ
والموتُ في أعناقنا قِلَادَةٌ
ليس القرارُ في الوغَى بَعَادَةٌ
ياربُّ زِدْنِي فِي التَّقَى عِبَادَةٌ
وفي الحياةِ بَعْدَهَا زَهَادَةٌ^(٢)

(١) شعر الخوارج ص ١٢٢ .

(٢) نفسه ص ١٢٩ .

ويقول البهلول بن بشر الشيباني :

من كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى مِنْتَهُهُ فَاَلْمَوْتُ أَشْهَى إِلَى قَلْبِي مِنَ الْعَسَلِ
فَلَا التَّقَدُّمُ فِي الْهَيْجَاءِ يُعْجِلُنِي وَلَا الْحِذَارُ يُنَجِّنِي مِنَ الْأَجَلِ (١)

وتمثل الجنة بما فيها من النعيم الذي أعدّه الله للشهداء ، حلماً يراود نفوس الخوارج ، ويدفعهم إلى الزهد في الحياة الدنيا بكل ما فيها من المغريات ، ويزيدهم حماساً للجهاد في سبيل عقيدتهم لنيل الشهادة التي تحقق لهم ذلك .

يقول أحد الخوارج مرتجزاً :

يَا نَفْسُ مِنْ طُولِ الْحَيَاةِ مَلَّيْ
وَعِيشِكَ الْمَنْقَطِيعِ الْمَوَلَّيْ
عَلَى الْقَى عَاصِمًا لِعَلَّيْ
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ وَظِلِّ
وَبَيْهَسًا وَكَهْمَسَ الْمُصَلِّي (٢)

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية :

مَا إِنْ نَبَأَ لِي إِذَا أَرْوَحْنَا خَرَجَتْ مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأَجْسَادٍ وَأَوْصَالِ
نَرْجُو الْجَنَانَ إِذَا صَارَتْ جَمَاعُصًا تَحْتَ الْعِجَاجِ كَمَثَلِ الْحَنْظَلِ الْبَالِي
إِنِّي أَمْرٌ بَاعِثِي رَبِّي لِمَوْعِدِهِ إِذَا الْقُلُوبُ هَوَتْ مِنْ خَوْفِ أَهْوَالِ
وَأَدَّتْ الْأَرْضُ مِنِّي مَثَلًا أَخَذَتْ وَفَرَّيْتُ لِحِسَابِ الْقِسْطِ أَعْمَالِي (٣)

(١) شعر الخوارج ص ٢١٩ .

(٢) نفسه ص ٢٢١ .

(٣) نفسه ص ٦٤ .

كما كانت النار كابوساً يقض مضاجعهم ، ويرون في جهادهم السبيل الوحيد
للنجاة من عذابها .

يقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاعَ لَهُ إنْ لمْ أَفْزُ فَوْزَةً تُنْجِي مِنَ النَّارِ
والنارُ لمْ يَنْجُ مِنْ رَوْعَاتِهَا أَحَدٌ إِلَّا الْمُنِيبُ بِقَلْبِ الْمُخْلِصِ الشَّارِي
أَوِ الَّذِي سَبَقَتْ مِنْ قَبْلِ مَوْلَدِهِ لَهُ السَّعَادَةُ مِنْ خَلْقِهَا الْبَارِي (١)

وقد اتسمت قصائد الخوارج الهجائية التي هاجموا فيها خصومهم من أمويين
وغيرهم بدرجة شديدة من الغلو، غلبهم عليها طابعهم البدوي الذي لا يعرف
الحل الوسط . فهم لم يتقنوا عند اتهامهم بالجور - الصورة النقيضة للعادل
الذي يدعيه الخصوم لأنفسهم - وإنما تجاوزوا ذلك إلى اتهامهم بالكفر ، والإلحاد
والضلال ، بل واتهموا بذلك كل من يخالفهم من عامة المسلمين .

ففي قصيدة لأبي بلال ، نراه يصور فيها مدى معاناته ومن معه من
الخوارج من مطاردة هبيد الله بن زياد لهم ، وإلحاحه في طلبهم ، معبراً
من خلالها عن رأي الخوارج في أعدائهم . وهذه القصيدة تبرز مدى تعلق
الخوارج بالله وإيمانهم به .

(١) شعر الخوارج ص ٢٦٣ .

يقول أبو بلال :

إِلَهِهِ هَبْ لِي زُلْفَةً وَوَسِيلَةً إِلَيْكَ فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُ مِنَ الدَّهْرِ
وَقَدْ أَظْهَرَ الْجَوْرَ الْوَلَاةُ وَأَجْمَعُوا عَلَى ظُلْمِ أَهْلِ الْحَقِّ بِالْغَدْرِ وَالْكَفْرِ
وَفِيكَ إِلَهِي إِنْ أَرَدْتَ مَغِيرَةً لِكُلِّ الَّذِي يَأْتِي إِلَيْنَا بِنُوصَخَرِ
فَقَدْ ضَيَّقُوا الدُّنْيَا عَلَيْنَا بِرَحْبِهَا وَقَدْ تَرَكُونَا لَا نَقْرُءُ مِنَ الذِّعْرِ
فِيَارِبَ لَا تَسْلَمْ وَلَا تَكُ لِلرَّدَى وَأَيْدُهُمْ يَارِبَ بِالنَّصْرِ وَالصَّبْرِ
وَيَسِّرْ لَنَا خَيْرًا وَلَا تَحْرِمْنَا لِقَاءَ ذَوِي الْإِلْحَادِ فِي عَدِيدِ دُثْرٍ (١)

ويقول سميرة بن الجعد :

فَمَنْ مَبْلَغُ الْحَجَّاجِ أَنْ سَمِيرَةً قَلَى كُلِّ دَيْنٍ غَيْرِ دَيْنِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إِلَّا مِنْ رَأْيٍ مِثْلَ رَأْيِهِ مَلَاعِينَ تَرَائِكِينَ قَصَدَ الْمَنَاهِجِ (٢)

أما هجاءهم فيما بينهم ، والذي لا يتعدى إطار اللوم والتأنيب . فهم يعتمدون فيه إلى الوعظ والتذكير بالمصير الذي يؤول إليه الإنسان ، في محاولة لإعادة من ينحرف عن منهجهم . وينخدع بالمظاهر الدنيوية الزائفة .

وهذا ما نلمسه في قصيدة قطري بن الفجاءة والتي كتب بها إلى أحد أصحابه - وهو سميرة بن الجعد - حين أصبح جليساً للحجاج .

(١) شعر الخوارج ص ٦٥ .

(٢) نفسه ص ١٣٦ .

يقول قطري :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا
نجالد فرسان المهلب كلنا
وراح ابن جعد الخير نحو أميره
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهي
ألم تر أن الموت لاشك نازل
حفاة عراة والثوب لربهم
فإن الذي قد نلت يفتني وإنما
فراجع أبا جعد ولا تك مغضبا
وتب توبة تهدي إليك شهادة
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمه
هي الغاية التصوى الرغيب ثوابها

إذا نحن رحناً في الحديد المظاهر
صبور على وقع السيوف البواتر
أمير يتقوى ربه غير آمر
وميراث آباء كرام العناصر
ولا بعث إلا اللألي في المقابر
فمن بين ذي ربح وآخر خاسر
حياتك في الدنيا كوقعة طائر
على ظلمة أعشت جميع النواظر
فإنك ذو ذنب ولست بكافر
تفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر
إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر (١)

وقد يمتد هذا اللوم والعتاب إلى ذات الشاعر ، عند فقد له لأصحابه وإحساسه
بخذلانه لهم ، فيعتمد إلى لوم نفسه على اغترارها بالحياة الدنيا ، وعدم
إقدامها على الموت في سبيل مبادئها .

يقول حبيب بن خدره يرثي رفاقه :

كائن كملحان فينا من أخي ثقة
من صاديق كنت أصفيه مخالصتي
أخوان صديق أرجيهم وأخذلهم
فصرت صاحب دنيا لست أملكها

أو كابن علقمة المستشهد الشاري
فباع داراً بأغلى صفقة الدار
أشكو إلى الله خذلاني لأنصاري
وصار صاحب جنات وأنهار (٢)

(١) شعر الخوارج ص ١٣٤

(٢) نفسه ص ٢٢٩ .

ويقول أحد الخوارج متحسراً :

وهم الأسود لدى العرين بسالةً ومن الخشوع كأنهم أحبارُ
يمضون قد كسروا الجفون إلى الوغى متبسمين وفيهم استبشارُ
فكأنما أعداؤهم أحبابهم فرحاً إذا خطر القنا الخطارُ
يردون حومات الحمام وإنهم تالله عند نفوسهم لصفارُ
ولقد مضوا وأنا الحبيب إليهم وهم لدي أحبة أبرارُ
قد رُيخلفني وبضيتهم به يا لهف كيف يفوتني المقدارُ (١)

وهكذا . . فقد كانت القصيدة السياسية في العصر الأموي تتحرك في إطار من الأفكار الإسلامية الجديدة باعتبارها تعالج موضوعاً ذا سمة دينية هو موضوع الخلافة التي وجدت في ظل الإسلام، والتي كانت العامل الأول والأهم في وجود قصيدة سياسية آنذاك . وهذه الأفكار وإن كانت تلتقي في كثير من الأحيان عند مختلف شعراء الأحزاب السياسية ، إلا أنها كانت أيضاً تختلف فيما بينها بسبب اختلاف الهدف لدى الشعراء .

فشعراء الأمويين باعتبارهم محترفين هدفهم الحصول على أكبر قدر من الحظوة والهيبة ، كانوا لا يترددون عن المبالغة في إضفاء الصفات الدينية على مدحهم دون أن يردهم عن ذلك منافاة الواقع لما يقولونه . على عكس شعراء الأحزاب السياسية الأخرى - وخاصة الخوارج - والذين كان تصويرهم الديني لرجال حزبهم يتسم بالواقعية الشديدة التي ترفض المبالغة ، بسبب إيمانهم بعقيدتهم الحزبية .

"" "" الفصل الثاني "" ""

(((*)) " الفـ _____ زل" (*)))

الغزل

الغزل غرض شعري محبوب إلى النفوس ، قريب منها ؛ لأنه يعبر عن عواطفها الذاتية تجاه الجنس الآخر . والبدايات الشعرية لأغلب الشعراء كثيراً ما تنطلق من هذا الغرض . والرصيد الشعري العربي في الغزل وفير . فهو يمثل جزءاً من التراث الذي أبدعه شعراء العصر الجاهلي . وإن كان الغزل عندهم لم يكن - في معظمه - غرضاً مقصوداً يحد ذاته في قصائدهم ، وإنما كان يجيء ضمن أغراض أخرى . فهو لا يعدو أن يكون مطلعاً للقائد ، أو أن يتخلل أبياتها . وقليل من النصوص تلك التي كان موضوعها الغزل وحده .

وغزل الجاهليين كان يقوم على التجريد الحسي للمرأة بتصوير مفاتنها ووصف مغامرات الشاعر للوصول إليها . وقد ينحدر فيه الشاعر إلى درجة متدنية من الفحش في تصويره لعلاقاته بالمرأة . وهو ما يلجسه الباحث في غزل امرئ القيس والأعشى على سبيل المثال .

غير أننا لا نعدم وجود نماذج عذرية في شعرهم ، كذلك التي نجدها في أشعار عنتر بن شداد ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر . وإن كانت العذرية لم تمثل لديهم ظاهرة ملموسة .

وقد أصاب شعر الغزل خفوت واضح في عصر صدر الإسلام ، كسائر الأغراض الأخرى التي لا تتماشى في طابعها مع قيم الإسلام ، ولا تحقق أهدافه السامية .

والقصائد الفزلية التي خلفتها لنا تلك الفترة هي في عمومها لا تختلف كثيراً عن الفزل الجاهلي في مضامينها الحسية . وقد تنحدر إلى درجة من الفحش عند شاعر كسحيم عبد بني الحسحاس الذي يقول في إحدى قصائده :

وَأَشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّ قَدْ رَأَيْتُهَا وَعَشْرِينَ مِنْهَا أَصْبَعاً مِنْ وِائِهَا (١)
وقد كان هذا الفحش سبباً في مقتله فيما بعد . (٢)

وقد كان للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقف صارم من الفزليين . حيث نهى الشعراء عن التشبيب بالنساء ، وهددهم بالجلد والتنكيل بهم (٣) . وقد دفع ذلك حميد بن ثور الهلالي إلى أن يلجأ للرمز لمعبر من خلاله عن عواطفه نحو المرأة ، فهو يرمز لها بالسرحة فيقول — من قصيدة له :

وَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّتُ نَفْسِي بِسَرْحَةٍ	من السَّحِ سَدُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ
حَتَّى ظَلَّمْتُهَا شَكْسُ الْخَلِيقَةِ خَائِفُ	عليها غَرَامُ الطَّائِفِينَ شَغِيمُ
فَلَا الظِّلُّ مِنْهَا بِالضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ	وَلَا الْفَيْءُ مِنْهَا بِالْعَشِيِّ تَذُوقُ
وَمَا وَجَدْتُ مُشْتَاقِي أَصِيبَ فَوَادٍ	أَخِي شَهَوَاتٍ بِالْعِنَاقِ نَسِيمُ
بِأَكْرَمٍ مِنْ وَجَدِي عَلَى ظِلِّ سَرْحَةٍ	من السَّحِ إِذْ أَضْحَى عَلَيَّ رَفِيمُ

(١) الديوان ص ٢١

(٢) الأغاني ٣٠٩/٢٢

(٣) نفسه ٣٥٦/٤ ، المتعص ٣١١ .

وَلَوْلَا وَصَالٌ مِنْ عَمِيرَةٍ لَمْ أَكُنْ لَا صَرِمَهَا إِنِّي إِذَنْ لَطَلِيْقُ
أَبَى اللَّهَ إِلَّا أَنْ سَرَحَهُ مَالِيكَ عَلَى كُلِّ أَفْسَانٍ الْعِضَاءِ تَرْوُقُ (١)
ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الجزء الأخير من هذه الفترة قد شهد شاعراً يعد
في طليعة المذريين وهو عروة بن حزام .

وقد عرف الغزل فترة زاهرة في تاريخه في ظل الدولة الأموية . حيث
ساعدت المتغيرات السياسية والاجتماعية آنذاك على انتشاره ، فكان من أبرز
الأغراض الشعرية في هذه الفترة من تاريخ الأدب العربي . وظهر عليه كثير
من ملامح التجديد . لعل أهمها أنه أصبح غرضاً بحد ذاته يشمل القصيدة كلها ،
بل إن هناك من الشعراء من قصر شعره على الغزل ، ولم يتجاوزوه إلى أغراض
أخرى سواء كمربعين أبي ربيعة ، والحرث بن خالد المخزومي ، وقيس بن
ذريح وغيرهم .

وقد سار الغزل الأموي في اتجاهين رئيسيين هما :

أولاً : الغزل المذري :

ينسب هذا اللون من الغزل إلى بني عذرة . وهي قبيلة كانت تسكن
شمالى الحجاز في وادى القرى ، فقد كثرت فيها ذلك حتى اشتهرت به .
فيروون أن رجلاً سئل : ممن أنت ؟ فأجاب بقوله : من قوم إذا أحبوا
ماتوا . فقالت جارية سمعته : " عذري ، ورب الكعبة " (٢)

(١) الديوان ص ٤٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٤٤١/١ .

غير أنه لم يكن محصوراً فيهم فقد شاع أيضاً في بوادي نجد .
والغزل العذري غزل عفيف نقي طاهر . يعتني فيه الشاعر بتصوير
خلجات وجدانه ، وبالتعبير عن شعوره بالألم والشكوى إزاء ما يعانيه من
الحرمان في حبه ، ويصكب - عبر أبياته - دموعه مزاراً في انتظار لحظة
يسعد بها قلبه برؤية محبوبته . وكل ذلك يتم بعيداً عن الحسية التي كانت
سائدة في الغزل الجاهلي .

والشاعر العذري يقتصر على امرأة واحدة يمنحها نهضات قلبه ، وعصارة
وجدانه ، دون أن يتعداها إلى سواها .
فكان كل شاعر من العذريين يرتبط اسمه بفتاته . فهناك قيس وليلى ،
وقيس وليلى ، وجميل وشينة ، وكثير وعزة .

دور الإسلام في نشأة الغزل العذري :

لقد كان البحث عن تفسير لنشأة هذه
الظاهرة الشعرية في العصر الأموي موضع اهتمام لدى الدارسين لهذا
اللون من الغزل العفيف . وقد طرحوا عدة تفسيرات لها استقوها من
قراءتهم لهذا الشعر ، ومن فهمهم لأوضاع العصر السياسية ، والاقتصادية ،
والاجتماعية . وجد يربنا أن نقف أمام هذه التفسيرات المختلفة في محاولة
للوصول إلى تفسير أكثر قبولاً واقناعاً .

أولاً : تفسير مقارن :

يرى الأستاذ لوي ماسينيون أن الحب العذري مقتبس من الحب الافلاطوني عند اليونان ومشتق منه . (١)

وهذا التفسير لا يمكن القبول به إطلاقاً لناقضته للواقع التاريخي . فالحب أو الفزل العذري نشأ في أواسط القرن الأول الهجري ، وهي فترة لم يكن فيها العرب قد اتصلوا بعلوم اليونان - ومنها الفلسفة - التي يرى ماسينيون أن الحب العذري مقتبس عنها - وما دام الأمر كذلك فكيف يمكن لهم أن يتأثروا بها ؟!

ويرى الدكتور أحمد الجواري انه " لو فرضنا أنهم عرفوا شيئاً من ذلك في ذلك العصر - وهذا فرض لا يجوز من الوجهة التاريخية - لكان من ظهور هذا الحب في البداية ونشأته فيها ما يجعلنا نستبعد مثل هذا الرأي ذلك لأن البداية يبعد أن تتأثر بالحياة العقلية التي تسود في الحواضر، ولا يتأتى لها أن تتابعها في مضار العلم والمعرفة بسهولة ويسر " (٢)

ثانياً : تفسير سياسي واقتصادي :

يقدم الدكتور طه حسين هذا التفسير فسي

(١) عن كتاب الحب العذري لأحمد الجواري ص ٤٥ .

(٢) نفسه ص ٤٥ .

كتابه حديث الأربعاء ويستنبط فيه * إن بلاد العرب - بعد أن تم الفتح للمسلمين - بعد أن جاهدت في الاحتفاظ بالسلطان السياسي وأخفقت في الجهاد إخفاقاً شنيعاً ، وانتقل مركز الحكم منها إلى الشام ، كما انتقل مركز المعارضة منها إلى العراق انصرفت أو كادت أن تنصرف عن الاشتراك في الحياة العامة ، وقرغت للحياة الخاصة ، فانكبت على نفسها وأحست شيئاً من اليأس والحزن غير قليل ، فهي كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التي أخضعت الأرض ، وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض ، ثم هي ترى نفسها جردت من كل شيء ، فانتقلت عاصمة الخلافة إلى الشام ، وانتقل جهاذ الأحزاب السياسية إلى العراق ، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب فعامطوها معاملة شديدة قاسية وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف . . . * (١)

ويشير بعد ذلك إليها تتمتع به أهل المدينة ومكة في ذلك الوقت من شراء كان دافعاً لهم - بالإضافة إلى ما أحسوا به من اليأس - إلى اللهو والغناء مما كان سبباً في نشأة الفزل الصريح ، ويذكر أن أهل البادية جمعوا بين اليأس والفقر ومنها نشأت الحركة العذرية فيقول : « كان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء - فلهوا كما يلهوا كل يائس - وكان أهل

البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام والقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص . وليس بالبدوي الخالص ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية . وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب ليهوهم الجاهلي ، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم فانكبوا عليها واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ولكنها نعمة زهد وتصوف (١)

وطه حسين يدرك دور الإسلام في نشأة الفزل العذري . غير أنه لا يعطيه تلك الأهمية التي أعطاها له غيره من الباحثين . فهو يرى أن هناك ما هو أهم ، ويقصد به الوضع السياسي والاقتصادي القائمين آنذاك ، والذي يرى أنهما كانا أكثر تأثيراً في بروز هذه الظاهرة .

وهو يبنى رأيه هذا على أمرين ، أما أولهما فهو انعدام الوجود السياسي للحجاز في العصر الأموي ما كان كقبلاً بجعل اليأس يستبد بأهله ، وهذا ما لا يمكن الجزم بصحته . فنحن نعلم أن المعارضة السياسية وجدت في الحجاز في هذا العصر ، وتمثلت في الحزب الزيري (٦٤ - ٧٣ هـ) الذي سيطر على الحجاز وكان أن يقضي على خلافة بني أمية ، حيث امتد نفوذه إلى العراق

ومصر بل وإلى الشام معقل الدولة الأموية ، حتى قضي عليه في عهد عبد الملك بن مروان . كما أن الأمويين كانوا طوال حكمهم ينظرون إلى الحجاز نظرة خاصة نتيجة احساسهم به كمصدر للمعارضة . ما جعلهم يصانعون أهله ويعاملونهم ترغيباً مرة ، وترهيباً مرة أخرى . هذا إذا علمنا أن مواطن الفضل العذري في بادية الحجاز ونجد لم تكن تملك سلطة سياسية في عصر صدر الإسلام فكيف تفتقد ها حينذاك .

أما الأمر الثاني الذي يبيني عليه تفسيره فهو كون أهل البادية فقراء . وهو يقصد بفقرهم - كما أشار إلى ذلك في موضع آخر من كتابه - (١) أنهم كانوا أقل حظاً من أهل المدينة ومكة الذين عاشوا في هذا العصر حياة ترف وبذخ . وطه حسين وهو يعصق هذا الرأي كأنه يغفل أو يتجاهل نظام المجتمعات ، فمن المعروف أن البادية كانت ولا زالت وستظل تحتفظ بقدر معين من الدخل نتيجة واقع معيشتها ، وهو وإن اعتبر منخفضاً بحسب المقياس الاقتصادي للمدن لكنه ليس كذلك بالنسبة لها . وإذا سلمنا بصحة ما يفترضه طه حسين ، فإنه ليس من اليسير على الباحث أن يوافق على أن الفقر واليأس يصرفان إلى التفكير بالمثل الأعلى وينتجان مثل هذا الحب الذي عبر عنه القوم في غزلهم العفيف ولعل الأولى بالفقير المحتاج أن يثور على المجتمع الذي حرمه ما أباح

(١) نفسه ص ٢٢٠ .

للاآخرين ، وأن يفكر في مخرج يلوذ به من فقره وحاجته ، وإذا قال قائل ان الثورة على المجتمع لجوره في توزيع الثروة لا تصدر إلا عن يدرك ذلك إدراكاً واضحاً وإدراك ذلك عند هؤلاء الأعراب بعيد . فالجواب على ذلك أن إدراك ذلك أيسر عليهم من إدراك المثل الأعلى في الحياة الخلقية إذ أن حاجة الجسم إلى الطعام والشراب والملبس أبلغ بلا ريب من حاجة الروح إلى المثل الأعلى * (١)

ثالثاً : تفسير ديني :

يطرح الدكتور شكري فيصل هذا التفسير في دراسته عن (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام) فيرى أن الغزل العذري * تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتخرج وتذهب مذهب التقى ، وتؤثر السلامة والعافية ، على المقامرة والمخاطرة ، وترى أن النفس أماراة بالسوء * إن النفس لأماراة بالسوء * وإن النار قد حفت بالشهوات على حد تعبير الحديث الشريف وأنه من الخير لها أن تصبر ... * (٢)

وهذا التفسير هو الذي ذهب إليه معظم الباحثين في هذا الموضوع .
فالدكتور محمد غنيمي هلال يعتقد أن العذرية « وليد مجتمع إسلامي عربي تمكنت منه العقيدة ، وهيمن عليه سلطان الخلق ، وسرت فيه روح الزهد فاستمد الحب فيه أصوله من الدين ومثله » * (٣)

(١) الحب العذري ص ٤٩

(٢) تطور الغزل ص ٢٨٠ .

(٣) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٤٢ .

ويؤكد د . شوقي ضيف ذلك حين يقول: " ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يطوى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل . . . " (١)

رابعاً : تفسير اجتماعي :

يرى د . عبد القادر القطان " من يتتبع قصص هؤلاء الشمرء - يعني العذريين - وأحوالهم يدرك أن فشلهم لا يعود إلى أسباب دينية وخلقية بقدر ما يرجع إلى عوامل ترتبط بتقاليد المجتمع العربي وقيمه حينذاك فيما يتصل بعلاقة الرجل والمرأة " (٢)

وبعد أن يتوقف أمام بعض هذه القصص التي تروىها المصادر القديمة يكمل قائلاً " . . نحن إذن أمام مجتمع شديد المحافظة تتحجب فيه المرأة عن الرجل وتلقي على وجهها برقعاً إذا لقيت رجلاً من غير أهلها " وكانت إذا ما جئت ليلي تبرقت " ، ويضطر فيه المحبون إلى أن يظهروا غير ما يبطنون ويبدوا والبغضاء لمن يحبون حتى يجنبوا أنفسهم عداة الأهل والناس " كلانا

(١) العصر الإسلامي ص ٣٥٩ .

(٢) في الشعر الإسلامي والأموي ص ٨٢ .

مظهر للناس بفضاً ، وكل عند صاحبه مكين * وهو مجتمع تجري حياة المحبين فيه على تقاليد خاصة مرعية ، فما ينبغي لمن يحب أن يذيع أمره بين الناس ولا أن يقول شعراً في صاحبه يشيع بينهم ، وإلا كان قد ألحق العار بصاحبه وأهلها وقبيلتها جميعاً ، وحق عليه أن يحرم منها إلى الأبد وأن يستباح دمه إذا هو تعرض لها بعد ذلك * (١)

ويستشهد لتأكيد تفسيره بما يطالعه القارئ في أشعارهم من حديث عن الرقباء والواشين المولكين بتعقب هؤلاء المحبين .

والدكتور القط يحاول هنا تفسير الفشل الذي يعاني منه العذريون . وليس تفسير ظاهرة الفزل العذري عامة . وفرق بين الاثنين . فقد تكون التقاليد الاجتماعية - التي أشار إليها - سبباً فيما يشمر به الشعراء من الإحباط والحرمان ، إلا أنها ليست هي التي دفعتهم إلى الأسلوب العفيف في التعبير عن عواطفهم تجاه المرأة ، وابتعادهم عن الحسية التي كانت طابع الفزل الجاهلي . فهذه التقاليد وإن لم نقل أنها وجدت في ظل الإسلام - فإنها لم تستطع في الجاهلية أن توجد ظاهرة عذرية مثل هذه التي وجدت في منتصف القرن الأول الهجري .

هذا مع عدم اتفاق مع د . القط في استفادته من القصص التي تدور حول العذريين في تفسيره . حيث تدور حولها كثير من الشكوك التي تجعلها

عدية النفع (١).

خامساً : تفسير حضاري :

وهو تفسير آخر للدكتور عبد القادر القط الذي يرى
" أن من يتأمل الشعر المذري يجد كثيراً من وجوه الشبه بينه وبين شعر الحركة
الرومانسية الأوروبية والشعر الرومانسي العربي الحديث فهناك تلك العواطف
الحادة ، والأحاسيس المرهقة ، والذاتية والاستبطان والميل إلى الحزن
والاستسكان بمثل عليا في الأخلاق ، وبخاصة ما يتصل منه بالحرية والحق
والعدل كما ان كثيراً من السمات الفنية المشتركة تجمع بين هذه الحركات
الثلاث على اختلاف في الطبيعة والدرجة " (٢)

وبعد أن يتطرق للظروف التي نشأت في ظلها الحركتان : الرومانسية
الأوروبية، والعربية . حيث حدثتا بعد انقلابين حضاريين هما الثورة الصناعية
في أوروبا ، والنهضة العربية . اللتان غيرتا كثيراً من المفاهيم الاجتماعية ،
وأقامتا قيماً خلقية جديدة انعكست بدورها على الشعراء، يرى الدكتور " أن
هذا التغير الجسيم الذي أحدثته الثورة الصناعية في أوروبا أو النهضة الحضارية
في الوطن العربي ، لا يمكن أن يقاس إلى ما أحدثه الإسلام من انقلاب هائل

(١) انظر على سبيل المثال ما يقوله طه حسين في حديث الأربعاء ١٧٦/١ وما بعدها .

(٢) في الشعر الاسلامي والأموي ص ١٠٤ .

مفاجيء في حياة العرب . ولعلنا نستطيع أن ندرك جسامه هذا الانقلاب إذا تخيلناه في صورته الحية خارج إطار التاريخ السجل الذي لم يكن يضم - في الأغلب - إلا الأحداث والوقائع التاريخية الكبرى . ولنا أن نتصور الإنسان العربي الذي عاش حياته التقليدية في الجزيرة العربية متصلاً بأسباب قوية أو ضعيفة بما جاورها من بلاد ، وقد وجد نفسه فجأة محارباً في سبيل عقيدة دينية جديدة غيرت كثيراً من قيمه الروحية والخلقية والاجتماعية، ثم خائضاً في أحداث سياسية وفتن و " حروب أهلية " حول نظام الحكم والاقتصاد والعصبيات القبلية القديمة ، ثم مهاجراً ومستقراً في تلك الأقطار التي دفعته إليها الفتوح الإسلامية ومواجهاً لأنماط من المعيشة والسلوك الحضاري والتراث الفكري غير تلك الأنماط التي ألفها في موطنه القديم . لنا أن نتصور هذا الإنسان وقد واجه ذلك الانقلاب المفاجيء الشامل في حياته ، فنذكر إلى أي مدى كان يعيش في أزمة نفسية عنيفة متذبذباً بين القديم والجديد ، مقللاً حيناً على ترف الحضارة واستقرارها ومشهدوداً حيناً إلى ذلك التراث النفسي المترسب في أعماق وجدانه وإلى تلك القيم الأخلاقية والاجتماعية التي أصبحت من صميم كيانه .

وليس من الشطط أو التعسف في التأويل إذن أن نلتصم فيما كان ينشئ هذا الإنسان من أدب رموزاً وراء تعبيره المباشر تشير إلى ذلك الصراع النفسي الذي لعل ذلك الإنسان لم يدرك كنهه على وجه التحديد فتسرب - بقصد أحياناً - وبغير قصد في كثير من الأحيان - إلى إدراكه وتصويره لتلك

التجارب العاطفية . وطبيعي أن يكون الشعور بالفربة أو الحنين أو الفقد من الرموز الصالحة للتعبير عن ذلك الصراع من خلال تجربة الحب العذري " (١) هذا هو مجمل التفسير الذي أورده د . القط ، وهو تفسير يفتقر إلى الإقناع . فلا مجال للمقارنة بين الحضارة التي أصابت المجتمع العربي في العصر الأموي وبين الثورة الصناعية فبينهما بون شاسع . فالقيم الروحية ظل لها دورها في العصر الأموي ، ولم تتضاءل ، أو تختف كما هو الوضع في أوربا عقب الثورة الصناعية .

ثم إننا نعلم أن الفزل العذري نشأ في بادية الحجاز ونجد اللتسين ظلتا متمسكتين بطابعهما البدوي القديم بعيداً عن التأثير بمعطيات الحضارة المترفة . ولو كان الأمر كما تصوره القط تذبذباً نفسياً بين القديم والجديد فإن المدينة المنورة التي عاشت قبل العصر الأموي في جو مشبع بالروحية في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ثم عاشت انقلاباً حضارياً مذهلاً نتيجة للترف الذي أصاب حياتها في هذا العصر هي الموطن الرئيسي للفزل العذري، وهذا ما لا يتفق مع الواقع .

ولو أننا فرضنا صحة ما يقوله د . القط . فإن ذلك يبعث على التساؤل عن السبب في عدم ظهور الفزل العذري في العصر العباسي بهذه الدرجة

الكبيرة التي رأيناها في العصر الأموي . ونحن نعلم أن الحضارة العربية قد بلغت أوجها في العصر العباسي بشكل لا يمكن مقارنته قطعياً بفترة سابقة أو لاحقة . إذن فإن التفسير الحضاري ليس هو التفسير المطلوب لهذه الظاهرة .

ويمد . . فهذه هي مجمل التفسيرات التي طرحها الباحثون فسي محاولتهم تحليل ظاهرة الغزل العذري ، ومناقشتنا لها .

وأجدني أميل إلى القول بأن عامل الدين كان خلف هذه الظاهرة ، وليس هذا نابعاً مني فقط عن عاطفة دينية محضة ، وإنما جاء عن تصور تام للمواقع التاريخي الذي عاصر نشأتها بجميع ظروفه السياسية والاجتماعية .

إن العذريين - في حقيقتهم - شعراء نشأوا في ظل الإسلام ، وتربوا على قيمه وتعاليمه التي امتزجت مع نفوسهم ، واعتملت فيها . فجاء غزلهم عن إدراك لتلك القيم والتعاليم واستجابة لها .

فالإسلام نظم العلاقة الجنسية بين المرأة والرجل ، ولم يسمح بها إلا في إطارها الصحيح الذي يكفل لها دورها في الحياة الإنسانية كوسيلة لحفظ الجنس البشري . وذلك من خلال الزواج الذي لم يمد في تصور الإسلام مجرد علاقة جنسية ، وإنما أصبح أسس من ذلك بكثير . فهو علاقة مودة

ورحمة أيضا . قال تعالى " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (١).

وحرم الإسلام الزنا " ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا " (٢)
وجعل له العقوبات الشرعية الرادعة لكل من تسول له نفسه إتيانه " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " (٣)

ودعا المسلمين إلى الاستعفاف عند عجزهم عن القدرة على الوصول إلى المرأة عبر وسيلة النكاح الشرعي " وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله " (٤)

وطرح لهم القرآن الكريم أنموذجا للرجل المؤمن العفيف الذي ينتصر على شهواته على الرغم من أساليب الاغراء التي تدعوه للاستسلام لها . وتمثل ذلك في يوسف عليه السلام ، الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فأبى الإذعان لها إيمانا بربه " قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون " (٥)

(١) الروم ٢١ .

(٢) الاسراء ٣٢ .

(٣) النور ٢ .

(٤) النور ٣٣ .

(٥) يوسف ٢٣ .

وقد انغرس هذه القيم والتعاليم الإسلامية في أعماق الشعراء المذريين، وانعكست على غزلهم الذي جاء عفيفاً بمنع عن نفوس مؤمنة نقية استعملت على أهوائها، ولم تستسلم لشهواتها، إذ عاناً لا وأمر الله . ساعدها على ذلك حياتها في بيئتها البدوية التي تتسم باحتفاظها بالتقاليد التوارثية، وحرصها على عدم التهاون فيها .

أثر الإسلام في الغزل المذري :

كان الغزل المذري - كما تبين - نتاج

تأثير الإسلام على النفس العربية الشاعرة العاشقة . التي تقبلت ما جاء به هذا الدين من تعاليم وقيم فظهر ذلك على غزلها ولهذا جاء عفيفاً ، ملتزماً، يعبر عن عواطفها أفضل تعبير، بعيداً عن الحسية التي كانت تسود شعر الغزل قبل الإسلام .

وما دام الغزل المذري وليداً إسلامياً عرفه المجتمع العربي بعد ظهور الإسلام. فقد كان طبيعياً أن يستلهم الشعراء قيم الإسلام وتعاليمه من واقع نشأتهم، ولهذا ضمنوا قصائدهم المعاني الدينية التي جاء بها هذا الدين، والتي ظهرت في جميع الأغراض الشعرية ، وأصبحت علامة بارزة ، وسمة ظاهرة نلمسها عند شعراء العصر الأموي على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم . وأول ما يلمسه الدارس في غزل المذريين هو فكرة القضاء والقدر ، وهي أصل من أصول

الإيمان ردها العذريون ، ولعلمهم وجدوا فيها شيئاً من العزاء الروحي
لهم في مقابل ما يلاقونه من الحب والآلمة .

فهذا قيس بن زريح يبكي لبنى بعد طلاقه إياها ، ويقرر بأن ذلك
ليس إلا قضاء قضاء الله فلا بد من نفاذه ، وعلى النفس أن تخضع لحكمة
خالقها ، قائلاً :

تَبَكَّى عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْتَ كَأَنَّ غَيْهَ وَهُوَ طَائِعُ
فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِي نَدَامَةً إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدَيْكَ النَّوَانُ
فَلَيْسَ لَأَمْرِ حَاوِلِ اللَّهِ جَمْعُهُ مُشْتًى وَلَا مَا فَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ (١)

ويقول - أيضاً - في القصيدة ذاتها :

أَبَى اللَّهُ أَنْ يَلْقَى الرِّشَادَ مُتَمِّمٌ أَلَا كُلَّ أَرْحَمَ لَا بُدَّ وَاقِعُ (٢)

وهذه النغمة المؤلمة نجدها عند قيس بن الملوح الذي يؤكد رضاه بمشيئة
الله على الرغم من إقباله على الهلاك بسبب معاناته في الحب قائلاً :

أَيْنَ أَجَلَ هَذَا الْحَبِّ صُرْتُ كَمَا أَرَى ؟ فَقُلْتُ نَعَمْ وَالْحَبِّ مُرُّ الْمَذَائِقِ
سَأَفْضِي إِلَى سُبُلِ الْهَلَاكِ وَإِنِّي لِمَحْتَسِبٍ رَاضٍ مَشِئَةً خَالِقِي (٣)

(١) قيس ولبنى شعر ودراسة ١٠٣ .

(٢) نفسه ص ١٠٧ .

(٣) الديوان ص ٢١١ .

والحب - ذاته - كما يرى جميل بن معمر قضاء قضاء الله ، وهو بذلك يرد على من يلومه على انغماسه في الحب رغم عجزه عن تحقيق أمانيه .
يقول جميل :

لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه في نصيحتي رُشدي
فقال أفقٌ حتى متى أنت هائمٌ ببثنةٍ فيها لا تُعيد ولا تُبدي
فقلتُ له فيها قضَى الله ما ترى عليّ وهل فيما قضَى الله من ردٍّ
فإن يك رُشداً حبها أو غوايةً فقد جثته ما كان مني على عمدٍ (١)
والإيمان بقضاء الله يقتضى الصبر على المصائب خضوعاً للمشئة الإلهية ، وهذا ما يدعو المجنون نفسه إليه حين يقول :
أبى الله أن تبقى لحى بشاشةٍ فصبراً على ما شاءه الله لى صبراً (٢)
وفى قوله أيضاً :

فوالله ما أهلكى على يومٍ مميتي ولكنني من وشك بينك أجزعٌ
فصبراً لأمر الله إن حان يومنا فليس لأمر حمّة الله مدفعٌ (٣)

والاسترجاع من طبيعة الإنسان المؤمن عند حلول المصائب به . وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى " وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " (٤)

(١) الديوان ص ٧٤

(٢) الديوان ص ١٧١ .

(٣) الديوان ص ١٨٩ .

(٤) البقرة ١٥٥ ، ١٥٦ .

وقيس بن ذريح يمثل لهذا المفهوم الديني حين يقول وقد برح به الشوق إلى
لبنى بحد أن أجبر على هجرها :

وأهجركم هجرَ البغيضِ وحُبكم على كيدي منه كُومٌ صَوَادِع

فواكدي من شدة الشوق والأسى وواكدي إني إلى الله راجع (١)

ورغم ما يعبر عنه العذريون في غزلهم من شعور باليأس ، فإن الدارس قد
يلمس لديهم أملاً كبيراً نابعاً من إيمانهم العميق بالله .

يقول قيس بن الملوح :

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ بَعْدَ مَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا (٢)

وقد صور شعراء الغزل العذري لقاءاتهم بمحباتهم التي تتم بعيداً عن
أعين الرقباء بالعفة ، وأنها كانت بعيدة كل البعد عن كل ما تنكره تعاليم
الإسلام ومثله العليا .

فهذا جميل بن ميمر يصور لقاءه ببشينة في إحدى الليالي وافتراقهما عند الفجر
دون أن يرتكبا ما يخالف الدين ، فيقول :

وكان التفرقُ عند الصبـاحِ عن مثل رائحة العنـسـيرِ

خليلان لم يقرَّبا ربيـةً ولم يستخفا إلى مُنكسر (٣)

(١) قيس ولبنى شعر ودراسة ١٠٥ .

(٢) الديوان ص ٢٩٣ .

(٣) الديوان ص ١٠٦ .

ويقول قيس بن الملوح معبراً عن نفس المعنى :

ووالله ما أحببتُ حُبَّكَ فاعلمِني
لقد أكثر اللوامُ فيك ملامِني
وقد أرسلت ليلي اليَّ رسولها
فجئتُ على خوفٍ وكنت معوذاً
فبتُ واثتُ لم نهمَّ بريئةً
ولم نجتُرْ يا صاحٍ واللهمَّ حرماً (١)

ويؤكد جميل بن معمر عفة حبه لبشينة . فهو لا يقع تحت طائلة الحدود الإسلامية،
إلا إن كان الحب ذاته يستوجب الحد .

يقول جميل :

ومن كان في حُبِّي بشينة يمتري
لئن كان في حُبِّ الحبيب حبيبه

ويقول جميل - أيضاً - :

لا والذي تسجدُ الجباهُ له
ولا يفيها ولا هممتُ به

مالي بهادُونُ ثوبها خبيرُ
ما كان إلا الحديثُ والنظرُ (٢)

(١) الديوان ص ٢٥٩ .

(٢) الديوان ص ٦٧ .

(٣) الديوان ص ٨٩ .

والعفة التي يعبر عنها العذريون هي جهاد النفس الذي يشير إليه جميل وقد لامه الناس على انشغاله بالحب عن الجهاد في سبيل الله ، وذلك حين يقول :

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيى إذا فارقتها فيمـود
يقولون جاهد يا جميل بفـزوة وأي جهاد غيرهن أريد (١)
واتباع تعاليم الإسلام التي تدعو إلى العفة وغض البصر هي التي دفعت جميل بن
صعمر - ذاته - إلى التساؤل وقد برح به الشوق إلى رؤية بثينة ، قائلاً :
خليلي هل في نظرة بعد توبة أدأوي بها قلبي علي فـجور
إلى رجح الأكفـال هيف خـصورها عذاب الثنايا ريقهن طهور (٢)
وفي الشعر العذري تظهر صلة شعرائه القوية بالله ، فهم يكثر من الالتجاء
والفزع إليه بالدعاء إذا برح بهم الوجد ، وأضناهم الشوق في صورة رائعة
تمثل حرارة الإيمان بالله في قلوبهم .

إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن حرق تعتادني وزفير (٣)
إلى الله أشكونية شقت العصا هي اليوم شتى وهي أس جميع (٤)
ولما رأيت الصدد منها ولم تكن ترق لشكواني شكوت إلى ربي (٥)

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) الديوان ص ٩٣ .

(٣) قيس وليبنى شعر ودراسة ص ٩٧ .

(٤) ديوان مجنون ليلى ص ١٩١ .

(٥) نفسه ص ٧٦ .

- فما أسفا حتّام قلبي معذبٌ
إلى الله أشكو صبوتي بعد كرمتي
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
يا ربّ إنك ذو منٍّ ومغفرةٍ
إلى الله أشكو طولَ هذي الشدائدِ (١)
ونيرانُ شوقي ما بهنّ فتُـسـورُ (٢)
بليلي فغي قلبي جوىً وحريقُ
بيتٌ بعافيةٍ ليلَ المحبينَا
الذاكرين الهوى من بعد ما رقدوا
إلى الله أشكوا إلى الناس حبيها
فياربّ حبيبي إلهي وأعطني المودةَ منها أنت تُعطي وتمنع
ولا فصبرني وإن كنتُ كارهًا
فإنّي بها ياذ المعارج مولع (٦)

وقد كان التغني بالمفاتن الحسية للمرأة هو السمة البارزة على غزل العصر الجاهلي، ولقد تضاعف ذلك في الغزل الأموي - والعذري منه خاصة - فكانت عناينة الشعراء تنصب في تصوير أحاسيسهم الوجدانية دون اهتمام بالحديث عن مفاتن المرأة . وهذا ما يتضح من خلال استعراض ديوان جميل بن معمر - أشهر العذريين - فالشاعر لا يتناول المرأة من خلال تصويرها الحسي إلا في تسعة وخمسين بيتاً ، وهي نسبة ضئيلة جداً قياساً بعدد أبياته الغزلية التي تتجاوز ١٠٣٩ بيتاً تقريباً . علماً بأن جزءاً منها يزاج فيه الشاعر بين الوصف الحسي

(١) نفسه ص ١١٠

(٢) نفسه ص ١٣٧

(٣) نفسه ص ٢٠٩

(٤) نفسه ص ٢٨٣

(٥) ديوان جميل ص ١١٨ .

(٦) نفسه ص ١١٩

والمعنوي . فالصورة الحسية لا تمثل عنده - وعند غيره من العذريين - إلا ومضات خاطفة غير مقصودة . وما لاشك فيه أن للإسلام دوره في حدوث هذا التغيير الفكري نظراً لرفعه من شأن المرأة ، ما غير بالتالي النظرة إليها . وفي إحدى قصائد جميل بثينة نراه يعتمد صلاح الدين إلى جانب الأوصاف الحسية والإشادة بالأحساب، فيقول :

وعالَيْنَ رَقْمًا فَوْقَ كُلِّ عِذَائِفٍ إِذَا حُتَّ رَخْوُ الْأُخْدِ عَيْنَ ذُقُونِ
كَأَنَّ الْخُدُورَ أُولِجَتْ فِي ظِلَالِهَا طِبَاءُ الْمَلَا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُونِ
إِلَى رُجَحِ الْأَعْجَازِ حُورٍ نَمَسَى بِهَا مَعَ الْعِثْقِ وَالْأَحْسَابِ صَالِحِ دِينِ (١)
وكثيراً ما يعاني العشاق من صدود محبوباتهم وهجرهن لهم ، فلا يترددون حينئذ عن التوسل إليهن في محاولة للحد من هجرهن لهم . غير أن العذريين يعتمدون إلى وسيلة جديدة مستقاة من المفاهيم الإسلامية . فهم يدعونهن إلى تقوى الله فيهم بالكف عن الصدود ، وهو أمر يقتضى منهن وهن مسلمات الاستجابة لهن .

يقول جميل بن معمر مخاطباً بثينة :

أَلَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِيمَنْ قَتَلْتِهِ فَأَمْسَى إِلَيْكُمْ خَاشِعًا يَتَضَرَّعُ

.....

أَلَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي قَتْلِ عَاشِقٍ لَهُ كَبْدٌ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطُّعُ (٢)

(١) الديوان ص ٢٠٧ .

(٢) الديوان ص ١١٩ .

ويقول كثير عزة :

تقى الله فيه أم عمرو ونولسي مودته لا يطلبك طالب (١)

والقتل تعبير يلجأ إليه الغزلون لتصوير مدى معاناتهم من صدور محباتهم، فهو يفضي بهم إلى الموت . ولأن الاسلام حرم قتل النفس بغير حق، فقد لجأ شعراء الغزل العذري إلى استخدام هذا المعنى الديني في غزلهم، لكسر حاجز الصدود من جانب حبيباتهم .

يقول يزيد بن الطثرية محذراً حبيبته من حمل دمه يوم الحساب :

سلي هل أحلَّ الله من قتل مسلم بغير دم أم هل علي قتيل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة فحمل دمي يوم الحساب ثقيل (٢)

ويقول جميل :

فلا تقتليني يا بشين ولم أصب من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلي (٣)

ويصور جميل بن معمر مدى تمكن حب بثينة منه ، ومعاناته من ذلك . فهو يكي في صلاته عند ذكرها ، فيقول :

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل ما يكتب الملكان (٤)

وتمنى جميل أن يقضى الله له لقاء بثينة ، ويتعهد بشكر الله على ذلك ، فيقول :

فليت إلهي قد قضى ذاك مرة فيعلم ربي عند ذلك ما شكري (٥)

(١) الديوان ص ١٥٤

(٢) الديوان ص ٩٨ .

(٣) الديوان ص ١٧٣ .

(٤) الديوان ص ٢٠٣

(٥) الديوان ص ١٠٣ .

ويعاهد بشينة بحفظ سرها حتى يلقي الله فيقول :

أَمُوتْ وَأَلْقَى اللَّهُ يَا بَشْنُ لَمْ أَهْجُ بِسْرُكِ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرٌ (١)

وتمثل الصورة الفنية قيمة كبرى في فن الشعر لقدرتها على تحويل المعاني المجردة إلى صور محسوسة ، وإعطائها للأشياء المحسوسة بعداً جديداً يعبر عن إحساس الشاعر تجاهها . ويرى أحد النقاد المحدثين أن الصورة ليست إحدى دعائم الشعر فحسب وإنما هي " جوهر الشعر ، وهي روحه وجسده " (٢)

والشعر العذري حافل بالصور الفنية التي عبر العذريون من خلالها عن تجاربهم العاطفية . وهم يستمدونها - أحياناً - من ثقافتهم الإسلامية ، إما من القرآن الكريم ، أو من واقع الحياة الإسلامية .

فالمجننون يصور تجدد نيران الهوى واستمرارها في قلوب العاشقين رغم احتراقهم بها ، فيلتقط للتعبير عن ذلك صورة محسوسة استمدتها من تصوير القرآن لأهل النار وتجدد جلودهم كلما نضجت ، والتي وردت في قوله تعالى :
 " إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا . . . " (٣)

يقول المجنون :

وَجَدْتُ الْحُبَّ نِيرَانًا تَلْظَى	قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا وَقُودُ
فَلَوْ كَانَتْ إِذَا احْتَرَقَتْ تَغَانَتْ	وَلَكِنْ كُلَّمَا احْتَرَقَتْ تَعُودُ
كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ نَضَجَتْ جُلُودُ	أُعِيدَتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ (٤)

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) في النقد الحديث ص ٢٦ .

(٣) النساء ٥٦ .

(٤) الديوان ص ١٠٤ .

ويعبر قيس بن ذريح عن تفضيله للبنى على جميع الناس، فيقتبس لذلك صورة

قرآنية وردت في قوله تعالى " ليلة القدر خير من ألف شهر " (١) فيقول :

لقد فضلت لُبْنَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فَضَّلْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ (٢)

وإذا كان الفوز بالجنة هو منتهى أمل كل مسلم وسلمة في الحياة الآخرة ، فإن

بغية يزيد بن الطثيرة ومطمح آماله هو في لقاء محبوبته، فهي جنته في الدنيا

التي يطمع في الوصول إليها ، فهو يقول :

فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَيَا مُنْتَهَى الْمُنَى وَيَا نُورَ عَيْنِي هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلُ (٣)

ويصور المجنون لهفته الشديدة للقاء ليلى وتمنيته نفسه بذلك ، فيقتبس للتعبير

عن ذلك صورة من واقع حياته الإسلامية التي يعيشها . وهي صورة الشَّامِ الذي

أجده الظمأ فهو يتمنى الماء البارد لإروائه ، قائلاً :

أَظَلُّ أُنَيِّ النَّفْسِ إِيَّاكَ خَالِيًا كَمَا يَتَمَنَّى بَارِدَ الْمَاءِ صَائِمٌ (٤)

وهكذا يتجلى الإسلام في شعر العذريين لا من خلال كونه دافعهم إلى

العفة ، وإنما كذلك عبر تعبيرهم عن بعض مضامينه كإيمانهم بالقضاء والقدر ،

ودعوة أنفسهم إلى الصبر على ما قضاه الله ، ولجوءهم إلى خالقهم عند نزول

المصائب بهم ، وفي استلhamهم لبعض الصور الفنية من القرآن الكريم ، أو

من واقع حياتهم الإسلامية .

(١) القدر ٣

(٢) قيس ولبنى شعر ودراسة ٩٢

(٣) الديوان ص ٩٢ .

(٤) الديوان ص ٢٣٧ وهو منسوب إليه .

ثانياً : الغزل الصريح :

يعتمد الغزل الصريح على تصوير علاقة الرجل بالمرأة تصويراً يفلب عليه طابع الحسية ، حيث يتحدث شعراؤه عن ركضهم خلف النساء بحثاً عن السعة الوقتية ، فهم يتغزلون بالنساء المتزوجات ، والحاجات ، والزائرات - وأحياناً الإماء - . وهم لا يكتفون بامرأة واحدة يمنحونها عواطفهم - كما يفعل العذريون - وإنما يتنقلون بين أكثر من امرأة بحثاً عن تجربة جديدة .

وقد يعجب الدارس من انتشار هذا اللون الغزلي في الحجاز ، على الرغم مما يمثله من مكانة دينية ، ففيه مهبط الوحي ومبعث الرسالة . والواقع أن المرحلة الحضارية التي عاشها الحجاز في العصر الأموي كانت هي السبب في ذلك ، حيث غلب على الحياة الاجتماعية طابع الترف الذي أوجدته الثروات الطائلة التي تمتعت بها الأجيال الجديدة من الشباب الحجازي ، والتي جاء تهيم عبر قنوات مختلفة ، إما ما خلفه لهم آباؤهم ، أو من عطايا الدولة الأموية التي كانت تجد في إغداق الأموال عليهم وسيلة لإلهائهم عن التوجه السياسي الذي قد يدفعهم للتفكير بالخروج عليها كما فعل عبدالله بن الزبير . وتحت وطأة الفراغ الذي خلقه هذا الثراء في حياة هذه الأجيال الجديدة ، وما أنسه لم يكن لها من قوة الإيمان والعزيمة ما كان لآبائها ، فقد بحثت عن كل وسيلة تحقق لها المتعة التي تقضي بها على ما تحسه من فراغ ، فمالت إلى اللهو

والفناء ، ومطاردة النساء . فجاء الغزل الصريح تعبيراً عن نفسيتهما اللاهية . حيث وصف شعراؤها كل ما في هذه الحياة من ترف ولهو وغناء . ساعدهم على ذلك عدم اهتمام العلطة الأموية بتتبع الغزلين كما كان يفعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب . إذ انشغلت بما هو أهم بالنسبة إليها وهو تعقيب معارضيهما ، حيث لا يهمها هذا الشباب اللاهية ما دام بعيداً عن الساس بنظام حكمها . ولا يستثنى من ذلك إلا ما يروى عن عمر بن عبد العزيز حينما نفى الأحموس إلى قرية من قرى اليمن . (١) وهو أمر يعود إلى شخصية عمر المتفردة بين الأمويين بالتزامها الديني (٢) .

وما لاشك فيه أن موجة الفناء التي انتشرت في المدن الحجازية في ظل واقع الترف الذي تعيشه ، والذي ساهمت فيها العناصر الأجنبية بدور فعال بحثاً عن مكانة لها في هذا المجتمع ، ساهت بدور كبير في شيوع الغزل وانتشاره ؛ لكونه الموضوع الأول المحبب عند المغنين . فليس من الطبيعي أن يتفغنوا بالمديح أو الفخر أو الهجاء في جو يسوده المرح ، وبين أناس يبحثون عن المتعة . وهو أمر نشاهده في واقعنا المعاصر ، فالغزل وما فيه من حديث عن أوصاف المرأة هو الموضوع السائد في الفناء ، أما القصائد الدينية أو الوطنية أو الوصفية فهي تمثل نسبة ضئيلة جداً . ولما كان الشعر الغزلي

(١) الأغاني ٦٤/٩ .

(٢) حول نفي عمر بن عبد العزيز للأحموس انظر كتاب الأحموس بن محمد الأنصاري حياته وشعره) للمحمد علي سعد ص ١٦٨ وما بعدها .

الذي خلفه العصر الجاهلي أقل من حاجة المغنين ، وجزء كبير منه كانوا يعنون فيه " بيبكا " الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قوسها " (١) وهو مالا يستقيم مع طبيعة أهل المدن المستقرين . ولما كان المغني دائماً بحاجة إلى التجديد في أغانيه بين فترة وفترة ، فقد كان ذلك يستوجب أن يجد بين يديه شعراً جديداً يغنيه . وهذا ما كان يحققه له الشعراء الغزليون من أمثال عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، والعرجي . وهذا ما يمكن أن تؤكد تلك العلاقة الوطيدة التي كانت تربط بين المغنين والشعراء (٢) كما أنه يفسر تلك السهولة التي اتسمت بها أبيات الغزل الجديد .

ولعل مسمى الغزل الصريح الذي يطلق على هذا اللون الشعري يجعل السامع يعتقد بأنه مفرق في الحسية والتي تتنافى كلياً مع تعاليم الإسلام وقيمه التي تدعو إلى العفة ، وتجعله يقف على حد المساواة مع ذلك الغزل الفاحش الذي نجده عند شعراء الجاهلية . وهذا مالا يستقيم إلى الحقيقة بصلة . فهذا الغزل وإن كان في غالبه غير ملتزم ، فإن الدارس لدواوين شعرائه كعمر بن أبي ربيعة ، والأحوص - على سبيل المثال - لا يعدم أن يجد بعض القصائد الشعرية التي تنم عن روح عذرية تظاهي ما قاله المذريون أنفسهم . كما ترددت في قصائدهم بعض العناصر الدينية التي لا تختلف

(١) الشعر والفناء في المدينة ومكة ص ٨١ .

(٢) انظر في علاقة ابن سريج بعمر بن أبي ربيعة الأغاني ٢٥٨/١ وفي علاقته بالأحوص نفس المصدر ٢٩٥/١ .

عما لسناء لدى شعراء المدرسة العذرية، بل إنها تتطابق معها كثيراً .

فلم يكن الإسلام بعيداً عن نفوسهم ، بل تأثروا به بحكم انتمائهم الديني إليه ، وبفضل نشأتهم في بيئة إسلامية ، وإدراكهم لفاهيم الإسلام وتعاليمه . فقد عبروا عن إيمانهم بقضاء الله وقدره باعتباره أصلاً من أصول الإيمان التي يلزم المسلم اعتناقها في حياته .

فصر بن أبي ربيعة يعلن خضوعه للحب لإيمانه بأنه قضاء من الله وقدر ، ويتقبله بنفس راضية رغم كل ما يعانیه في سبيل ذلك . يقول عمر :

قَضَى مُنْشَرُّ الْمَوْتَى عَلَيَّ قَضِيَّةً بِحُبِّكَ لَمْ أَمْلِكْ وَلَمْ أَنْتَهَا عَمْدًا
فَلَيْسَ لِقُرْبٍ بَعْدَ قُرْبِكَ لَسَدَةٌ وَلَسْتُ أَرَى نَأْيًا سِوَى نَأْيِكُمْ هُمْدًا (١)

ويقول - من قصيدة أخرى - معبراً عن نفس المضمون السابق :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ حُبًّا قَاتِلِي حَتَّى بُلِمْتُ بِمَا بَرَى جِسْمِي
أَوْرَثْتَنِي دَاءً أَخَا مِرُّهُ أَسَاءُ بَزَّ اللَّحْمُ عَنْ عَظْمِي
لَوْ كُنْتُ أَنْتَ قَسَمْتَ ذَاكَ لَكَ مَنِّي عَلَيْهِ لَجُرْتُ فِي الْقَسَمِ
لَكِنْ رَبِّي كَانَ قَدَّرَهُ فَقَضَاءُ رَبِّي أَفْضَلُ الْحُكْمِ (٢)

ويعبر العرجي في إحدى قصائده عن إيمانه بقضاء الله وقدره الذي ساقه إلى المرأة التي أحبها دون أن يملك في ذلك شيئاً، فيقول :

(١) الديوان ص ٣١٢ .

(٢) نفسه ص ٢٥٥

لَمْ يَقَارِبْ جَمَالَهَا حُسْنَ شَيْءٍ غير شمس الضحى عليها النهسارُ
فَلَوْ إِنِّي خَشِيتُ أَوْخِفْتُ قَتْلًا غير أَنَّ لَيْسَ تَدْفَعُ الْأَقْسَدَارُ (١)

ويؤكد الحارث بن خالد المخزومي بأن مشيئة الله وحدها هي القادرة على جمعه
بمن أحب قاتلاً :

لَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ يَجْمَعْ اللَّهُ بَيْنَنَا بما شاءَ لَا نَزْدَادُ إِلَّا تَنَائِيَا (٢)
وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَقْتَضِي الصَّبْرَ عَلَيْهِمَا ، وَالرَّجُوعَ إِلَى اللَّهِ لاسْتِلْهَامِ الْعِزَاءِ
فِي ذَلِكَ . وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى فِي قَوْلِ الْمَرْجِي :

أَقُولُ بِأَعْلَى تَخَلَّتَيْنِ وَقَدْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ شَطْرُ اللَّيْلِ وَالرُّكْبُ هَاجِعُ
لِذِي لَطْفٍ مِنْ صُحْبَتِي وَهُودٍ وَنَهْمٍ أَقَاتِلْتِي إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعُ (٣)
ويكثر المحققون - كما يسميهم طه حسين (٤) - من لجوئهم إلى الله بالدعاء إليه
عند لحظات معاناتهم، والتي تحفل بها تجارب الحب في العادة . وهو ما يعطي
دلالة واضحة على شعورهم الديني .

يقول عمر بن أبي ربيعة في قصيدة له تنم عن نفس مؤمنة :

وَلَقَدْ قُلْتُ إِنْ تَطَاوَلَ هَجْرِي رَبِّ لَا صَبْرَ لِي عَلَى هَجْرٍ هِنْدٍ
رَبِّ قَدْ شَغْنِي وَأَوْهَنَ عَظْمِي وَرَانِي وَزَادَنِي فَوْقَ جُهْدِي
رَبِّ حَمَلْتَنِي مِنَ الْحُبِّ ثِقْلًا رَبِّ لَا صَبْرَ لِي وَلَا عَزْمَ عِنْدِي
رَبِّ عَلَّقْتَهَا نَجْدًا هَجْرِي ذَاكَ وَاللَّهِ مِنْ شَقَاوَةِ جَدِّي
لَيْسَ حُبِّي لَهَا بِبِدْعَةٍ أَمْرٍ قَدْ أَحَبَّ الرِّجَالُ قَبْلِي وَمَعْدِي (٥)

(١) الديوان ص ٥٩ (الهامش)

(٢) الديوان ص ١٤٨ .

(٣) الديوان ص ٤٧ .

(٤) حديث الأربعماء ١/١٨٧ .

(٥) الديوان ص ٢٩٣ .

وفي لحظة من المماناة العاطفية ، والشعور بالمرارة والخيبة عند عجزه عن الحديث إلى امرأة أعجب بها ، يدعو المرجي ربه أن يكون لطيفاً به ، فيقول :

فَخَرَجْتُ لَمْ أَبْشُرْكُمْ حَزَنِي ودعوت بالحسرات واللهف
يَا رَبِّ إِنِّي قَدْ شَقِيتُ بِهَا فالطف فإنك ربّ ذو لطف (١)
ويدعو المرجي ربه أن ينسيه ذكر فتاته لما وصل به حبها من سوء الحال . فهو سقيم الجسم ، دافع العين لذلك . فهو يقول :

فَمَا زَالَ بِي مَا ضَمَّنْتَنِي مِنَ الْجَوَى وسقم به أعيا على من تطببنا
وَكثْرَةَ دَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى لَوِ انَّنِي يراني عدو وكاشح لتحوينا
فَذَا الْعَرْشِ أَنْسَى الْقَلْبَ مَا عَشْتُ ذِكْرَهَا فقد طالما أنسى إليها تحببا
فَكَمْ مِنْ مِثَّتٍ قَدْ جَمَعْتَ بِقُدْرَةٍ ومجتمع شعبته فتشعبنا (٢)
ويدعو عمر بن أبي ربيعة بدخول الجنة لامرأة صادفها في الطواف ، فعاتبته بمسح الطيب في شوه ، فيقول :

أَدْخَلَ اللَّهُ رَبُّ مُوسَى وَعِيسَى جنة الخلد من ملاني خلوقا
مَسَحَتْهُ مِنْ كَدِّهَا بِقَيْصٍ حين طافت بالبيت مسحاً رفيقا (٣)

(١) الديوان ص ٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٤٤ ، تحوب : الحوب الإثم والذنب .

(٣) نفسه ص ٤٥٠ ، الخلوق : الطيب .

وفي قصيدة أخرى يسأل الله لامرأة أحبها أن تعود من حجها بالسلامة والأجر ،
قائلاً :

أَسْأَلُ اللَّهَ عَالَمَ الْغَيْبِ أَنْ تَرْجِعَ يَا حَبِّ سَالِمًا مَأْجُورًا (١)

ويزعم في رائيته المشهورة أن فتاته دعت له بالحفظ من الله عند لقائه بها بعد
أن أصابها الخوف منه .

يقول عمر :

فَقَالَتْ وَقَدْ لَأَنْتَ وَأَفْرَحَ رَوْعُهَا كَلَّاكَ بِحَفْظِ رَبِّكَ الْمَتَكَبِّرِ (٢)

ولعبيد الله بن قيس الرقيات بيت شmil لهذا البيت حين يقول :

قَالَتْ وَعَيْنَاهَا تَجُودَانِيهَا صُوحِيَّتَ وَاللَّهِ هُوَ الرَّاعِي (٣)

وقد يعبر هؤلاء الغزلون - أحياناً - عن غفة حبيبهم ، ويشيرون إلى حرصهم
على البعد عن كل ما يتنافى مع الدين .

يقول الحارث بن خالد المخزومي يصف إحدى لقاءاته الفرامية :

إِذَا اجْتَمَعْنَا هَجَرْنَا كُلَّ فَاخِشَةٍ عِنْدَ الْلِقَاءِ وَذَاكَ مَجْلِسُ لَبْنٍ (٤)

ويدعو العرجي عينه إلى الكف عن النظر إلى النساء ؛ لأن ذلك منهي عنه

فيقول :

يَا عَيْنُ مَهْلًا أَلَمْ تُنْهَيْ عَنِ النَّظْرِ غَضِّي مِنَ الطَّرْفِ غَضِّي لَا مَحَ الْبَصَرِ (٥)

(١) الديوان ص ١٣٢

(٢) الديوان ص ٩٢

(٣) الديوان ص ١٦١

(٤) الديوان ص ١٤٣ . مجلس لبن : تقضى فيه اللبانة وهي حاجة القلب .

(٥) الديوان ص ١٣٠

والدعوة إلى تقوى الله التي ترددت عن شعراء المدرسة العذرية ، والتي اتخذوها وسيلة لاستعطاف المرأة ، تتكرر عند زملائهم شعراء الغزل الصريح .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات محذراً رقية من عقوبة هجرها له :

تَقَنَّ اللَّهَ فِي رَقِيٍّ وَاخْشِي عُقُوبَةَ أَمْرِنَا لَا تَقْتُلِينَا (١)

ويطلب عمر بن أبي ربيعة من فتاته أن تتقي الله فيه ، فتقبل اعتذاره لها ، وتكف عن صدودها ، قائلاً :

أَقْبِلِي الْمَذْرُومَ فَسَتِي	صَادِقٌ غَيْرَ آثِمٍ
لَمْ يَخْنُكِ الْوُدَادُ لَا	لَا وَرَبَّ الْمَوَاسِمِ
لَمْ تَبْؤِيْنَ بِأَثِمِهِ	ثَائِبًا غَيْرَ وَاعِثِمِ
اتَّقِي اللَّهَ فِي فِسْتِي	مَا جِدِ أُخْتَ هَاشِمِ (٢)

ويقول في أبيات أخرى يظهر فيها التأثير القرآني واضحاً :

فَاتَّقِي ذَا الْجَلَالِ يَا أُمَّ عَمْرٍو	وَاحْكِي فِي أَسِيرِكُمْ بِالصَّوَابِ
افْعَلِي بِالْأَسِيرِ إِحْدَى ثَلَاثِ	فَأَفْهَمِيهِنَّ ثُمَّ رُدِّي جَوَابِي
اقْتُلِيهِ قَتْلًا سَرِيحًا مُرِيحًا	لَا تَكُونِي عَلَيْهِ سَوْطَ عَذَابِ
أَوْ أَقِيدِي فَإِنَّا النَّفْسُ بِالنَّفْسِ قَضَاءُ مَفْصَلًا فِي الْكِتَابِ	
أَوْصِيهِ وَصْلًا يَقْسِرَ عَلَيْهِ	إِنَّ شَرَّ الْوَصَالِ وَصْلُ الْكِذَابِ (٣)

(١) الديوان ص ١٣٧

(٢) الديوان ص ٢٥٤ .

(٣) نفسه ص ٤١٧ .

والصورة الشعرية في شطر البيت الثاني أخذها الشاعر من قوله تعالى * فصب عليهم ربك سوط عذاب * (١) ، أما البيت الثالث فهو مقتبس من قوله تعالى : * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين . . . * (٢) الآية .

وقد حرم الله قتل النفس إلا بالحق ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :

* ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . . * (٣)

وقد استفاد عمر ورفاقه من هذا المفهوم الديني، واتخذوه معبراً لاستدراج المرأة للكف عن صدورها؛ لأن ذلك - كما يدعون - يفضي بهم إلى الموت وهو ما لا يتفق مع تعاليم الدين .

يقول المرجعي :

فَرَاخِي وَثَاقًا عَنْ فَوَازٍ أَسْرَتِهِ	قَلِيلًا لَعَلِّي لِلْعِدَى أَتَجَمَّلُ
وَبِاللَّهِ رُدِّي دَمْعَ عَيْنِي فِيهِمَا	إِلَى أَيِّ دَهْرٍ دَمْعُ عَيْنِي يَهْمَلُ
فَخَافَنِي عِقَابَ اللَّهِ فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ	بَرِيٍّ وَلَمْ يَقْتُلْ قَتِيلًا فَيُقْتَلُ (٤)

ويقول الحارث بن خالد المخزومي :

اتَّقِ اللَّهَ وَأَقْبِلِي الْمَذْرَمَنِي	وَتَجَانِي عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ زَلًّا
لَا تُصَدِّي فَتَقْتُلِينِي ظُلْمًا	لَيْسَ قَتْلُ الْحُبِّ لِلْحُبِّ حِلًّا (٥)

(١) الفجر ١٣ .

(٢) المائدة ٤٥ .

(٣) الأنعام ١٥١ .

(٤) الديوان ص ١٥٥ .

(٥) الديوان ص ١٠٩ .

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

فَلَا تَقْتُلْنِي إِنْ رَأَيْتَ صَبَابَتِي إِلَيْكَ فَوَإِنِّي لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي (١)

وقد كان الشاعر الجاهلي يفتخر في حديثه عن مغامراته الفرامية بسيفه البتار الذي يواجه به أعداءه . غير أن هذه الفئة من الفضلين لم يتردد شمرأوها في القول بأن الله كان - أيضاً - رفيقهم في رحلاتهم إلى ديار أحبتهم .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات واصفاً رحلته إلى ديار إحدى فتياته، مصوراً مالا قاه من المصاعب في سبيل ذلك :

رَبِّ هَيْدٍ وَدُونَهَا	نَاضِبٌ أَوْ كُنَاضِبٍ
وَدَرَى قَفٍّ سَبَسِبٍ	لَا حَقٍّ بِالسَّبَسِبِ
قَدْ تَجَشَّعْتُ نَحْوَكُمْ	بِعَتَاقِ النَّجَائِزِ
مَا مَعِيَ غَيْرَ صَارِمٍ	إِلَيَّ وَاللَّهِ صَاحِبِي (٢)

ويصور العرجي رحلته إلى دار إحدى النساء ، واجتيازه القفر البعيد في

الليل المظلم المخيف ، فيقول :

وَقَدْ عَلِمْتُ إِذَا مَا اللَّيْلُ أَعْظَمُهُ	بَعْضُ الرِّجَالِ وَهَابُوا الْهَوْلَ فَانْتَهَسُوا
أَنْ رَبَّ لَيْلَةٍ مَشْغَارٍ مَرْعَزَةٍ	طَخِيَاءَ لَيْسَ بِهَا لِلنَّسْعِ مُلْتَمَسُ (٣)
قَدْ بُتَّ أَجْشَمُ فِيهَا الْهَوْلَ نَحْوَكُمْ	إِذَا الرِّجَالُ لَدَى أَمْثَالِهَا نَعَسُوا
أَجْتَازُ قَفْرًا بَعِيدَ الْقَعْرِ لَيْسَ مَعِيَ	إِلَّا الْإِلَهِ وَلَا السِّيفُ وَالْفَرَسُ (٤)

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) الديوان ص ٢٩ .

(٣) مشغار : شديدة ، مرعزة : مفرطة في الشدة ، طخياء : مظلمة ، النسع : النعال المنسوج من السيور ، يريد أن الماشي لا يبصر موقع نعليه .

(٤) الديوان ص ١٥١ .

ويصف اسماعيل بن يسار تسلمه في إحدى الليالي لزيارة معشوقته ، قائلاً :
 أَخَافَتُ الْمَشْيَ حَدَّارَ الْعِيدَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ حَالِكٌ مُظْلِمٌ
 وَدُونِ مَا حَاوَلْتُ أَنْ زُرْتُكُمْ أَخُوكِ وَالْخَالُ مَعَاً وَالْعَمُ
 وَلَيْسَ إِلَّا اللَّهُ لِي صَاحِبٌ إِلَيْكُمْ وَالصَّارِمُ اللَّهُ ذَمُّ (١)
 ويلح عبيد الله بن قيس الرقيات على التساؤل عن الإثم والحرَج الذي يرتكبه
 من خلال بعض المواقف التي تتضمنها تجربته العاطفية ، وكأنه يطلب
 الفتوى الدينية في ذلك .

فهو مرة يتساءل عن الذكرى :

هَلْ بَادَّ كَارِ الْحَبِيبِ مِنْ حَرَجٍ أَمْ هَلْ لَهُمُ الْفُؤَادِ مِنْ فَرَجٍ (٢)
 ومرة عن القبله التي تمنحها المرأة لفتاها العاشق :

حَدَّثُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ (٣)

وأخرى عن بكائه أمام أطلال فتاتسه :

يَا صَاحِ هَلْ أَبْكَاكُ مَوْقِفُنَا أَمْ هَلْ عَلَيْنَا فِي الْبُكَاءِ إِثْمٌ (٤)

ويؤكد الأحوص في أحد أبياته استمرار حبه حتى اليوم الذي تختبر فيه السرائر
 وذلك عقب الحشر ، فيقول :

سَتَبْقَى لَهَا فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ وَدَّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٥)

(١) شعر اسماعيل بن يسار ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ٧٨ .

(٣) نفسه ص ١٦٣ .

(٤) نفسه ص ٥٥ .

(٥) الديوان ص ١١٨ .

وتمثل الصورة الفنية جانباً مهماً من عملية الإبداع الشعري عند شعراء الغزل الصريح ، حيث عمدوا إلى توظيفها عند تعبيرهم عن تجاربهم العاطفية ومواقفها المختلفة . وهم يستمدونها - أحياناً - من ثقافتهم الدينية . وذلك من خلال اطلاعهم على القرآن الكريم ، أو من واقع الحياة الإسلامية المحيطة بهم .

فعمر بن أبي ربيعة يصور في قصيدة له ليلة من الليالي التي شهدت إحدى لقاءاته الغرامية ، ويتغنى بما ناله فيها من السعة الكبيرة . فيشبهها بليلة القدر التي ينص القرآن على فضلها .

يقول عمر :

وَمُحَدَّثٍ قَدْ بَاتَ يُنْسُئِنِي	رَخِصِ الْبِنَانَ مَهْفَافِ الْخَصْرِ
مُتَضَمِّجٍ بِالسَّكِّ شِعْرُ بِي	أَعْطَافَ أَجِيدَ وَاضِحِ النَّعْرِ
وَيُذَيِّقُنِي مِنْهُ عَلَى وَجَلٍ	عَذْبًا كَطَعْمِ سُلَافَةِ الْخَمْرِ
فِي لَيْلَةٍ كَأَنَّتَ مَارَكَةً	ظَلَمْتُ عَلَيَّ كَلِيلَةَ الْقَسْدِ (١)

وفي قصيدة أخرى يصور عمر السحر الذي يزعم لائمه أنه مصاب به، فيعبر عن ذلك بصورة قرآنية مستوحاة من قوله تعالى : " ومن شر النفاثات في العقد " (٢)

فهو يقول :

حَدَّثُونَا أَنَّهَا لِي نَفَثَتْ	عَقْدًا يَا حَبْدًا تِلْكَ الْعُقَدُ (٣)
-----------------------------------	------------------------------------------

(١) الديوان ص ٤٨١ .

(٢) الفلق ٤

(٣) الديوان ص ٣٢٢ .

وهذه الصورة للسحر يلتقطها عبید الله بن قیس الرقیات للتعبیر عن فكرة مشابهة،
فیقول :

لَمْ تَسْلِبْنِي عَقْلِي وَجَدَّكَ عَنْ ضَعْفٍ وَلَكِنْ بِالنَفْثِ فِي الْعَقْدِ (١)

ویصور عبید الله بن قیس الرقیات بخل رقية بوصاله ، وامتناعها عنه ، فیستمد
لذلك صورة قرآنية یقتبسها من قوله تعالى : " الذین هم یراءون ، ویمنعون
الماعون " (٢) فهو یقول :

حُلُوةٌ إِذَا تَكَلَّمْتُهَا تَنْعُ الْمَاعُونُ بِاللَّقْسِ (٣)

ویصور عمر رقیقه عتیق بالشیطان . حیث إنه زین فی عینی عمر إحدى النساء
وذلك بالحديث عن ما تتمتع به من جمال، ثم لاهه علی عشقها .
قال عمر :

لَا تَلْمَنِي عَتِيقُ حَسْبِيَ الَّذِي بِي إِنَّ بِي يَاعَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
إِنَّ بِي دَاخِلًا مِنَ الْحُبِّ قَدْ أَبْلَى عَظَامِي مَكُونُهُ وَهَرَانِي
لَا تَلْمَنِي وَأَنْتَ زَيْنَتُهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ (٤)

وهو یقتبس هذه الصورة من القرآن الکریم من مثل قوله تعالى " وإن زین لهم
الشیطان أعمالهم وقال لا غالب لكم الیوم من الناس " (٥)

(١) الديوان ص ٧٧ .

(٢) الماعون ٦ ، ٧ .

(٣) الديوان ١٦٠ ، اللقس من قولهم فلان لقس أي عسر .

(٤) الديوان ص ٢٩١ .

(٥) الأنفال ٤٨ .

ويقرن عمر صورة فتاته وقد أجابت دعوته لها بالتلبية بصورة الحجيج وقد انطلقوا في مناسكهم بالتلبية يرجون ثواب الله ، قائلاً :

فَأَجَابَتْ عِنْدَ الدُّعَاءِ كَمَا لَبَّى رَجَالٌ يَرْجُونَ حُسْنَ الثَّوَابِ (١)

ومعد . . فإن الغزل الصريح على الرغم مما اتسم به من الحسية التي تتنافى في جوانبها مع تعاليم الإسلام ، ومع أن شعراء هم من الشباب الحجازي الذي استهوته حياة الترف واللهو التي أوجدها الثراء الفاحش في بيئتهم ، فإن الإسلام لم يكن بعيداً عن هذه النفوس الشاعرة ، بل كان يعمتل فيها بحكم انتمائها الديني إليه ، ولنشأتها في بيئة يحكمها هذا الدين . وقد تجلّى ذلك لا في تعامل الشعراء مع ألفاظه ومصطلحاته فقط ، وإنما في استخدامهم لبعض العناصر الدينية وتوظيفها في مضامين قصائدهم لخدمة الفكرة الشعرية ، وفي استفادتهم من ثقافتهم الإسلامية في تكوين بعض الصور الشعرية التي تعبر عن تجربتهم العاطفية .

(١) الديوان ص ٤٣١ .

"" "" الفصل الثالث "" ""

~~~~~

(((\*)) الهجاء (\*))

~~~~~

الهجاء

ازدهر شعر الهجاء في العصر الأموي، حتى أصبح يمثل جزءاً كبيراً من التراث الشعري الذي خلفته لنا هذه الفترة التي تعتبر من أخصب الفترات في عمر الشعر العربي .

وقد ساعد الواقع السياسي والاجتماعي القائم آنذاك على وضع هذا اللون الشعري في الواجهة الأمامية للحركة الشعرية الأموية . فلقد كسان التفسير الذي أحدثه الأمويون على نظام الخلافة يجعلها أمراً وراثياً فيهم ، بعد أن كانت تتركز قبل ذلك على نظام الشورى الذي أوجده الإسلام ، سبباً في إشعال حركة معارضة شديدة ضدهم . صم الأمويون على دحضها ، وعلى ترسيخ كيان دولتهم بكل السبل الكفيلة بتحقيق ذلك .

وقد كانت إثارة العصبية بين القبائل العربية - والتي بدأت بذورها الأولى في الحروب الداخلية في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) - إحدى سبلهم في ذلك .

غير أن السياسة لم تكن وحدها المحرك لهذه العصبية القبلية ، فاصطدام المصالح الاقتصادية فيما بين القبائل ، أمر كان له دوره الملموس في ذلك .

وقد كانت هذه العصبية المحتددة ، التي تتخذ أحياناً الطابع الحربي ، كقيلة بالتحام الهجاء بين شعراء القبائل ، انطلاقاً من الدور المرسوم

للشاعري في المجتمعات القبلية ، كلسان لقبيلته ينطق باسمها ، ويذود عنها ، ويهجو خصومها .

كما كانت الخصومات الفردية عاملاً له أهميته في إثارة الهجاء بين الشعراء .

وذلك لضعف الوازع الديني لديهم ، ولا نعدام السلطة الرادعة لهم . فلم يكن للخلفاء الأمويين أو لولايتهم ، موقف صارم من الهجائيين شبيه بذلك الموقف الذي اتخذته الخلفاء الراشدون . وإن كنا نعلم أن معاوية بن أبي سفيان نهى عبد الرحمن بن الحكم عن الهجاء (١) ، وأن الوليد بن عبد الملك أمر واليه عيسى المدينة بجلد جرير وعمر بن لجأ لأنهما يقذفان المحصنات في هجائهما (٢) .

غير أن الموقف العام كان سلبياً ، بل إننا نجد من الأمويين من كان يدفع الشعراء إلى الهجاء ، فقد حرض يزيد بن معاوية الأخطل التغلبي على هجاء الأنصار (٣) ، وكان بشر بن مروان يقوم بالتحريض بين الشعراء ويغري بعضهم ببعض . فهو الذي أغرى بين جرير والأخطل (٤) ، كما أنه أغرى بين جرير وسراقة البارقي (٥) .

(١) العقد الفريد ٢٨١/٥ .

(٢) الأغاني ٧١/٨ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٤٦٢/١ .

(٤) نفسه ٤٤٠/١ ، الأغاني ٣١٥/٨ .

(٥) الأغاني ٦٩/٨ .

غير أننا لا يمكن أن نسلم بأن العصبية القبلية والخصومات الفردية كانت وحدها في ميدان إثارة الهجاء بين الشعراء . فقد تحول الهجاء في هذه الفترة إلى لون من المنافسة الأدبية . فنقائض جرير والفرزدق لم تستمر بينهما بدافع العصبية وحب الشاعرين لقبيلتيهما ، وإنما حدث ذلك لأن هجاءهما تحول بمرور الوقت إلى مناظرات أدبية ، يحاول فيها الشاعر إبراز ثقافته التاريخية ، وإثبات قدرته الأدبية عن طريق تفجير طاقاته الإبداعية في سبيل النيل من خصمه ، والخط من مكانته ، لا لعداء حقيقي بينهما ، وإنما لإظهار نفسه في موقف المنتصر أمام جماهير الشعراء آنذاك . التي كانت تجد في نقائضهما وسيلة للتسلية ، وملء الفراغ الذي كانت تشعر به نتيجة لهجاء حركة الفتوح، وسبب الترف الذي أصاب حياتها .

وقد عرف المصري الأموي الهجاء بأغراضه المختلفة سواء كان قبلياً ، أم شخصياً ، أم اجتماعياً ، أم سياسياً .

ومن المعلوم أن الإسلام يقف من الهجاء موقف الرفض . فالقرآن يدعو المسلمين إلى التأخي فيما بينهم ، وينهاهم عن سخرة بعضهم ببعض، ويأمرهم بترك التنابر بالألقاب لما فيه من زرع لبذور الحقد في نفوسهم ، ويثبت الفرقة فيما بينهم^(١) . والرسول صلى الله عليه وسلم يهدر دم من قال شعراً مقذعاً (٢) .

(١) انظر الحجرات ١١ .

(٢) العمدة ١٧٠/٢ .

ولا يتناقض هذا مع استخدام المسلمين للهجاء في بداية الدعوة الإسلامية. فقد اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين وجد المشركين يستعملون الشعر كسلاح لمحاربة الإسلام والنيل من المسلمين ، فكان لابد أن يتعامل معهم بنفس السلاح ، وأن يدعو شعراء المسلمين للرد عليهم ونقض أشعارهم .

وعندما فتحت مكة انتهى دور الهجاء في الدعوة الإسلامية ، وكان موقف الخلفاء الراشدين صارماً من أولئك الشعراء الذين استسلموا لنزعتهم الجاهلية ، وحاولوا النيل من المسلمين ، والقذح في أعراضهم استجابة لغريزة عدوانية في نفوسهم .

وهكذا يتضح أن الهجاء الذي يتفق مع الدين هو ذلك الذي يكرس نفسه لخدمته ضد من يحاولون الإساءة إليه . ويدخل في ذلك كل هجاء يتناول بعض المواقف السلبية في المجتمعات الإسلامية ، انطلاقاً من هدف ديني بحت ، بعيداً عن كل الأهواء القبلية ، أو الشخصية ، أو السياسية ، أو المذهبية . وهذا ما لا نجد له في العصر الأموي إلا نماذج قليلة ، لعل أبرزها قصيدة الفرزدق في هجاء إبليس (١) التي تمثل أنموذجاً فريداً قل نظيره في الهجاء عبر عصور الشعر العربي . فالواقع أن الأهواء الذاتية قد تحكمت في ما قيل من هجاء آنذاك .

(١) الديوان ٢١٢/٢ .

وقصيدة الهجاء الأموية إلى جانب تمسكها بالمثل الجاهلية القديمة كالغض من الأ حساب والأنساب، والتجريد من القيم التي كانت محل اعتزاز القوم من كرم وشجاعة ونخوة وشهامة . . . الخ ، وإلى جانب ما تحمله من إفحاش وإقذاع وتعرض للمحصنات بما لا يتفق أبداً مع تعاليم الإسلام ومثلته العليا . إلا أنها مع ذلك كانت تحمل كثيراً من العناصر الإسلامية الجديدة، التي استقاها الشعراء ما جاء به الإسلام من مثل جديدة أراد لها أن تحكم الحياة البشرية ، وأن تتحرك في إطارها .

وهو ما يمكن أن نسميه هجاءً دينياً ، حيث تنبعث قيمته الذاتية من خلال توظيف الشاعر للعناصر الدينية فيه ، حيث يعتمد الشاعر إلى تجريد خصه من القيام ببعض الأعمال الدينية ، أو أن يضفي عليه بعض الصفات التي ينكرها هذا الدين لتنافيها مع قيمه ومفاهيمه . والشاعر عندما يفعل ذلك إنما ينظر إلى المجتمع المسلم المحيط به ، فهو مجتمع يدين بالإسلام عقيدة ومنهج حياة ، وقد انفرست في داخله قيم هذا الدين ومفاهيمه ، فكان الخروج عليها محل سخريته ورفضه .

وقد كان جرير بن عطية الخطفي الشاعر الأموي المشهور أبرز الأسماء الشعرية التي استخدمت الهجاء الديني في ذلك العصر، فقد كانت العناصر الدينية تمثل عنده جزءاً مهماً من أفكاره الشعرية في نقائضه ضد خصميه

اللدودين الأخطل والفرزدق . فقد استغل الجانب الديني في شخصيتهما ليتناولهما من خلاله . إن كان الأخطل يدين بالنصرانية ، أما الفرزدق فقد عرف عنه رقة دينه ومجونه ، وهو ما تدل عليه الروايات التاريخية (١) ، ويدل عليه شعره . (٢)

ولعل أبرز ملامح الهجاء الديني يتمثل في الجوانب التالية :

أولاً : التعبير بالنصرانية ، والسخرية من طقوسها الدينية ، ومعتقدات أفرادها ، وما يستحلونه من محرمات إسلامية كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير .

وقد كانت تلك أهم وسائل جرير في هجائه للأخطل ، وكانت مصدر تفوق له . إن لا يستطيع الأخطل النصراني أن ينقض ما يقوله جرير ويرد عليه من هذا الجانب ؛ لأن الإسلام هو دين الخليفة والدولة ودين الغالبية العظمى من أفراد المجتمع ، فهو لا يستطيع التعرض له . وهذا ما أراده عمر بن عبد العزيز في إجابته لسليمان بن عبد الملك الذي سأله عن رأيه في جرير والأخطل فقال : " إن الأخطل ضيق عليه كفره القول ، وإن جريراً وسع عليه إسلامه قوله " (٣)

وقد كان جرير يدرك ذلك جيداً . فهو يذكر في رواية عنه أن ما أعانه على الأخطل كبر سن الأخير وخيب دينه . (٤)

(١) انظر الأغاني ٣٦٠/٢١ ، ٣٦٣ ، ٣٢٢ .

(٢) انظر الديوان ٣٤٤/١ .

(٣) الأغاني ٣٠٦/٨ .

(٤) الموشح ص ٢٠٩ .

فهو يعير الأخطل وقومه بالصليب - رمز النصرانية - ويتمهم بعبادته

قائلاً :

- | | |
|------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| (١) وأدعو الآله وتَدْعُو الصَّلِيبَ | وأدعو قُرَيْشاً وَأَنْصَارَهَا |
| أَفْبِالصَّلِيبِ وَمَارِ سَرْجِسَ تَتَّقِي | شَهْبَاءَ ذَاتِ مَنَاكِيبٍ جَمُّورَا |
| نُبْتُ تَغْلِبَ يَعْبُدُونَ صَلِيبَهُمْ | بِالرَّقَّتَيْنِ إِلَى جَنُوبِ الْمَآخِرِ |
| يَسْتَنْصِرُونَ بِمَارِ سَرْجِسَ وَابْنَهُ | بَعْدَ الصَّلِيبِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ |
| سَتَعْلَمُ مَا يُفْنِي الصَّلِيبُ إِذَا غَدَتْ | كُتَائِبُ قَيْسٍ كَالْمَهْنَسَاءِ الْجُرْبِ |
| فَخَرْتُ بِقَيْسٍ وَافْتَخَرْتُ بِتَغْلِبٍ | فَسَوْفَ تَرَى أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَرْسَحُ |
| فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيبَهُمْ | فَخَابُوا وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا |
| لَيْسَ ابْنُ عَائِدَةَ الصَّلِيبِ بِمُنْتَهَى | حَتَّى يَذُقَ بِكَاسٍ مِنْ هَاجَانِي |

فهو في الأبيات السابقة يهجو الأخطل والتغلبين بعبادة الصليب ومار سرجس ،
ويصور الحرب الدائرة بين قيس وتغلب وكأنها في حقيقتها ليست حرب عصابات ،
ولنا هي حرب دينية بين المسلمين والنصارى ، وكأنه يريد تحريض الرأي العام
المسلم ضدهم .

(١) الديوان ٢٦٤/١

(٢) نفسه ٢٣٠/١

(٣) نفسه ٣١٢/١

(٤) نفسه ٦٣٤/٢

(٥) نفسه ٨٣٨/٢

(٦) نفسه ١٠١٣/٢

كما يعيرهم بكفرهم ، واستمرارهم على نصرانيتهم ، رغم إسلام أغلبية العرب ،
ويعمد إلى المقارنة بينهم وبين المسلمين، فيقول :

قبح الإله وجوه تغليب كلما	شبح الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد	وبجبرئيل وكذبوا ميكائلا (١)
وما رضيتم لأجساد تحرقهم	في النار إن حرقتم أرواحهم سقر (٢)
رجس يكون إذا صلوا أذانبهم	قرع النواقيس لا يدرون ما السور (٣)
تلقى الأخيطل في ركب مطارفهم	برق العباء وما حجوا وما اعتمروا (٤)
ما كان يرضى رسول الله دينهم	والطبيان أبوبكر ولا عمر (٥)
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا	وهل يضير رسول الله أن كفر (٥)
ينام التغلبي وما يصلّي	ويضحى غير مرتفع الوسار (٦)
وما قرأ المفصل تغلبي	ولا مس الطهور ولا السواكا
ولا عرفوا مواقف يوم جمع	ولا حوض السقايق والأراكا (٧)

(١) الديوان ٥٢/١ ، الشبح : رفع الأيدي بالدعاء ، والإهلال : رفع الصوت .

(٢) نفسه ١٥٣/١ .

(٣) نفسه ١٥٧/١ .

(٤) نفسه ١٥٨/١ .

(٥) نفسه ١٥٩/١ .

(٦) نفسه ٢٨٦/١ .

(٧) نفسه ٦٠٠/٢ ، الأراك : أراك عرفات .

لَعَنَ إِلَٰهَ مَن الصَّلَيبِ إِلَهُهُ واللابسينَ برانيسَ الرُهَبَانِ

.....

تَفَشَى الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ وَفَاتَنَا والتَّغْلِيَّ جَنَازَةَ الشَّيْطَانِ
يُعْطَى كِتَابَ حِسَابِهِ بِشِمَالِهِ وَكُنَّا بِأَكُنَّا الْأَيْمَانِ
أَتَصَدَّقُونَ بِمَا سَرَّجِمَ وَأَبْنِيهِ وَتَكْذِبُونَ مُحَمَّدَ الْفُرْقَانِ
مَا فِي دِيَارِ مُقَامِ تَغْلِبَ مَسْجِدُ وَتَرَى مَكَاسِرَ حَنْتَمَ وَدِ نَّانِ (١)

ففي الأبيات السابقة يهجو جرير التغلبيين بكفرهم ، وتكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من دين الحق ، واتباعهم لسبيل الضلال باستمرارهم على نصرانيتهم .

ويسخر من طقوسهم الدينية الخاصة بهم مثل قرع النواقيس ، واتخاذ

الصليان .

ويعمد إلى المقارنة بينهم وبين المسلمين ، فينفي عنهم القيام بالأعمال الدينية الإسلامية ، فهم لا يقرأون القرآن ، ولا يؤدون الشعائر الدينية التي فرضها الله على المسلمين من صلاة وحج وعمره .

ويستمر جرير في مقارنته ، فلا يقف عند تصوير حياتهم الدنيوية ، وما فيها من التعارض مع الحياة الإسلامية ، بل يشير إلى مفارقتهم للمسلمين في الآخرة فهم مختلفون عنهم في المصير ، إذ هم مع الكافرين يستلمون كتاب حسابهم

بشمالهم ، وتكون نهايتهم في سقر التي تحرق بنارها أجسادهم . وهو يهدف بذلك إلى إشعارهم بفريتهم في المجتمع الإسلامي ، ونبذهم منه .
ويمضي جرير في هجائه للأخطل وقومه ، فيعيرهم بشرب الخمر ، ويصور ما يفعلونه في ظل نشوتهم بها ، فهم لا يمتنعون عن انتهاك المحارم .
يقول جرير :

- (١) الْمُعْرِسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِنَاتِهِمْ وَالْدَّائِبِينَ إِجَارَةً وَسُؤَالًا
(٢) أَبَا مَالِكٍ مَالَتْ بِرَأْسِكَ نَشْوَةٌ وَبِالبُشْرِ قَتْلَى لَمْ تُطَهَّرْ ثِيَابُهَا
(٣) شَرِبْتَ الْخَمْرَ بَعْدَ أَبِي غُوَيْثٍ فَلَا نَعِمْتَ لَكَ النَّشْوَاتُ بَالًا

كما يهجوهم بأكلهم لحم الخنازير التي حرمها الاسلام ، فيقول :

تَلَقَى الْأَخِيطَلُ فِي رَكْبٍ مَطَارِفُهُمْ بُرُقَ الْعَبَاءِ وَمَا حَجَّوْا وَمَا اعْتَرَوْا
الضاحكين إلى الْخِنْزِيرِ شَهْوَتَهُ يَا قُبْحَتِ تِلْكَ أَفْوَاهُ إِذَا كَشَرُوا
وَالْمُقْرِعِينَ عَلَى الْخِنْزِيرِ مِيسَرَهُمْ بئسَ الْجَزُورُ وَبئسَ الْقَوْمُ إِذَا يَسَرُوا (٤)
فإِنَّكَ يَا خِنْزِيرَ تَغْلِبَ إِنْ تَقُلْ رُبِعَةٌ وَزَنْ مِنْ تَمِيمٍ تُكَذِّبُ
أَبَا مَالِكٍ لِلْحَيِّ فَضْلٌ عَلَيْكُمْ فَكُلْ مِنْ خَنَانِيصِ الْكُنَاسَةِ وَاشْرَبِ (٥)
لَعَنَ إِلَٰهَهُ مِنَ الصَّلِيبِ إِلَهُهُ وَاللَّابِسِينَ بَرَائِصَ الرَّهْبَانِ

-
- (١) الديوان ٥٢/١ ، يريد الدائبين بين سائل وأجير .
(٢) نفسه ٦٢٤/٢ .
(٣) نفسه ٧٥٠/٢ .
(٤) نفسه ١٥٨/١ .
(٥) نفسه ٣٠٦/١ ، الخنانيص : جمع خنوص وهو ولد الخنزير الصغير .

والذابحين إذا تقارب فصحهم شهب الجلود خسيصة الأثان
من كل ساجي الطرف أعصل نابسه في كل قائمة له ظلفان (١)

ويتناول جرير المرأة التغلبية فيجوها من هذا الجانب الديني ، فيصورها
مخمورة ، تفعل عند نشوتها ما تحرمه الأديان السابوية ، ويصور - أيضاً -
إقبالها الشديد على لحوم الخنازير ولعنها بها ، فيقول :

أبناءهم أقل قوم حرمة
من كل مخضرة الأنياب قمرها
نسوان تغلب لا حلم ولا حسب
لقي الأخيطل أمه مخمورة
لم يجرم مذ خلقت على أنيابها
تسوف التغلبية وهى سكرى
من المتولجات على النشاوى
تظل الخمر تخلج أخدمها
إذا جردت لاح الصليب على ...
ولم تمسح البيت العتيق أكفها
يقئن صبايات من الخمر فوقها
عند الشراب ومالهن عقول (٢)
لحم الخنازير يجري فوقه السكر
ولا جمال ولا دين ولا خفر (٣)
قبحاً لذلك شارباً مخموراً
ماء السواك ولم تمس طهوراً (٤)
قفا الخنزير تحسبه غزاً لا
ولا تلج الخدور ولا الحجالا
وتشكو في قوائمها أملاً لا (٥)
ومن جلدها زهم الخنازير ينفج
ولكن بقران الصليب تمسح
صهير خنازير السواك المسلح (٦)

(١) الديوان ١٠١٥/٢ ، الفصح : يعنى عيد الفصح . وشهب الجلود : الخنازير
الشهب ، الأعصل : الأعوج . الساجي : الساكن .

(٢) نفسه ١٠٣/١

(٣) نفسه ١٥٩/١ ، قمرها : عظم جوفها .

(٤) نفسه ٢٣٢/١ .

(٥) نفسه ٧٥٠/٢ ، الامذال : الفترة من الخمر . وتخلج : تلوى .

(٦) نفسه ٨٤٠/٢ ، الزهم : الشحم والودك ، الصباية : البقية . الصهير : المصهور
المذاب المنضج من حرارة الشمس .

ويتخذ جرير من الجزية التي يدفعها النصارى وسيلة للتعمير بهم ، وللدلالة على حقارتهم ، ووضاعة شأنهم . ويجعلها مصدر نذل لهم . فالتغلبى ينتظر هلال كل شهر ليسرع بتقديم الجزية المفروضة عليه، والتي لولاها لكان التغلبيون وأراضيهم فيثاً يقسم بين المسلمين .

يقول جرير :

لولا الجزى قِسمَ السَّوادِ وتغلبُ	في المسلمين فكنتم أنفالا (١)
فارقتم سبل النبوة فاخضعوا	بجزى الخليفة والذليل ذليل (٢)
أد الجزى ودع الفخار بتغلب	وأخساً بمنزلة الذليل الصاغر (٣)
فكفره باليدى إذا التقينا	وأد إلى خليفتنا جزاكما (٤)
عجبت لفخر التغلبى وتغلب	تؤدى جزى النيروز خضعاً رقابها (٥)
ويسعى التغلبى إذا اجتبننا	بجزيته وينتظر الهـلالا (٦)
لنا كل عام جزية تتقى بها	عليك وما تلقى من الذل أبرح (٧)
رويدكم مسح الصليب إذا دننا	هلال الجزى واستعجلوا بالدرهم (٨)

ولأن الفرزدق كان يناصر الأخطل ضده ، فإن جريراً يتهمة وقومه بني مجاشع بالنصرانية، ويدعوهم للقيام بما يفعله النصارى بأن يحجوا للصليب ، ويأكلوا الخنزير ، قائلًا :

(١) الديوان ٦٥/١ ، الجزى : جمع جزية . الأنفال : الفنائم .

(٢) نفسه ٩٥/١ .

(٣) نفسه ٣١٦/١ .

(٤) نفسه ٦٠١/٢ .

(٥) نفسه ٦٢٥/٢ .

(٦) نفسه ٧٥٠/٢ .

(٧) نفسه ٨٣٨/٢ .

(٨) نفسه ١٠٠٣/٢ .

رَهْطُ الْفَرَزْدَقِ مِنْ نَصَارَى تَغْلِبُ أَوْ يَدَّعِي كَذِباً دَعَاوَةً زُورٍ
حُجُّوا الصَّلِيبَ وَقَرَّبُوا قُرْبَانَكُمْ وَخُذُوا نَصِيكَكُمْ مِنَ الْخِزْيِيرِ (١)
ويقول أيضاً :

وَقَدْ لَحِقَ الْفَرَزْدَقُ بِالنَّصَارَى لِيَنْصُرَهُمْ وَلَيْسَ بِهِ انْتِصَارُ
وَيَسْجُدُ لِلصَّلِيبِ مَعَ النَّصَارَى وَأَفْلَجَ سَهْمُنَا وَلَنَا الْخِيَارُ (٢)
ولم يكن جرير وحده الذي استخدم النصرانية وطقوسها الدينية مجالاً لهجائه
بين شعراء العصر الأموي ، فالفرزدق - أيضاً - يمدد إلى ذلك .

ففي هجائه للطرماح بن حكيم يعمير قبيلة طي بنصرانيتها ، ويتهمها
بالنفاق في إسلامها ، فهي لم تفعل ذلك عن إيمان وقناعة منها به ، وإنما خوفاً
من القتل ، قائلاً :

وَلَوْلَا حِذَارُ أَنْ تَقْتُلَ طَيٌّ لَمَا سَجَدْتُ لِلَّهِ يَوْمًا وَصَلَّيْتُ
نَصَارَى وَأَنْبَاطٌ يُؤَدُّونَ جَرِيزَةً سَرَاعاً بِهَا جُمُزًا إِذَا هِيَ أَهْلَتْ

.....

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَيْنَا وَمُعْطٍ جَرِيزَةً حِينَ حَلَّتِ (٣)

وعندما ولي خالد بن عبد الله القسري إمارة العراق هجاه الفرزدق ، وعيره
بأمة النصرانية ، واتهمه بالكفر إتباعاً لها ، واتخذ من حادثة هدمه لمناشر المساجد
سبباً للهجوم عليه ، فهو ييني لأمة كنيسة تعبد فيها الصليب ، ويهدم منائر
مساجد المسلمين ، متمجباً من توليته العراق وهو في تلك الصورة ، قائلاً :

(١) الديوان ٨٥٨/٢ .

(٢) نفسه ١٣٥/١ .

(٣) نفسه ١١٤/١ .

ألا قطع الرحمن ظهر مطيَّبةً أتننا تمطى من دمشق بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأمه تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه وهدم من كفر منار المساجد (١)
ويهجو عبد الله بن الزبير الأسدي حجار بن أبحر العجلي، فيتهمه وقومه معه
بالنصرانية ، فيقول :

سليل النصرى سدت عجلاً ولم تكن لذلك أهلاً أن تسود بني عجل
ولكنهم كانوا لثاماً فسدتهم ومثلك من ساد اللثام بلا عقل
وكيف بعجل إن دنا الفصح واعتدت عليك بنو عجل ومرجلكم يغلي
وعندك قسيس النصرى وصلبها وعانية صهباء مثل جنى النحل (٢)

ويقول - أيضاً - عندما تهدده ناس من بني عجل لهجائه لهم :
تهددني عجل وما خلت أنني خلاة لعجل والصليب لها بعقل (٣)
وفي هجائه لبني عجل يعرض الأبيرد الرياحي بنصرانيتها ، فهم لا يحيون بتحية
المسلمين عند لقاءهم ، فيقول :

بنو عجل أذل من المطايا ومن لحم الجزور على الشام
تحيا المسلمون إذا تلاقوا وعجل ما تحيا بالسَّلام (٤)

- (١) الأغاني ٢١/ ٣١٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٩ ، عانية : نسبة إلى عانة قرية على الفرات تنسب إليها الخمر
صهباء : ذات صهبة (بالضم) وهي حمرة أو شقرة .
(٣) نفسه ص ١٠٣ ، الخلى : الرطب من الثبات واحده خلاة . بعقل : اسم صنم
لقوم الياس النبی ، يريد أنهم يعبدون الصليب .
(٤) الأغاني ١٣/ ١٣١ ، الشام : بنت خفيف . ويقصد أنهم كالشريحة الصغيرة
يتحملها هذا النبت الضعيف ، وذلك لحقارته .



ويعير ذوالرمة قوم امرئ القيس بأصلهم النصراني ، قائلاً :
ولكنّا أصلُ امرئ القيسِ مُعْشَرٌ يَحِلُّ لَهُمْ لَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَالْخَمْرُ (١)
وقد يتهم الشاعرمهجويه بالمجوسية ، وهي ديانة وثنية كانت منتشرة في بلاد فارس قبل الإسلام .

فهذا كعب الاشقري يتهم زياداً الأعجم بأنه مجوسي يستحل ما يستحلونه
قائلاً :

وَأَقْلَفَ صُلَى بَعْدَ مَا . . . أُمَّةٌ يرى ذاك في دين المجوس حلالاً (٢)
والفرزدق يتهم أزد بصرى - في قصيدة يهجو بها المهلب بن أبي صفرة - بأنهم
مجوس لا يسجدون لله وإنما يسجدون للنار ، قائلاً :
وما لله تسجدُ أزدُ بضُـرَى ولكن يسجدون بكلِّ نارٍ (٣)

ثانياً : يعتمد الشعراء إلى تجريد من يهجونهم من القيام ببعض الأعمال الدينية
التي يوجب عليهم انتماؤهم الإسلامي أدائها ، أو يصفونهم بارتكاب المعاصي التي
نهى الإسلام عنها كشرب الخمر والزنا ، أو يضيفون إليهم بعض الخصال التي تتنافى
مع الدين كالرياء والنفاق والنميمة وما إليها .

وهذا اللون من الهجاء إنما يوجه في الغالب للمسلمين . وقد كان جرير
في هجائه للفرزدق يتناوله من جانب سلوكه الديني ، فقد كان مشهوراً عن الأخير
رقة دينه وفسقه ؛ ولهذا فقد عيره جرير بذلك .

(١) الديوان ص ٣٠٥ .

(٢) شعراء أمويون ٤١٥/٢ .

(٣) الديوان ٢٠٨/١ .

يقول جرير :

- إن الفرزدقَ أخزتهُ مثالبُهُ عبدُ النَّهارِ وزاني الليلِ دَبَّابُ (١)
 أمسى الفرزدقُ يا نوارُ كأنَّهُ قرُّ يَحْتَّ على الزَّناءِ قُرودُ
 ما كانَ يشهدُ في المِجامعِ مشهداً فيه صلاةُ ذوي التَّقَى مشهُودُ (٢)
 أوى شيخُ القُرودِ مع الزَّواني ليختارَ الحرامَ على الحلالِ
 سيخزيكَ الخليفةُ ثم تُخزى بعزّةِ ذي التَّكْرَمِ والجَلالِ
 وفي ما خورَ أعينَ بَتٍّ تزني وتمهرُ ما كَدَحَتْ من السُّوالِ (٣)
 إن الفرزدقَ حينَ يدخلُ مَسْجِداً رجسٌ فليس طهورُهُ بطهرُورِ
 إن الفرزدقَ لا يُيالي مَحْرَماً ودمُ الهدْيِ بأذرعٍ ونُحُورِ (٤)
 وقائلةٌ ما للفرزدقِ لا يُرى على السنِّ يستغني ولا يتعَفَّفُ (٥)

ففي الأبيات السابقة يصور لنا جرير فسق الفرزدق . فهو زان يستحل الحرام دون أن يردعه عن ذلك كبر سن أو قداسة موقف . إذ يستبجح ذلك في الحج دون احترام لهذه الشعيرة الدينية . متهماً إياه بأنه لا يشهد الصلاة مع المسلمين فهو مشغول عنها باختلاعه مع الزواني .

-
- (١) الديوان ١٩٤/١ .
 (٢) نفسه ١ / ٣٤٠ .
 (٣) نفسه ٥٤٩/٢ .
 (٤) نفسه ٨٥٧/٢ .
 (٥) نفسه ٩٣٢/٢ .

كما يهجو به شرب الخمر، الذي هو امتداد طبيعي لمجونه ، فيقول :

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------------|
| أما يدعُ الزنأء أبوفيراسٍ | ولا شربَ الخبيثِ من الشرابِ (١) |
| وتبيتُ تشربُ عند كلِّ مقصٍّ | خضل الأناملِ واكفِ المعصارِ |
| لا تفخرنْ فإن دينَ مجاشعٍ | دينُ المجوسِ تطوف حول دُوارِ (٢) |
| تميلُ به شربُ الحوانيتِ رائحاً | إذا حركتْ أوتارُ صنَجٍ أناملُهُ (٣) |

ويتهمه بالتجارة بالدين ، فهو لا يمتنع عن اعتناق النصرانية مقابل ثمن بخس .

يقول جرير :

- | | |
|----------------------------------|---------------------------------|
| ألا قبَّحَ اللهُ الفرزدقَ كلِّما | أهلَّ مصلٍّ للصلاةِ وكبراً |
| فلا يقرنُ المروتينِ ولا الصفا | ولا مسجداً لله الحرامِ المطهراً |
| فإنك لو تُعطى الفرزدقَ درهماً | على دينِ نصرانيةٍ لتنصَّرا (٤) |

ويهجو جرير تيمناً ، فيتهم نساءها بقلّة الاحتفال بالفصل من الجنابة كما يأمر الشرع ،

فيقول :

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------------|
| وما اغتسلتِ تيمّنةً من جنابيةٍ | ولا غسّلتِ ميتاً بماءٍ ولا سدرِ (٥) |
|--------------------------------|-------------------------------------|

ويهجو الحزين الديلي بنى كعبين خزاعة فينفى عنهم تدارسهم لكتاب الله كما

يفعل المسلمون ، ويصفهم بالنهم للطعام حتى انهم لا يصومون الفريضة ، قائلاً :

(١) الديوان ٧٦٤/٢ .

(٢) نفسه ٨٩٩/٢ .

(٣) نفسه ٩٧٢/٢ .

(٤) نفسه ٤٨١/٢ .

(٥) نفسه ٥٩٨/٢ .

- لا بارك الله في كعبٍ ومجلسِهِمْ ماذا تجتمع من لؤمٍ ومن ضَرَعٍ
لا يَدْرُسُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَهُمْ ولا يصومونَ من حِرْصٍ على الشَّبَعِ (١)
- وحين يهجو زياد الأعجم بني يشكر ، يجعلهم تارة غير طهر ، فملاستهم تستوجب
التطهر لأنهم مفسدون للطهارة ، فيقول :
- إذا يشكركم مسَّ ثوبك ثوبُهُ فلا تذكرن اللهَ حتَّى تطهرا (٢)
- ويتهمهم تارة بعدم الشكر لله ، فيقول :
- ويشكركم تشكر من ضامها ويشكر للهِ لا تشكركم (٣)
- ويهجو زياد - ذاته - جرماً ، فيميرها بالحرص على المعصية ، فهي تشرب الخمر
بعد أن نزل فيه التحريم ، وكانت لا تشربه أيام تحليله ، قائلاً :
- تكلّني سوقَ الكرمِ جرمٌ وما جرمٌ وما ذاكَ السوقُ
وما شربتهُ جرمٌ وهو حلٌّ ولا غالت به مذ كان سوقُ
فأولى شمّ أولى شمّ أولى ثلاثاً يا ابنَ جرمٍ أن تذوقوا
ولما نزلَ التحريمُ فيها إذا الجرميُّ عنها لا يُفِيقُ (٤)
- ويمير عبد الله بن الزبير الأسدي محمد بن عمير بشربه للخمر على كبر سنه ، ومخالفته
للمسلمين بفعلته تلك ، قائلاً :

(١) ديوان أشعار الموالى ١٥٩/١ .
(٢) شعر زياد الأعجم ص ٦٩ .
(٣) نفسه ص ٦٧ .
(٤) الديوان ص ٨٦ .

ولولا أبو مروان لا قيت وابلاً من السوط ينسبك الرحيق المعتقاً
أحين علاك الشيبُ أصبحت عاهراً وقلت أسقني الصهباء صرفاً مروّقا
تركت شراب المسلمين ودينهم وصاحبت وغداً من فزارة أزرقاً
تبستان من شرب المدامة كالذي أتيح له حبل فأضحى مخنقاً (١)
ويتهم الطرماح بن حكيم تميماً بعدم التسمية على ذبائحها كما يوجب الإسلام ، فهي
بذلك تخالف تعاليمه ، فهو يقول :

ذبحنا فسمينا فحلّ ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت (٢)
ويهجون والربة نساء بني امرئ القيس بتعمدهن إضاعة الصلوات وعدم أدائها ،
فيقول :

ألا لعن الإله بذات غسيل ومراة ما حدا الليل النهارا
نساء بني امرئ القيس اللواتي كسون وجوههم حمماً وقارا
أضعن مواقت الصلوات عمداً وحالفن المشاعل والجرا (٣)
وقد يصف الشاعر مهجويه ببعض الخصال التي تتنافى مع الدين كالرياء والنفاق
والغيبة والنميمة .

فهذا يحيى بن نوفل يتهم بلال بن أبي بردة بالنفاق ، فهو يدعي الخشوع ، وتلاوة
القرآن ، ويرسم علامة على جبهته للدلالة على كثرة السجود . وذلك بهدف التمويه
لما يدبر له من خيانة ، فيقول :

- (١) الديوان ص ٩٩ ، أزرق : أي أزرق العين ، كناية عن العدو .
(٢) الديوان ص ٦٥ .
(٣) الديوان ص ٢٨١ ، المشعل : شيء يتخذه أهل البادية من آدم ، ويحرز بعضه
إلى بعض كالنطع ، ثم يشد إلى أربع قوائم من خشب ، فيصير كالخوض ينتبذ فيه .

أبلا لُ إني رابني من شَأْنِكُمْ قولُ تزيينه وفعلُ منكـــــــرُ
مالي أراك إذا أردتَ خيانتــــةً جَعَلَ السجودُ بحرَّ وجهك يَظْهَرُ
متخسماً طيناً لكلِّ عظيمــــةٍ تتلو القرآنَ وأنتَ ذئبٌ أغبرُ (١)

ويهجـو حمزة بن بيض رجلاً ناسكاً استودع ودیعة فخانها ، فيسخر - أيضاً -
من تلك العلامة التي ارتسمت على جبهته ، والتي استغلها لخداع الناس كــــي
يثقوا به ، فيقول محذراً منه :

ألا يفرئك ذو سَجْشــــدةٍ يظلُّ بها دائباً يَخْدَعُ
كأن بجبهته جُلْبــــة يسبحُ طوراً ويســــترجعُ (٢)
وما للثقی لزمــــت وجهــــه ولكن ليغتر مستــــودعُ (٣)

ويتكرر هذا المعنى الهجائي عند موسى شهوات إن يقول هاجبياً :

لا تفرئك سجدةً بينَ عينيهِ حذارِ منها حَذَارِ حَذَارِ
إنها سجدةٌ بها يخدعُ الناسَ عليها من سجدةٍ بالدَّبارِ (٤)

وفي هجاء حارثة بن بدر لأنس بن زعيم يتهمة باغتيال اصدقائه ، وبالبعد عن التقوى ،
فهو يتسلل في دجى الليل إلى نساء قومه ، فهو يقول :

يبیتُ بطیناً من لحومِ صديقِهِ خميصاً من التقوى ومن طَلَبِ الحَمْدِ
ينامُ إذا ما الليلُ جُنَّ ظلامُهُ ويسري إلى حاجاته نومةَ الفَهْدِ
يراعي عذارى قومه كلما دَجَا له الليلُ والسوات كالأسدِ الـوَرْدِ

(١) الشعر والشعراء ٧٤٧/٢ ، الطبن : الفطن الحائق العالم بكل شيء ؛

(٢) الجلبة : قشرة رقيقة تعلو الجرح عند البرء ، شبه بها أثر السجود .

(٣) الأغاني ٢٠٧/١٦ .

(٤) ديوان أشعار الموالى ٢٥٢/١ .

جَرِيئاً عَلَى أَكْلِ الْحَرَامِ وَفَعْلِهِ
جَبَاناً عَنِ الْأَقْرَانِ مَعْتَرِمِ الْكَرَرِ (١)
وفي هجاء رجل من قوم حارثة بن بدر إياه ، يصفه بالنفاق ، فهو يؤدي الصلاة مع
كفره ، ويعبّره بالركض خلف البغايا ، والانغماس في لعب القمار اللذين صاراً حظه من
الدنيا ، قائلاً :

ألم تر أن حارثة بن بـدـر
يُصَلِّي وهو أَكْفَرُ من حِمَارِ
ألم تر أن للفتيان حِطّاً
وحِطّاً في البغايا والقمارِ (٢)
ويهجو المرجي محمد بن هشام والي مكة فيتهمه بالرياء ، ويدعو المسلمين إلى
مقاطعة الحج ، وعدم استهلاك نفقاتهم فيه ، لأن حج ذلك العام مشكوك في
قبوله ، فإمامهم فيه ليس إلا مرأياً يقطع نهاره مدّعياً الصيام ، أما في الليل فهو
ماجن يتطوّف طلباً للمتعة المبتذلة .

يقول المرجي :

ألا قل لمن أَمْسَى بِمَكَّةَ قَاطِئاً
دعوا الحجَّ لَا تَسْتَهْلِكُوا نَفَقَاتِكُمْ
وكيف يُزَكِّي حجُّ من لم يكن له
يُظِلُّ يرأي بالصيام نَهَارَهُ
ومن جاء من عُمقٍ وثَقْبِ السُّلَلِ
فما حجَّ هذا العام بالمتقبِّلِ
إمامٌ لدى تَجْمِيرِهِ غَيْرُ دُلْدُلِ (٣)
ويلبس في الظلماء سِمَطِيَّ قَرْنَفِلِ (٤)

(١) شعراء أمويون ٢/ ٣٤٣ .

(٢) الكامل ٣/ ٣٠٨ ، حمار : رجل هلك من كفار عاد .

(٣) دلدل : الدلدل : دابة تشبه القنفذ تنتفض فترمي بشوكها ، وكان
ابن هشام ينبذ به ، قيل : لأنه ماجن ، فهو يتطوف في الليل طلباً للمتعة
المبتذلة ، فشبه بهذا الحيوان الذي لا يخرج من جحره إلا ليلاً .

(٤) الديوان ص ١٨٩ .

ويتناول ذو الرمة بهجائه جماعة من المنافقين ممن يظهرون التدين وهم على خلاف ذلك، فيقول :

أما النبيذُ فلا يدعركُ شاربُهُ واحفظُ ثيابَكَ ممن يشربُ الماءَ
قومٌ يوارونَ عما في صدورِهِمْ حتَّى إذا استمكنوا كانوا هم الداءُ
مُشمرينَ إلى أنصافِ سوقِهِمْ هم اللصوصُ وهم يدعونَ قراءاً (١)

وفي قصيدة له يذكر فيها المفتاب والمرائي ، يتناول عبيد الله بن قيس الرقيات هاتين الشخصيتين الشاذتين في سلوكهما الاجتماعي من وجهة نظر دينية . فهو يتهم المرائي بمخادعة الله في فعله ذلك ، إن يأمر الناس بالبر وينسى نفسه .

يقول ابن الرقيات :

رَبِّ زَارِ عَلَيَّ لَمْ يَرْمَنِني عشرةٌ وهو ممَّاسٌ كذابٌ
خادَعَ اللهُ حينَ حلَّ بهِ الشَّيْبُ فاضْحَى وسانَ منه الشَّبابُ
يأمرُ الناسَ أَنْ يبرُّوا وينسى وعليهِ من كبرَةٍ جليسابُ (٢)

ويحذر المفتاب من مصيره في الآخرة عند الحساب ، وينفي عنه التقى ، فيقول :

أيها المستحلُّ لحمي كُلْهُ من ورائي ومن وراءَكَ الحِسابُ
استفيقنْ فليسَ عندَكَ علمٌ لا تنامنَّ أيها المُفتابُ
تختلُّ الناسَ بالكتابِ فهلاً حينَ تفتابُنِي نهاكَ الكتابُ
لست بالمُخَيِّتِ التَّقِيَّ ولا المحبِّضِ الذي لا تدمُّهُ الأنسابُ

(١) الديوان ص ٧٤١ .

(٢) الديوان ص ٨٥ .

إِنِّي وَالَّتِي رَمَتْ بِكَ كُرْهًا ساقطاً خُفُّها عليه التُّرابُ
لِتَلْمُزْنَ غَبَّ رَأْيِكَ فِينَا حِينَ تَبْقَى بِعَرْضِكَ الْأَنْدَابُ (١)

وينتقد زياد الأعجم عراك بن محمد الفقيه الذي قدم على عمر بن عبيد بفارس فكان يحدثه بحديث الفقهاء .

يقول زياد :

يَحْدِثُنَا أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ أَتَتْ وَجَاءَ عِرَاكُ يَبْتَغِي الْمَالَ مِنْ مِصْرٍ
فَكَمْ بَيْنَ بَابِ النَّوْبِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا وَإِيوَانَ كِسْرَى مِنْ فِلَاةٍ وَمِنْ قَصْرِ (٢)
وقد شهد العصر الأموي نشأة بعض الفرق المذهبية الإسلامية ، وكانت تقوم بين هذه الفرق مناقشات وخصومات حول فكرها الديني .

ولنصر بن سيار قصيدة يهجو بها الحارث بن سريج الذي كان يقول بالإرجاء فيتهمه ومن معه من المرجئة بالشرك ومحاربة الإسلام ، قائلاً :

فَامْنَحْ جِهَادَكَ مِنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةً وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لَا يَصْلُونَا
وَاقْتُلْ مَوَالِيَهُمْ مَنَا وَنَاصِرَهُمْ حِينَا تَكْفَرُهُمُ وَالْعَنَهُمْ حِينَا
وَالْعَائِبِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهَسْمُ شَرِّ الْعِبَارِ إِذَا خَابَرْتَهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلَ اللَّهِ بُغْيَتَنَا لِبَعْدِ مَا نُكْبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَاقْتُلْهُمْ غَضَبًا لِلَّهِ مُنْتَصِرًا مِنْهُمْ بِوَدْعِ الْمَرْتَابِ مَفْتُونَا

(١) الديوان ص ٨٦ .
(٢) شعر زياد الأعجم ص ٧٦ .

إِرجاءُكم لَزَكُمُ وَالشِّرْكَ فِي قَرَنٍ
لَا يُعْمِدُ اللَّهُ فِي الْأَجْدَاثِ غَيْرَكُمْ
أَلْقَى بِهِ اللَّهُ رَغْبًا فِي نَحْوِكُمْ
وَهَلْ تَعْمِيُونَ مَنَا كَاذِبِينَ بِهِ
يَأْبَى الَّذِي كَانَ يُبْلِي اللَّهُ أَوْلَكُمُ
فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاقٍ وَمُرْجُونَا
إِنْ كَانَ دِينُكُمْ بِالْشِرْكِ مَقْرُونَا
وَاللَّهُ يُقْضِي لَنَا الْحَسَنَى وَيُقْلِلُنَا
غَالٍ وَسَهْتَضِمُ حَسْبِي الَّذِي فِينَا
عَلَى النِّفَاقِ وَمَا قَدْ كَانَ يُبْلِينَا (١)

ثالثاً : ينصب الهجاء - أحياناً - على حدث أو موقف تاريخي معين للفرد أو القبيلة
يتسم بتعارضه مع هذا الدين ، أو تعاليمه ، أو رجالاته . فيعمد الشعراء إلى
استغلال ذلك الحدث : أو الموقف ، ليوظفوه في هجائهم لخصومهم .

فالطرماح بن حكيم يعير تميمًا بسجاح التي تنتمي إليها ، والتي ادعت النبوة بعد
وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانضمت إلى مسيلة الكذاب ، فيقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ سَارَتْ سَجَاحُ بِقَوْمِهَا
فَدَارِسَهَا الْبِكْرِي حَتَّى اسْتَرْزَلَهَا
فَتَلَكْ نَبِيُّ الْحَنْظَلِيِّينَ أَصْبَحَتْ
فَلَمَّا أَتَتْ عَزَّ الْيَمَامَةَ حَلَّتْ
فَأُضْحَتْ عُرُوسًا فِيهِمْ قَدْ تَجَلَّتْ
مُضْمَخَةٌ فِي خَدْرِهَا قَدْ تَظَلَّتْ (٢)

ويعير جرير الفرزدق وقومه بني مجاشع بفنْدَرهم بالزبير بن العوام حوارى الرسول
صلى الله عليه وسلم وقتله على يد عمرو بن جرموز ، فيقول :

إِنِّي تَذَكَّرْنِي الزَّبِيرَ حَامِمَةً
قَالَتْ قَرِيشٌ مَا أَدَلَّ مَجَاشِعًا
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ غَدْرَ آلِ مَجَاشِعٍ
تَدْعُو بِمَجْمَعِ نَخْلَتَيْنِ هَدِيدًا
جَارًا وَأَكْرَمَ ذَا الْقَتِيلِ قَتِيلًا
نَقَلَ الرَّحَالَ فَأَسْرَعَ التَّحْوِيلًا

(١) الطبري ١٠١/٧

(٢) الديوان ص ٦٢

يا لهف نفسي إذ يفرك حبلهم
أبعد متركهم خليل محمد
ولو اظهروهم الأسنة بعد ما
لو كنت حراً يابن قين مجاشع
أفتى الندى وفتي الطعان غررتهم
قتل الزبير وأنتم جيرانه
هلاً اتخذت على القيون كيلاً
ترجو القيون مع الرسول سبيلاً
كان الزبير مجاوراً ودخيلاً
شيئت ضيفك فرسخين وميلاً
وفتي الشمال إذا تهب بليلاً
غياً لمن غر الزبير طويلاً (١)

ويميره-أيضاً-بنفي عمر بن عبد العزيز له من المدينة بسبب فجوره، بعد أن أجلسه
ثلاثة أيام ، فيقول :

زار الفرزدق أهل الحجاز
وأخزيت قومك عند الحطيم
وجدنا الفرزدق بالموسمين
نفاك الأغراب عبد العزيز
وشبهت نفسك أشقى ثمود
وقد أجّلوا حين حل العذاب
فلم يحظ فيهم ولم يحمد
وبين البقيمين والفرقد
خبث المداخل والمشهد
بحقك تنفي عن المسجد
فقالوا ضللت ولم تهتد
ثلاث ليالٍ إلى الموعد (٢)

ومن الواضح تأثير القصص القرآني في البيتين الأخيرين فهو يستمد هما من قصة
النبي صالح . والبيت الأخير يقتبسه الشاعر من قوله تعالى " فعقروها فقال تمتعوا
في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب " (٣)

(١) الديوان ١٠٨/١ ، وانظر ٣٦٢/١ ، ٤٧٥ ، ٤٩٢ .

(٢) نفسه ٨٤٢/٢ وانظر أيضاً ٣١٩/١ .

(٣) هود ٦٥ .

ويقول - أيضاً - مشيراً إلى ما يتمتع به الفرزدق من خصال تتنافى مع الدين ، فهو
أما يتسلق في الليل إلى بيوت جيرانه ليتعدى على نسائهم ، أو يركض في دور
البغاء خلف كل امرأة فاسدة :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً
وما كان جاراً للفرزدق مسلماً
يوصل حبله إذا جنَّ ليلته
أتيت حدود الله مذ أنت يافع
تتبع في الماخور كل مريسة
رأيتك لا توفي بجار أجرتك
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم
تدليل تزني من ثمانين قامسة
وجاءت بوزوز قصير القوائم
فيأمن قرداً ليلته غير نائم
ليرقى إلى جاراته بالسلالم
وشيت فما ينهك شيب اللهازم
ولست بأهل المحصات الكرائم
ولا مستغفراً عن لئام المطاعم
مداخل رجس بالخبيثات عالم
طهوراً لما بين المصلّى وواقم
وقصرت عن باع الصلأ والمكارم (١)

وإذا كان جرير يعير الفرزدق بفد رقومه بالزبير ، وينفيه من المدينة ، فإن الفرزدق
- أيضاً - يعير جريراً بمناصرتة لقبيلة قيس التي خرجت على الخلافة الإسلامية بنصرتها
لمعبد الله بن الزبير ، فيتهمه بالخروج عن الجماعة السلمة ، وعصيان ولاية الأمر .
يقول الفرزدق :

ندمت على العصيان لما رأيتنا
على طاعة لو أن أجبال طي
لينقلنّها لم يستطعن الذي رسنا
وألقيت من كفيك حبل جماعة
كأنّا ذرى الأطوار ذات المخارم
عمد ن لها والهضب هضب التهام
لها عند عال فوق سبعين داعم
وطاعة مهديّ شديد النقائم (٢)

(١) الديوان ٢ / ١٠٠٠

(٢) الديوان ٢ / ٣١١

ويعرض الأحوص الأنصارى بأُم جميل حمالة الحطب في بيتين يخاطب بهما الفضل
اللهبي ، فيقول :

ما ذاتُ حبلٍ يراهُ الناسُ كلُّهم وسطَ الجحيمِ ولا يخفى على أحدٍ
كلُّ الحبالِ حبالُ الناسِ من شَمَرٍ وحبلُها وسطُ أهلِ النارِ من مَسَدٍ (١)
ويعير الحزين الكنانى الفضل اللهبي - أيضاً - بجده أبي لهب وزوجته أُم جميل ،
قائلاً :

إِذَا مَا كُنْتَ مُفْتَخِرًا بِجَدِّكَ فَعَرَّجْ عَنْ أَبِي لَهَبٍ قَلِيلًا
فَقَدْ أَخْزَى إِلَهُ أَبَاكَ دَهْرًا وَقَدْ عَرَّسَهُ حَبْلًا طَوِيلًا (٢)

رابعاً : استفاد الشعراء من ثقافتهم الإسلامية ، وما استوعبوه مما جاء به الإسلام
من العقائد والتشريعات ، فاستقوا منها ما يساعدهم على إعطاء هجائهم قوة فني
مضامينه ، وعلى تكوين الصور الفنية التي تخدم أفكارهم الشعرية .
فالطرماح بن حكيم يهجو تميمًا ، فيتهمها بالجبن والخشية من الأزد ، من
خلال رسمه لصورة فنية ساخرة لها . فهي تحجم عن ورود الحوض يوم القيامة
خشية من الأزديين ، كما أنها تصر على عدم قتالهم حتى لو هدها الله بعذاب
منه .

(١) الديوان ص ١١١ .

(٢) ديوان أشعار الموالى ١٦٥/١ .

يقول الطرماح :

لو حانَ وِرْدُ تَعْمِيمٍ ثُمَّ قِيلَ لَهَا
 أو أنزلَ اللهُ وَحْيًا أَنْ يَعَذِّبَهَا
 حَوْضُ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الْأُزْدُ لَمْ تَرِدْ
 إِنْ لَمْ تَعُدْ لِقِتَالِ الْأُزْدِ لَمْ تَعُدْ (١)
 ويصف الطرماح بني أسد بحقارة الشأن بين الناس ، حتى إن أمرهم يخفى على
 الرحمن إن كان يخفى عليه من خلقه شيء ، قائلاً :

لو كان يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ خَافِيَةٌ
 من خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو أُسْدٍ (٢)
 وتحقيراً لشأن بني جرم ، يزعم زياد الأعجم أن الله قد جعلهم آخر خلقه بعد
 أن خلق جميع القبائل ، فيقول :

قَضَى اللهُ خُلُقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمْ
 بَقِيَّةَ خَلْقِ اللهِ آخِرَ آخِرٍ (٣)
 وهذا التحقير هو الذي يتبادر إلى الذهن عند قراءة قول الفرزدق يهجو فزارة :
 ولقد علمتُ لئن فَزَارَةً أَسَّرتُ
 أن سوفَ تطمَعُ في الإمارةِ أشْجَعُ
 إن القيامةَ قد دنتُ أشراطُها
 حتَّى أُمِيتَ عن فزارةٍ تنزعُ (٤)

فهو يجعل تولية فزارة الإمارة من أشرط الساعة .

ويهجو زياد الأعجم الأشقرين ، فيتهمهم بالبخل عن طريق غير مباشر . فهو
 يصور ضيفهم صائماً بالأكراه ، قائلاً :

قَبِيلَةُ خَيْرُهَا شَرُّهَا
 وَأَصْدَقُهَا كَاذِبُ الْآثِمِ
 وَضِيفُهُمْ وَسَطُ أَبْيَاتِهِمْ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَائِمًا صَائِمُ (٥)

(١) الديوان ص ١٦١ .

(٢) نفسه ص ١٦٦ .

(٣) شعر زياد الأعجم ص ٧٢ .

(٤) الديوان ٤٠٨/١ .

(٥) شعر زياد الأعجم ص ٩٨ .

ويظهر المساور بن هند العبسي كراهيته الشديدة لبني أسد لحقارة شأنهم ، فهو يتنازل عن متع الدنيا والآخرة على أن تربطه بهم رابطة نسب أو مصاهرة .
يقول المساور :

مَا سَرَّنِي أَنَّ أُمَّيْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَأَنَّ رَبِّي يَنْجِيْنِي مِنَ النَّارِ
وَأَنَّهُمْ زَوْجُونِي مِنْ بَنَاتِهِمْ وَأَنَّ لِي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفُ دِينَارٍ (١)

ويرسم الحزين الكنانى صورة في منتهى السخرية لرجل بخيل ، فهو يتيم في البر وفي البحر خوفاً من أن تبطل يده مما يدل على الندى . يقول الحزين :

كَأَنَّمَا خُلِقْتُ كَقَاءٍ مِنْ حَجَاسٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْندَى عَمَلُ
يَرَى التَّيْمَ فِي بَرٍّ وَفِي بَحَرٍ مَخَافَةً أَنْ يُسْرَى فِي كَفِّهِ بَلَلُ (٢)

وبعد . . فقد وجد الهجاء الدينى في العصر الأموي في ظل الحياة الجديدة التي أوجدها الإسلام بما يحمله من قيم وتعاليم سامية أثرت دون شك على الشعراء الهجائيين آنذاك ، فاستلهموا منها مضامينهم الشعرية ، وتثقل ذلك في تعبيرهم بالنصرانية التي ألفاها الإسلام ، وبسخريتهم من طقوسها الدينية ، وما تحمله من تعاليم وعادات تتنافى مع الإسلام . كما اتخذت المثل الإسلامية مكانها عند الهجائيين حيث اتخذوها منهجاً لمهاجمة خصومهم إلى جانب المثل القديمة ، فهم يهجون باؤتكاب المعاصي من زنا ، وشرب خمر ، وترك للصلاة ، وتهاون في أداء الفرائض الدينية . كما تناولوا بهجائهم بعض الظواهر السلبية في المجتمع الإسلامي من نفاق ورياء وما إليها .

(١) الشعر والشعراء ٣٥٥/١

(٢) ديوان أشعار الموالى ١٦٤/١

وإذا ما أدركنا أن جزءاً من هذا الشعر المتأثر بالإسلام لا يمد وأن يكون
غير مقطوعات قصيرة سادها المضمون الديني ، أدركنا إلى أي مدى كان هذا
التأثير واضحاً على شعر الهجاء آنذاك .

” ” الفصل الرابع ” ”

((موضوعات أخرى))

١ - الفخر

الفخر كما عرفه أحد النقاد القدامى " هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخصص به نفسه وقومه " (١) وعلى الرغم مما فيه من التباهي والغرور الممقوت ، فإنه مقبول في الشعر كما يذكر ابن رشيق حين يقول " ليس لأحد من الناس أن يطرئ نفسه ويمدحها ، في غير مفاخرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز له في الشعر ، غير معيب عليه " (٢)

ويحاول أحد الدارسين المحدثين تفسير ذلك بقوله " إن القارئ للشعر يتعاطف مع الشاعر ويشاركه مشاعره حين يتغنى بالمثل العليا ، فيكون قد عبر عن خواطر وأمنيات القارئ " (٣)

ويرتبط الفخر ارتباطاً شديداً بالهجاء . فهما يمثلان محور شعري العصبية القبلية . فكما يهجو الشاعر القبائل الأخرى ، ويحاول الغض من مكانتها ، يندفع في مدح قبيلته وإظهارها هي عليه من مكانة وإبراز ما لديها من قدرات حربية وفضائل إنسانية .

(١) العمدة ١٤٣/٢

(٢) نفسه ٢٥/١ .

(٣) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص ٣٠١ .

وقد كان الفخر الجاهلي - كما تعبر عنه النصوص الشعرية القديمة - يعتمد على التغني بالفضائل الخلقية التي يمتلكها الشاعر أو قبيلته ، والتي كانت محل اعتزاز الفرد في الجاهلية . وكانت تدور حول الشجاعة ، والكرم والنخوة ، وحسن الجوار ، واطعام الفقراء . إلى جانب الافتخار بالنسب ، وبذكر الوقائع والأيام الظاهرة التي خاضتها القبيلة وكانت محل اعتزازها ، مما جعل الفخر سجلاً حافلاً للقبائل العربية قبل الإسلام .

وهذا النمط من الفخر استمر عند شعراء صدر الإسلام ، حيث استندوا عليه في مفاخراتهم للمشركين . وهو أمر يفرضه الواقع الشخصي والتاريخي للشعراء ، فهم ممن اكتملت مواهبهم الشعرية في العصر الجاهلي ، وكان النموذج الجاهلي يحكم تجربتهم الشعرية لتعودهم عليه . كما أنهم كانوا يفاخرون بشعرهم للمشركين ، وليس طبيعياً أن يفاخروهم بمفاهيم الإسلام وهم لم يؤمنوا به ، وإنما بما هو مفهوم لديهم .

ويستثنى من ذلك بعض الأبيات الشعرية التي تتناثر هنا وهناك وخاصة في شعر الفتوح الإسلامية ، والتي تنم عن روح إسلامية صرفة (١) .

وقد شهد العصر الأموي عودة العصبية القبلية ، والتي انطلقت شرارتها الأولى بعد الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ، وما تلا ذلك من أحداث ومعارك

(١) انظر شعر الفتوح الإسلامية ص ٢٥٠ ، ٢٦٧ وما بعدها .

انتهت بقيام الدولة الأموية . وقد حرص الأمويون على عودة العصبية القبلية فعرضوا بين القبائل ، واستخدموا في ذلك شتى الوسائل والطرق ، وعملوا جاهدين على زرع بذور الفتنة والشقاق فيما بينها ، ولهذا قربوا بعض القبائل وأغدقوا لها العطاء ، وأبعدوا أخرى وحرموها منه . وقد ساعد ذلك على عودة شعر العصبية بما يمثل من فخر وهجاء .

وقد كان الفخر في هذه الفترة لا يختلف كثيراً عن نظيره في العصر الجاهلي ، لأن المحرك الأساسي له هو العصبية القبلية التي عمل الإسلام على الغائها . فقد اعتمد الشعراء على ذكر الوقائع والأيام التي كانت لقبائلهم في الجاهلية ، أو التي حدثت في الإسلام وكان يحركها التعصب القبلي . وإلى جانب إشادتهم بالفضائل الخلقية التي كانوا متمسكين بها ، والتي ظلت لها قيمتها الملموسة في ظل الإسلام كالكرم ، والشجاعة ، والنخوة وما إليها .

غير أن هذا لا يعني أبداً أن الفخر الأموي كان جاهلياً خالصاً . فقد ظهرت عليه بعض العلامح الجديدة التي ترجع إلى تأثير الإسلام على شعراءه ، والتي يمكن أن نسميها بالفخر الديني . وقد كان هذا اللون من الفخر يتحرك في القصيدة الأموية عبر اتجاهات ثلاثة هي :

١ - الفخر بالإسلام والانتماء إليه . وهو اتجاه نادر ، وهذا يرجع إلى كون العصبية القبلية التي يحاربها الإسلام كانت هي المحرك الأساسي لشعر الفخر آنذاك .

وتمثل هذا الاتجاه في تلك الأبيات التي تنسب إلى عيسى بن فاتك الخطي وإلى نهار بن توسعة - وهي إلى روح الخوارج أقرب - ، ويعبر فيها شاعرها عن رفضه لكل انتماء غير انتمائه العقندي إلى الإسلام الذي هو مصدر فخره واعتزازه ، مؤكداً على سقوط جميع المعايير التي تقوم على النسب في المفاضلة بين الناس ، لأن التقوى هي المعيار الوحيد للتفاضل .

يقول الشاعر :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا فخرُوا بيكسرٍ أو تميم
كلا الحيين ينصُر مدعيه ليلحقه بذِي الحَسْبِ الصميم
وما حَسْبٌ ولو كرمت عروق ولكنّ التقيّ هو الكريم (١)

وهذا المعنى الجديد في الفخر نلمسه عند عمران بن حطان ، الذي يؤكد على انتمائه الإسلامي فيقول :

فنحنُ بنو الإسلام واللّه ربُّنا وأولى عبادِ اللّهِ باللّه من شَكَر (٢)

وقد يعمد الشاعر إلى الفخر بالمشاعر الدينية الإسلامية ، إذا كان فخره موجهاً إلى غير المسلمين . وهذا ما فعله جرير في مفاخرته للأخطل النصراني ، فهو يظهر اعتزازه بأداء الصلاة ، وبالأذان ، وبالمساجد وهي عناصر دينية ترتبط بالإسلام ووجدت معه .

(١) شعر الخوارج ص ٧٢ .

(٢) نفسه ص ١٨٣ .

يقول جرير :

اللهُ فضَّلنا وأخزى تغلباً لن تستطيعَ لما قضَى تغـييراً
فينا المساجدُ والإمامُ ولا تَرى في آل تغلبَ مسجداً معموراً (١)
ويقول أيضاً :

إن الذي حَرَّمَ المكارمَ تغلباً جعلَ النيةَ والخلافةَ فينا
هل تملكونَ من المشاعرِ مشعراً أو تشهدونَ مع الأذانِ أزيناً (٢)
بل ويفخر عليه بالمصير الذي سيؤول إليه يوم القيامة ، فجرير وقومـه
سيفضلون تغلب النصرانية يومئذ .

يقول جرير :

لنا الفضلُ في الدنيا وأنفك راغمٌ ونحنُ لكم يومَ القيامةِ أَفضَلُ (٣)

٢ - عمد الشعراء إلى تاريخ قبائلهم في ظل الإسلام ليستلهموا منه موقفاً تاريخياً ،
أو دوراً هاماً قامت به القبيلة ، أو قام به أحد أفرادها في خدمة هذا
الدين ، وذلك لكي يجميلوا منه مدار فخرهم .

فالفرزدق يفخر بالدور الهام الذي قام به اياس بن قتادة السعدي
وعبدالله بن حكيم المجاشعي ، في إخماد الفتنة التي حدثت في البصرة
سنة ٦٤ هـ ، مما ساهم في حقن دماء المسلمين ، فهو يقول :

(١) الديوان ٢٢٩/١ .

(٢) الديوان ٣٨٢/١ .

(٣) الديوان ١٤٣/١ .

حقناً دماء المسلمين فأصبحتُ لنا نعمةً يثنى بها في المواسمِ
عشيةً أعطتنا عُمانُ أمورها وقدنا معداً عنوةً بالخزائنِ
ومنّا الذي أعطى يديه رهينةً لفاري معدّ يومَ ضربِ الجماجمِ
عشيةً سألَ المريدانِ كلاهما عجا جةً موتٍ بالسيوفِ الصوارمِ (١)
ويفخر في القصيدة ذاتها بما قام به الأقرع بن حابس عندما كلم رسول الله
صلى الله عليه وسلم في أصحاب الحجرات، وهم من بني عمرو بن جندب
ابن العنبر بن عمرو بن تميم. فقال له : يا رسول الله أردد سبائنا قومي
وأنا أحمل الدماء ، فاستجاب له النبي صلى الله عليه وسلم فرد السبي
وحمل الأقرع الدماء عن قومه. (٢)

يقول الفرزدق :

وعند رسول الله قام ابنُ حابسٍ بخطةٍ سوارٍ إلى المجدِ حازمٍ
له أطلقَ الأسرى التي في حبالِهِ مفللةً أعناقها في الأداةِهم
كفى أمهاتٍ الخائفينَ عليهمُ علاءَ المُفَارِى أوسهامِ الساهِمِ (٣)

ويلح الفرزدق على ذلك فيقول من قصيدة أخرى :

ومنّا الذي أعطى الرسولَ عطيةً أسارى تميمَ والعيونَ دواً معاً (٤)

-
- (١) الديوان ٣١٨/٢ .
(٢) النقائض ٧٤٧/٢ .
(٣) الديوان ٣٢٠/٢ .
(٤) الديوان ٤١٨/١ .

وافتخر الأحوص بجده عاصم بن ثابت الذي حمت لحمه الدبر يوم الرجيع
بعد استشهاده ، كما افتخر بخاله حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة
يوم أحد ، قائلًا :

فخرت وانت فقلت ذريتي ليس جهل اتيتو بيد يسع
فأنا ابن الذي حمت لحمه الدبر قتيل اللحيان يوم الرجيع
غسلت خالي الملائكة الأبرار ميتاً طويلى له من صريع (١)
ويفتخر جرير بما قام به الخوارج - ومعظمهم من تميم - ، عندما استجابوا
لاستجارة عبدالله بن الزبير لما حصره أهل الشام في مكة ، فدافعوا معه
عن المسجد الحرام ، فيقول :

عن المنبر الشرقي زادت رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حظيها (٢)
وأصبحت الفزوات الإسلامية التي خاضها الأوس والخزرج إلى جانب
الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما تلاها من قتال للمرتدين ، مصدر فخر
 واعتزاز لعبدالرحمن بن حسان . حيث يعتمد في قصيدة طويلة يرد بها
على مسكين الدارمي إلى التغني بنصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ،
 وإيمانهم بما جاء به من الصدق عندما كذب به قومه وآذوه . فيفتخر
 بوقوفهم إلى جانبه في بدر ، والأحزاب ، ويوم الفتح ، وحنين ، ويمتدح
 بصبرهم على مصائبهم الجليلة لكون رسول الله فيهم ، ثم يفتخر بقتالهم
 للمرتدين في بزاخة ، وفي اليامة .

(١) الديوان ص ١٥٧ .

(٢) الديوان ٩٨٦/٢ .

يقول عبد الرحمن (١) :

فلا فرحٌ إذا نلنا منّا^٢ لأنّ محمداً فينا فلسنا
فسائلٌ عن بلائهم ببسدرٍ
ولا جزعٌ لأيام المشال^(٢) وإنّ جلت مصيبتنا نبالي
وقد يشفى العمى عند السؤال

.....

وسائلٌ عنهم الأحزاب لما هجمناهم فخرت كالثلال^(٣)

.....

ويوم الفتح قد علموا بأننا وطئناهم بواهضة ثقال^(٤)

.....

فسائلٌ عن حنينٍ يوم ولست ونادانا بنصرتنا منارٍ
وما فينا غريبٌ من سوانا فوافينا الرسول فقال شدّوا
فما صبروا لشدّتنا ولكنّ وأيام سواها قد ذهبنّا
وآسينا الرسول ومنّ أتانّا
جموع المسلمين على تـكـوـالٍ فنبتنا نوب ألفة الفحال
نؤم إلى النبوة كالجمـكـال بمرور اللـه واسمـه ذي الجلال
تولوا مجهضين عن القتال^(٥) بسبقه مجدها أخرى الليالي
بصدق ما يقول بكسل حال

(١) الديوان ص ٣٩

(٢) المثال : القصاص .

(٣) الثلال : واحدها الثلة ، وهي

(٤) الوهضة : المطمئن من الأرض .

(٥) مجهضين : مغلوبين على أمرهم .

جماعة الغنم أو الكثرة منها .

فَنَحْنُ أُولُو مَوَازِرٍ وَنَصْرٍ نَكَافُهُ وَنَمْنَعُ مِنْ يُوَالِي
فَسَلُّ عَنَّا الْقَبَائِلَ حِينَ رَدَّتْ عَنِ الْإِسْلَامِ كَالْبَقْرِ الْيَمَالِ
فَوَافِينَا بُزَاخَةً غَيْرَ مِيْلٍ وَلَا خَرَقٍ بِمَعْتَزِلِ النَّزَالِ

.....

وَقَدْنَا لِلْيِمَامَةِ كُلِّ طَرَفٍ أَقْبَى مَقْلَصٍ نَهْدٍ طَوَّالٍ (١)
يُرِيدُ لِقَاءَ كَذَّابٍ لَثِيمٍ سَيْلَمَةَ الْمَصْرِ عَلَى الضَّلَالِ

....

ويفاخر الطرماح بن حكيم الفرزدق بدور القحطانيين في نصرة الرسول
صلى الله عليه وسلم ، فيقول :
قحطانُ تضربُ رأسَ كلِّ مُتَوَجٍّ وعلى بصائرِها وإذا لا تُبْصِرُ
في عزِّنا انتصرَ النبيُّ مُحَمَّدٌ وبنا تثبتَ في رِمَشَقِ الْيَنْبَرِ (٢)
والى جانب فخره بنصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، يفتخر بقتالهم
للمرتدين بعد وفاة الرسول ، قائلاً :

ويفتقُ جَانِبُنَا وَنَرْتَقُ فَتَقَهُ إِذَا مَا عَظِيمَاتُ الْأُمُورِ اسْتَجَلَّتْ
بجيشٍ من الأنصارِ لو قد فُؤَا بِمِ شَمَارِيخَ رِضْوَى الشَّامِخَاتِ لَخَرَّتْ
إِذَا الْمَنْبَرُ الْغُرْبِيُّ زَعَزَعَ مَتْنُهُ وَطَدْنَا لَهُ أَرْكَانَهُ فَاسْتَقْسَرَتْ
بِهِمْ بَيَاضُ اللَّهِ الْخَلَافَةَ كُلَّمَا رَأَوْا نَعْلَ صَنْدِيدٍ عَنِ الْحَقِّ زَلَّتْ

(١) الطرف : الكريم من الخيل، نهْد : غليظ ، الطوال : الطويلة .

(٢) الديوان ٢٥١ .

بهم نصر الله النبي وأثبتت
وهم دمفوا بالحق أيام خالد
شياطين من قيس وخندف غرها
من الله ما كانت سجاج تمت (١)
ويفتخر بيوم بزاخة ، قائلاً :

ونحن ضربنا يوم ينفى بزاخة
معداً على الإسلام حتى تولت (٢)
وقد يستلهم الشاعر من سيرته الشخصية موقعاً اتسم فيه بالالتزام الديني
ليفخر به ، كما فعل ذو الرمة عندما افتخر ببعده عن قذف المحصنات
المؤمنات قائلاً :

فلم أقذف لمؤمنة حصان
بحمد الله موجبة عضالا (٣)
وهذا ما نجده عند مسكين الدارمي الذي يقول :
وإنني سألقى الله لم أرم حرة
ولم تتمن يوم سرفختها
ولا قانف نفسي ونفسي بريئة
وكيف اعتذاري بعد ما قد قذفتها (٤)

٣ - كان انتماء الرسول صلى الله عليه وسلم القبلي مجالاً خصباً حيث وظفه
الشعراء في فخرهم بقبائلهم أو عشيرتهم التي تلتقي مع الرسول صلى
الله عليه وسلم في النسب .

-
- (١) الديوان ص ٥٣ .
 - (٢) الديوان ص ٦١ .
 - (٣) الديوان ص ٥٢٧ .
 - (٤) الديوان ص ٢٧ .

ففخر عبید الله بن قیس الرقیات فی همزیتته المشهورة بانتساب النبی صلی الله علیه وسلم إلی قریش ، كما فخر بانتماء الصفوة المختارة من أصحابه إلیها، فقال :

لو بکت هذا السماء علی قوم کرام بکت علینا السماء
نحن منّا النبی الأبی والصّدیق منّا التقی والخلفاء
وقتل الأحزاب حمزة منّا أسد الله والسناء سنننا
وعلى وجعفر وذو الجناحین هناك الوصی والشهداء
والزیر الذي أجاب رسول الله فی الكرب والبلاء بلاء (١)
ویفتخر عروة بن أذينة اللیثی الكنانی بقریش - أيضاً - ذاکراً الدور الذي
اضطلع به الرسول صلی الله علیه وسلم فی تبلیغ رسالة ربه ، وهدایة
الناس بعد ضلالهم ، فیقول :

منّا الرسول خیر الناس کلّهم ولا نحاشی من الأقوام إنسانا
وذاك نور هدی الله العباد به من بعد خبطهم صمّاً وعیاننا
فأبصروا فاستبان الرشد مشعرة بعد الضلال قلوب الناس إیماننا (٢)
ویتكرر هذا الفخر بالنبی فی قصيدة أخرى حیث یقول :

منّا الرسول وأهل الفضل فضلهم منّا وصاحبه الصدیق فی الفار
من عدّ خیراً عدّنا فوق عدّتهم من طیین نسیمهم وأبرار (٣)

(١) الديوان ص ٩٠ .

(٢) الديوان ص ١٣٤ .

(٣) الديوان ص ٢٠٦ وانظر أيضاً الصفحات ٢٣٥ وما بعدها ، ٢٨٦ .

ويقول الفضل بن العباس اللهي داعياً عمر بن أبي ربيعة المخزومي للفخر
بالنبي صلى الله عليه وسلم :

قل يا بنَ مخزومٍ لكلِّ مفاخرٍ منّا المباركُ والرسالةُ أَحْمَدُ
ماذا يقولُ ذوو الفخارِ هنالكُم هيهاتَ ذلك هل يُنالُ الفرقدُ (١)
ويفاخر عبد الرحمن بن الحكم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بقرشيتيه ،
فيقول :

لنْ يسلبَ اللهُ أهلَ الدينِ دينهمْ ولنْ تعودَ فروعُ الناسِ أذنانا
منّا الرسولُ ومنّا من يلاذُ بـ ومنّا نزالَ لهذا الدينِ أربابا (٢)
ويفخر ذوالرمة بمضر التي ينتمي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم
ويظهر اعتزازه بأنه ابن خليل الله ابراهيم الذي عمر الكعبة المشرفة ،
والتي جعل الله ولايتها في مضر ، فيقول :

إذا مضى الحمراء عبّ عابها فمن يتصدى موجها حين تطهر (٣)
أنا ابنُ النبينِ الكرامِ ومن دعا أباً غيرهمْ لا بدّ عن سوف يقهر (٤)
ألم تعلموا أنّي سموتُ لمن دعا له الشيخُ ابراهيمُ والشيخُ يذكرُ
ليالى تحتلُّ الأباطحَ جرهمُ وإنّ بأبيننا كعبةُ الله تعمّرُ
نبيُّ الهدى منّا وكلُّ خليفةٍ فهل مثلُ هذا في البرية مفخرُ

-
- (١) الأغاني ١٨٩/١٦ .
(٢) الأخبار الموفقيات ص ٢٥٤ .
(٣) عبّ عابها : ماج موجها .
(٤) عن سوف : يريد أن سوف .

لنا الناسُ أعطانا هم اللهُ عنوةً ونحنُ له واللهُ أعلى وأكبرُ
أنا ابنُ معدٍّ وابنُ عدنانَ انتمي إلى منْ له في العزِّ وزنٌ ومصدرُ
لنا موقفُ الداعينَ شعناً عشيّةً وحيثُ الهدايا بالمشاعرِ تنحدرُ
وجمعٌ وبطحاءُ البطاحِ التي بها لنا مسجدُ الله الحرامُ المطهرُ (١)
وهذه المعاني في الفخر تترد كثيراً عند شعراء مضر في العصر الأموي.

يقول الفرزدق :

عرفَ القبائلُ أننا أربابُها وأحقُّها بمناسكِ التكبيرِ
جعلَ الخلافةَ والنِّبوةَ ربُّنا فينا وحرمةَ بيتِهِ المعمورِ

...

منا النبيُّ محمدٌ يجلى به عنا العمى بمصدقٍ مأمورِ
خيرُ الذين وراءه وأمامه بالمكرماتِ مبشرٌ ونذيرُ
إن النبوّةَ والخلافةَ والهُدى فينا وأولُ من دعا بطهورِ (٢)

ويقول أيضاً يفخر بخندف :

منا الخلائفُ والنبيُّ محمدٌ واليهُم ملكُ العبادِ يصيرُ
أحياءنا خيرُ البرية كلِّها وقبورنا ما فوقهنَّ قبورُ
وإذا رفعتَ لواءَ خندفَ قصرتُ عنه العيونُ فطرفُها مقصورُ
أبناء خندفَ إن نسيتَ وجدتهم رهطُ النبيِّ لواءهم منصورُ (٣)

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) النقااض ٩١٢/٢ .

(٣) الديوان ٢٩٧/١ .

ويقول جرير بن عرادة يفاخر الزعل الجرمي :

ومنا رسولُ الله أُرْسِلَ بالهُدَى وَأَنْتَ مَعَ الْجَحَّارِ سَحَّارِ بَابِلِ (١)

ولم يجعل الله النبوةَ فيكمُ ولا كنتمُ أهلاً لتلك الرسائلِ (٢)

ويقول جرير يفاخر الأخطل التغلبي :

كذلك أعطى الله قيساً وخندفاً خزائنَ لم يُفْتَحْ لتغلبَ بابها

ومنا رسولُ الله حقاً ولم يزلْ لنا بطنُ بطحاوي منى وقبائها (٣)

ويتضح من كل ما سبق أن شعر الفخر في العصر الأموي قد ظهرت عليه بعض الملامح الجديدة التي اكتسبها من تأثير الإسلام على شعرائه . أما قلتها فهو أمر حتمي ، حيث إن دواعي الفخر في هذا العصر لم تختلف عنها في العصر الجاهلي ، إذ أن العصبية القبلية كانت هي المحرك لهذا اللون الشعري ، مما كان سبباً في اعتماد الشعراء على المثل القديمة في فخرهم .

(١) يعني المختار الثقفي .

(٢) النقائض ٣٧٠/١ .

(٣) الديوان ٦٢٦/٢ .

٢ - شعر الصعاليك

الصعلوك في اللغة هو "الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري ولا اعتماد
وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك ، قال حاتم الطائي :
غنيما زماناً بالتَّصْعَلِكِ والفِسْنَى فكلاً سقناه بكأسيهما الدهرُ"
أما في مفهوم الدارسين فهو كل من يتخذ من السطو والنهب وقطع الطريق وسيلة
يحقق بها عيشه .

والتصعلك ظاهرة قديمة عرفها العصر الجاهلي ، واشتهر من شعرائها
عروة بن الورد ، وتأبط شراً ، والسليك بن السليكة ، وعمرو بن برة الهمداني
والشنفرى وغيرهم .

وقد كان خلف هذه الظاهرة بعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية
السائدة آنذاك . إذ كانت الحالة الاقتصادية السيئة لبعض أفراد القبائل
تدفعهم إلى اتخاذ التصعلك منهجاً لحياتهم ، وذلك في سبيل الوصول إلى
حياة أفضل في ظل فقدان التكافل الاجتماعي بين أفراد القبيلة الواحدة . كما
أن بعض القبائل العربية كانت تتخلى عن بعض أبنائها فيصبحون من طائفة
الخلعاء والشذاز ، مما يجعلهم يتخذون من القوة سبيلاً لتحقيق حياة جديدة
لهم بعيداً عن قبائلهم . (٢)

-
- (١) لسان العرب مادة صعلك ، ومعنى غنيما أي عشنا .
(٢) انظر كتاب الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص ٦٣ وما بعدها .

وفي عصر صدر الاسلام هدأت حركة الصعلكة ، وكان للحياة الدينية الجديدة أثر في ذلك . فلقد ألزم الإسلام أتباعه بفروض وواجبات دينية وحارب الظلم والعدوان ، ودعا إلى إزالة الفوارق الاجتماعية التي كانت تشير النزاع والخصومة بين الأفراد والجماعات ، وأرسى بدلها قواعد اجتماعية تقوم على الأخاء والمحبة .

والصعلكة - كما عرفنا - كان من أحد دوافعها في العصر الجاهلي هو الظلم الاجتماعي الذي وقع على بعض أفراد المجتمع ، دون أن يكونوا قادرين على حماية أنفسهم والدفاع عنها . لذا فعندما جاء الإسلام قضى على مثل هذه المشكلة من جذورها بأن جعل الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة ، وفرضها وجعلها حقاً معلوماً تؤخذ من مال الغني وتقدم للفقير والمحتاج . وبذلك أصبح للفقراء حق معلوم في أموال الأغنياء ، ولم يكتف الإسلام بذلك، بل دعا المسلمين وحشهم على الإنفاق في أكثر من موضع ومناسبة في القرآن الكريم (١) .

وبذلك أوجد الإسلام تكافلاً اجتماعياً، ودعا إلى إقامة عدالة اجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم لم يعرفه العصر الجاهلي من قبل .

كما وضع العقوبات التي تردع كل من تسول له نفسه نهج طريق الإجرام لإرضاء رغباته . فأمر بقطع يد السارق " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء

(١) انظر مثلاً البقرة ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، إبراهيم ٣١ ، الحديد ٧ ، المنافقون ١٠ .

بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم " (١)، كما شرع القصاص في القتل
" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد
بالعبد والانس بالانس " (٢). وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين
على تنفيذ هذه العقوبات فيمن يستحقها .

يضاف إلى ذلك أن المسلمين انشغلوا بحركة الفتوح التي أتاحت لكل
من يرى في نفسه روح الفروسية أن ينطلق مع الفاتحين ليرضي رغباته . خاصة
وأن هذه الفتوح كانت تعود عليهم بالفنائم الوفيرة التي تكفل لهم حياة
سعيدة .

وقد عاد الصماليك إلى الظهور بشكل واضح في العصر الأموي ، وقد
كان وراء ذلك - كما يرى د . حسين عطوان (٣) - عدد من العوامل يمكن
تلخيصها فيما يلي :

١ - العامل الاقتصادي : فقد كانت الدولة الأموية تغدق الأموال والعطايا
على القبائل العربية التي كانت تناصرها ، أما القبائل التي لا تفعل ذلك
فهي تحرم من هذه العطايا ، بل وكان عمال بني أمية يعاملون
أفرادها بقسوة ، ويفرضون عليهم الضرائب الباهظة . فكان بعضهم
يلجأ إلى الشكوى للخلفاء كما فعل الراعي النميري (٤) وغيره ، وكان
آخرون يتخذون من القوة والتمرد سبيلاً لنيل حقوقهم .

(١) المائدة ٣٨ .

(٢) البقرة ١٧٩ .

(٣) الشعراء الصماليك في العصر الأموي ص ٣٢ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ٦١ .

٢ - العامل الاجتماعي : فقد عادت إلى الحياة العربية في العصر الأموي بعض الغزعات القديمة التي أخذت بها القبائل من جديد . وكان من ذلك عادة الخلع التي كانت القبائل تلجأ إليها في سبيل التخلص من المجرمين من أبنائها ، فكان هؤلاء يهيمون بعيداً عن قبائلهم ، وزاد من شقائهم أن الدولة أخذت تطاردهم ، فاتخذوا طريق التصعلك وسيلة يعيشون عليها .

٣ - العامل السياسي : فقد علمنا في التمهيد لهذا البحث أن العصر الأموي لم يكن فترة هادئة من الناحية السياسية ، وإنما كان عصر قلق واضطرابات أحدثها تغيير الأمويين لنظام الحكم ، حيث وجدت بعض الأحزاب المعارضة للدولة ، والتي دخلت معها في صراع شديد أدى إلى ظهور بعض الصعاليك السياسيين ، الذين رفضوا الانتماء إلى أحد من الفريقين ، وقرروا تكوين دولة الصعاليك الخاصة بهم .

وقد شهد العصر الأموي عدداً غير قليل من الأسماء الشعرية التي انتمت إلى الصعاليك كمالك بن الربيع (١) ، وعبيد بن أيوب العنبري (٢) وطهمان بن عمرو الكلابي (٣) ، والأهيمر السعدي (٤) ، والقتال الكلابي (٥) وأبو النشاش (٦) ، ويملى الأحول الأزدي (٧) ، وغيرهم .

(١) الأغاني ٢٢/٢٨٦ ، الشعر والشعراء ١/٣٦٠ ، معجم الشعراء ص ٣٦٤ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٧٨٨ ، سمط اللاكي ١/٣٨٤ .

(٣) سمط اللاكي ١/٤٧٣ .

(٤) المؤلف والمختلف ص ٣٦ ، الشعر والشعراء ٢/٧٩١ .

(٥) الأغاني ٢٤/١٦٩ ، الشعر والشعراء ٢/٧٠٩ .

(٦) الأغاني ١٢/١٧١ .

(٧) نفسه ٢٢/١٤٧ .

والباحث العلم بحياة الصالحين واللصوص ، والمتفهم لطبيعتها التي تتنافى في مسارها مع تعاليم الإسلام وقيمه التي ترفض اتخاذ السرقة وقطع الطرق وسيلة للعيش ، بل وتوجب إقامة الحد على كل من يفعل ذلك ، قد يستبعد أن يتأثر شعراؤهم بالإسلام ، غير أن الواقع يخالف ذلك . فالنتاج الشعري لهذه الفئة لا يخلو من بعض الومضات الدينية التي تعطى مدلولاً على تأثرهم بمفاهيم هذا الدين . وهو أمر يفرضه واقع انتمائهم له .

إن شعر الصالحين ينسب عن علاقتهم القوية بالله ، فهم لا يترددون عن اللجوء إليه في مختلف أحوالهم . أثناء تصعلكهم ، أو وهم في السجن ، أو عند إعلانهم توبتهم .

فهذا أبو حردبة المازني يرجو من الله أن يشيمه بزمرة من الفوارس أمثاله ، يواصل بهم سبيل التصعلك ، قائلاً :

فهل الإله يُشِيعُنِي بفِـؤَارِسٍ لبني أُمَيَّةَ فِي سِرَارِ جَمِيرٍ (١)

ويلجأ جحدر بن معاوية إلى الله بالشكوى وهو يصور الأهوال التي يلقاها في سجن الكوفة ، فكأنما سقر التي أعدها الله لتعذيب العصاة قطعة منه ، فيقول :

(١) الحيوان ١٢٨/٥ ، سرار جمير : يسمى الهلال قبل ليلة السرار وهي الليلة الأخيرة في الشهر بليلة ابن جمير .

يَا رَبِّ أَبْغِضْ بَيْتَ عِنْدَ خَالِقِهِمُ بَيْتَ بَكُوفَانَ مِنْهُ أَشْعَلَتْ سَقَرُ
مَثْوًى تَجْمَعُ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ شَتَّى الْأُمُورِ فَلَا وَرْدُ وَلَا صَدْرُ
دَارُ عَلَيْهَا عَفَاءُ الدَّهْرِ مَوْحِشَةٌ مِنْ كُلِّ أَنْسٍ وَفِيهَا الْبِدْوُ وَالْحَضْرُ (١)
ويدعو الله أن يخلصه من سجن د وار ، فيرسل عليه صاعقة تدمره ، وأن
يهيئ له لبنانيه من يقتله ، قائلاً :

يَا رَبِّ د وَّارْ أَنْقِذْ أَهْلَكَ عَجَلًا وَانْقِضْ مَرَاثِرَهُ مِنْ بَعْدِ إِبْرَامِ
رَبِّ أَرْمِهِ بِخَرَابِ وَارِمِ بَانِيَكِهِ بِصَوْلَةٍ مِنْ أَبِي شَبْلِينَ ضَرْغَامِ (٢)
وقد يتوقف الصعلوك عن حياة التصعلك واللصوصية ، يعلن توبته عن ذلك
غير أن نفسه تظل تحدثه بالعودة إلى ذلك فيمنعها .

فهذا الأحير السعدي في ظل مجاهدته نفسه يشكو إلى الله من صبره
عن حياة التصعلك ، فيقول :

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ صَبْرِي عَنْ رَوَاحِلِهِمْ وَمَا أَلَا قِي إِذَا مَرُّوا مِنَ الْحَزَنِ
قُلْ لِلصَّوْصِ بَنِي الْخَنَاءِ يَحْتَسِبُوا بُزَّ الْعِرَاقِ وَيَنْسُوا طُرْفَةَ الْيَمَنِ
فَرُبَّ ثَوْبٍ كَرِيمٍ كُنْتُ أَخْذُهُ مِنَ التَّجَارِ بِلَا نَقْدٍ وَلَا ثَمَنِ (٣)
وتزداد علاقة الصعلوك بالله قوة بعد أن يعلن توبته ، وذلك من واقع
شعوره وإدراكه بأن حياته السابقة لم تكن على جانب من الالتزام الديني ،
بكونها تتخذ طريقاً يرفضه الدين ، وذلك بقيامها على السلب والنهب .

(١) شعراء أمويون ١/ ١٧٣ .

(٢) نفسه ١/ ٢٨١ .

(٣) المؤلف والمختلف ص ٣٧ .

أَنْ يَقْبَلَ تَوْبَتَهُ

فهذا عبيد بن أيوب العنبري يبتهل بالدعاء إلى الله يقبل توبته ، مما اقترفته يداه أيام جهله وضلاله ، شاكياً إليه مما يدعيه أعداؤه الذين يحلفون جاهدين بالله أنه من أهل النار . وهو لعمق إيمانه بالله ، ولا دراهكه بأنه واسع المغفرة ، يرفض ادعاءهم الأعمى ، قائلاً :

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الْأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا أَيَمَانَهُمْ أَنَّنِي مِنْ دَاخِلِي النَّارِ
أِيحْلِفُونَ عَلَى عَمِيَاءٍ وَيَحْمِلُونَ مَا عَلِمُهُمْ بِعَظِيمِ الْعَفْوِ غَفَّارِ
أَنِّي لَأَرْجُو مِنَ الرَّحْمَنِ مَغْفِرَةً وَمِنَّةً مِنْ قَوَامِ الدِّينِ جَبَّارِ
وَمَا أَخَافُ هَلَاكاً بَيْنَ عَفْوِهِمَا وَمَا يَفُوتُهُمَا الْمُسْتَوْهَلُ الشَّارِي
إِلَيْهِمَا مِنْهُمَا أَنْجُو عَلَى وَجَلٍ كَمَا نَجَا خَائِفٌ خَاشٍ لَأَثَارِي
أَنَا الْفَلَامُ عَتِيقُ اللَّهِ مَيْتَهُلٌ بِتَوْبَةٍ بَعْدَ إِحْلَاءٍ وَامْرَارِ
خَلَيْتُ بَابَاتِ جَهْلٍ كُنْتُ أَتْبَعُهَا كَمَا يُوَدِّعُ سَفَرُ عُرْصَةِ الدَّارِ
أَنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّنِي سَوْفَ يَتْرُكُنِي صَحْبِي رَهِينَةً تَرْبُ بَيْنَ أَحْجَارِ
فَرْدًا بَرَابِيئَةً أَوْ وَسْطَ مَقْبَرَةٍ تُسْغِي عَلَيَّ رِيَّاحُ الْبَارِحِ الذَّارِي (١)
ويقول - أيضاً - معترفاً إلى الله بذنوبه التي ارتكبها في حياته الماضية ،

راجياً عفوره عنها :

يَا رَبِّ عَفْوَكَ عَنْ ذِي تَوْبَةٍ وَجَلٍ كَأَنَّهُ مِنْ حِذَارِ النَّاسِ مَجْنُونُ
قَدْ كَانَ قَدَّمَ أَعْمَالاً مُقَارِبَةً أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا دِينُ (٢)

(١) شعراء أمويون ١ / ٢١٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤ / ٦٢ .

ويقول - أيضاً - معبراً عن خوفه من النار التي إن لم يعف الله عنه، فإنه صائر إليها لا محالة :

وياربَّ إلا تعفْ عنيَ تلقَني من النَّارِ في بعْكوكِها المتداني (١)

وهذه النعمة المؤمنة التائبة الزاهدة تلمسها لدى جحدر بن معاوية الذي يدعو الله - في سجنه - عند إحساسه بأن المنية قد دنت ، مستغفراً

إياه من ذنوبه ، ومعبراً عن إيمانه بأن قضاء الله نافذ لا محالة ، فيقول :

إني دعوتُك يا إلهَ محمدٍ دعوى فأولُها لي استغفارُ

لتجيرَني من شرِّ ما أنا خائفٌ ربُّ البرية ليس مثلكَ جارُ

تَقْضي ولا يُقْضي عليكَ وإنَّما ربي بعلمِكَ تنزلُ الأقدارُ (٢)

ويعاتب في قصيدة أخرى نفسه حين أظهرت جزعها وخوفها من المنية ،

فيعبر عن إيمانه بأن لكل نفس أجلها المحتوم الذي لا بد منه ، ويدعوها

إلى الابتغال إلى الله بالدعاء في السر والعلانية ، فيقول :

يا نفسُ لا تجزعي إنِّي إلى أمِّدٍ وكلُّ نفسٍ إلى يومٍ ومقْدارٍ

وما يقرب يومي من مَدَى أَملي فاقني حياءَكَ تَرَحَّالي وتَسْياري

إني إلى أَجَلٍ إن كنتِ عالِمةً إليَّ ما مُنْتَهَى علمي وأثاري

لله أنتِ فإن يعصمَكَ فاعتصمي وإن كذبتِ فحسبي الله من جارٍ

ادعيه سرّاً وناديه علانيةً واللهُ يعلمُ إعلاني وأسْرائي

وما السعادةُ في الدُّنيا لذي أملٍ إنَّ السعيدَ الذي ينجو من النَّارِ

(١) شعراء أمويون ٢٢٦/١

(٢) نفسه ١٧٣/١

سُقِيًّا لِسَجْنِكَ مِنْ سَجْنٍ وَسَاكِنِهِ^١ بَدِيمَةً مِنْ ذَهَابِ الْمَاءِ مَدْرَارٍ^(١)
ويعبر عبید الله بن الحر الجعفي عن ثقته العظيمة بالله ، وإيمانه القوي
به . فهو لا يسلم عبده لليأس ، فما أنزل به من أمر يكرهه إلا وجعل من
بعد ذلك الفرج .

يقول عبید الله :

لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ قَلْبِي حِينَ يَنْزِلُ بِي هُمْ تَضِيفَنِي ضَيْقًا وَلَا حَرْجًا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِي أَمْرًا فَأَكْرَهُهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا^(٢)
وبما أن حياة الصعاليك كانت تقوم على السلب والنهب والقتل، فقد كانوا
مهددين بالموت في أي لحظة ، بسبب طبيعة حياتهم التي تقوم على
المغامرة والمخاطرة . وقد كان ذلك مدخلًا لأهلهم وأحببتهم للومهم
وتحذيرهم من الاستمرار في هذا الطريق الخطر . وقد استفاد
عبید الله بن الحر الجعفي من النظرة الإسلامية للموت ، والتي ترى
أنه أجل محتوم ، محدد بساعة لا يستقدم عنها ولا يستأخر ، فبرر من
خلاله استمراره في تصملكه ، رغم ما يتهدده من الأخطار ، فهو
يقول :

يُخَوِّفُنِي بِالْقَتْلِ قَوْمِي وَإِنَّمَا أَمُوتُ إِذَا جَاءَ الْكِتَابُ الْمُؤَجَّلُ
لَعَلَّ الْقَنَا تُدْنِي بِأَطْرَافِهَا الْقَنَا فَنَحْيَا كَرَامًا أَوْ نَمُوتُ فَنَقْتَلُ^(٣)

(١) شعراء أمويون ١/ ١٢٥ .

(٢) نفسه ١/ ٩٩ .

(٣) نفسه ١/ ١١٠ .

ويقول أيضاً :

وما لا مريءٍ إلا الذي اللهُ سائقٌ إليهِ وما قد خطَّ في الزبرِ كاتِبُهُ (١)
ولما لك بن الرب قصيدة يعبر فيها عن إيمانه العميق بالله . فهو في
الصحراء الموهلة في الوحشة حيث الوحدة ، يغمض عينيه لشعوره بأن
الله معه يحفظه حين تغفل كل العيون .

يقول مالك :

أدُلجْتُ في مهمٍّ ما إن أرى أحداً حتى إذا حانَ تعريضٌ لمن نَزَلَا
وضعتُ جنبي وقلتُ اللهُ يُكَلِّمُنِي مَهْمَا تَمَّ عَنْكَ من عينٍ فما غَفَلَا (٢)
وهذا الإيمان القوي بالله هو ما تعبر عنه أبياته التي قالها وهو ينطلق
إلى الجهاد في سبيل الله مع جيش سعيد بن عثمان بن عفان . فهو
لا يخضع لابنته التي أظهرت له ملامح الجزع والخوف من أن تكون تلك
رحلته الأخيرة ، وإنما يدعوها أن تسأل الله فهو مجيب الدعوات ،
وهو الذي إن شاء حقق لها مرادها بعودة أبيها إليها . أما هو
فإنه يعلن استسلامه لقضاء الله وينطلق في رحلته مجاهداً في سبيل الله .
يقول مالك :

ولقد قلتُ لابنتي وهي تبكي بدخيلِ الهمومِ قلباً كئيبيـاً
وهي تذري من الدموعِ على الخدينِ من لوعةِ الفراقِ غربيـاً
عبراتٍ يكْدُنَ يجرحنَ ما جُزْنَ بهِ أويدَ عن فيه ندويـاً

(١) شعراء أمويون ٩٥ / ١

(٢) نفسه ٣٦ / ١

اسْكُتِي قَدْ حَزَزْتَ بِالْدمِ قَلْبِي طَالَمَا حَزَّ دُمُكَ الْقُلُوبَا
 فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَدَافِعَ عَنِّي رَيْبًا مَا تَحْذَرِينَ حَتَّى أَوْبَا
 لَيْسَ شَيْءٌ يَشَاؤُهُ ذُو الْمَعَالِي بِمُزِيهِ عَلَيْهِ فَأَدْعِي الْمُجِيَا
 وَدَعِي أَنْ تَقْطَعِي الْآنَ قَلْبِي أَوْ تُرِينِي فِي رِحْلَتِي تَعْذِييَا
 أَنَا فِي قَبْضَةِ الْإِلَهِ إِذَا كُنْتُ بَعِيدًا أَوْ كُنْتُ مِنْكَ قَرِيبَا
 كَمْ رَأَيْنَا امْرَأً أَتَى مِنْ بَعِيدٍ وَمَقِيمًا عَلَى الْفَرَاشِ أُصِييَا
 فِدَعِينِي مِنْ انْتِحَايِكَ إِنِّي لَا أَبَالِي إِذَا اعْتَزَمْتُ النَّحِيَا
 حَسْبِيَ اللَّهُ ثُمَّ قَرَّبْتُ لِلْسَّيْنِ رِعْلَةً أَنْجَبَ بِهَا مَرْكُوبَا (١)

وفي قصيدته التي قالها عندما دنا منه الموت، وهو في طريق عودته
 من جهاده مع سعيد بن عثمان بن عفان . يؤمن مالك بن الربيع نفسه
 التي استبدلت حياة الضلال الذي كان يعيشه أيام تصعلكه، بحياة
 الهدى التي انطلق فيها مجاهداً في سبيل الله، فيقول :

أَلَمْ تَرَنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَانَ غَازِيَا (٢)
 ويقول في أبيات أخرى وكأنه يعتذر لابنته عن عدم عودته ، لأن أجله
 الذي كتبه الله له حال دون ذلك :

تَسْأَلُ شَهْلَةً قَالَهَا وَتَسْأَلُ عَنْ مَالِكٍ مَا فَعَلَ
 ثَوَى مَالِكٍ بَبْلَادِ الْعَسَدِ وَتَسْفَى عَلَيْهِ رِيَا حُ الشَّمْسِ

(١) شعراء أمويون ٢٤/١ ، علاة : أي ناقة مشرفة .

(٢) نفسه ٤٢/١

لذلك شَهْلَةٌ جَهَزْتَنِي وقد حَالَ دُونَ الْإِيَابِ الْأَجَلُ (١)
وقد يتحول الصعلوك في فترة من حياته ، ومن خلال تجربته المريرة
في عالم التصعلك ، إلى حكيم يطرح نظرتَه نحو الحياة من خلال الرؤية
الدينية لها .

وهذا ما نلمسه عند جحد ربن معاوية حيث يقول :
إِذَا انْقَطَعَتْ نَفْسُ الْفَتَى وَأَخْبَسَهُ مِنْ الْأَرْضِ رَمْسٌ نَوْتَرَابٌ وَجُنْدِلِ
رَأَى إِنَّمَا الدُّنْيَا غُرُورٌ وَإِنَّمَا ثَوَابُ الْفَتَى فِي صَبْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ (٢)

وهكذا يتضح أن الإسلام أثر بشكل ملموس على شعر الصعاليك ، فاكسبت
أبياته بعض الملامح الدينية الجديدة . وهذا بطبيعة الحال امتداد لتأثير
الإسلام على مختلف الموضوعات الشعرية في العصر الأموي .

(١) شعراء أمويون ٣٨/١ .

(٢) نفسه ١٨١/١ .

٣ - شعر الزهد (١)

على الرغم من أن العصر الأموي لم يكن في طابعه العام على صورة من المثالية والالتزام الديني . إذ عادت إلى الحياة العربية فيه بعض الظواهر التي قد لا تعطي صورة جيدة عن المجتمع الإسلامي آنذاك ، وتمثل ذلك في عودة العصبية القبلية المفقودة التي عمل الإسلام على إغائها ، وفي انغماس الناس في حياة اللهو التي انتشرت في بعض الأمصار الإسلامية تحت تأثير الترف الذي أصاب الحياة الاجتماعية حينذاك . إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور حركة مختلفة تتخذ من الزهد في الدنيا طابعاً لها . تلك الحركة التي انتشرت في بعض الأمصار الإسلامية وبخاصة العراق . وأجيدني أتفق مع الدكتور شوقي ضيف فيما ذهب إليه من أن الحروب الداخلية التي عاشتها بيئة العراق طـوـال العصر الأموي ، كانت أحد العوامل التي ساعدت على انتشار موجة الزهد فيها .

يقول شوقي ضيف : " فإن بعض من خسروا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها ، ووضعوا أمانيتهم في الآخرة وما وعد الله به عباده المتقين " (٢)

(١) الزهد لغة : " ضد الرغبة والحرص على الدنيا " لسان العرب مادة زهد .

واصطلاحاً : " الكف عن المعصية وعما زاد عن الحاجة ، وترك ما يشغل عن الله " دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٥١ .

(٢) التطور والتجديد ص ٥٩ .

يضاف إلى ذلك انتشار اللهو والمجون في بعض الأمصار الإسلامية ، وإقبال الناس على مغريات الحضارة ، مما دفع بعض الأفراد الملتزمين إلى اتخاذهن الزهد سبيلاً لحياتهم هرباً من التأثير بهذا التيار الحضاري الجديد .

وقد كان هؤلاء الزهاد يفعلون ذلك استجابة لآيات القرآن الكريم التي تحث على عدم الانغماس في الحياة الدنيا ، وترغب في الآخرة ، من مثل قوله تعالى " وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " (١) . وقوله تعالى " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " (٢) ، وغير ذلك من الآيات القرآنية التي ليس هنا مجال لحصرها . كما أنهم كانوا يقتدون بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الذين كانوا مثلاً يحتذى به ، في عفتهم وزهدهم في الدنيا وحطامها ، وإقبالهم على الآخرة ، فحياتهم كلها تقوى وزهد وعبادة . وقد ضرب رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثلة فقد تفطرت قدامه من العبادة وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر اعترافاً بفضل الله وشكراً له . كما أن في سيرة صحابته رضوان الله عليهم أجمعين صوراً ناطقة تحكي تقشفهم ورفضهم للدنيا وزخرفها ، وتوكلهم على الله ، وإقبالهم على الآخرة طمعاً في نعيمه الذي أعده لعباده المتقين .

(١) العنكبوت ٦٤ .

(٢) الأنعام ٣٢ .

ويذكر الجاحظ في البيان والتبيين أسماء بعض هؤلاء الزهاد (١) ، كما يذكر بعضاً من مواعظهم . من مثل قول الحسن البصري أشهر شخصياتهم في هذا العصر : " يا ابن آدم ، بعد نياك بآخرتك تريحهما جميعاً ، ولا تبـع آخرتك بدنـياك فتـخسرهما جميعاً ، يا ابن آدم ، إنـذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإنـذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الشواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . . . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . . . " ، وقوله (٢) " يا ابن آدم إن كان لا يفنيك ما يكفيك فليس هـا هنا شـيء يفنيك ، وإن كان يفنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يفنيك " (٣) ، وقوله : " إن امرأ ليس بينه وبين آدم إلا أب ميت لمعرق في الموت " (٤) .

وقد انعكست هذه المواعظ التي يرددها الحسن البصري وغيره على الشعر الأموي ، فظهرت بعض الأشعار التي تتفق في مضامينها مع ما كان يدعو إليه الزهاد من الإعراض عن الحياة الدنيا ، والتذكير بالموت ، والمصير ، والترغيب في الآخرة . وباستثناء سابق البربري ، وهو أحد الشعراء المجهولين في العصر الأموي ، والذي قصر معظم شعره على هذه الاتجاه الشعري ، حتى عده ببعض الدارسين أستاذاً لأبى العتاهية في فن الزهديات (٥) ، وبالإضافة إلى ما جاء

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٦٣ .

(٢) نفسه ٣/ ١٣٢ .

(٣) نفسه ٣/ ١٣٦ .

(٤) نفسه ٣/ ١٧٢ .

(٥) ديوان أشعار الموالى ١/ ١٧٣ .

في شعر الخوارج ، فإن تيار الزهد لم يكن يمثل ظاهرة بارزة عند شعراء العصر الأموي الذين تناولوه في شعرهم .

فهذا وضاح اليمن يدعو نفسه إلى الكف عن الانغماس في الغزل ، والركض خلف النساء ، ويحذرهما من الموت الذي ينال النفوس ويقطع آمالها ، ويطلب منها التقرب إلى الله بالصلاة والأعمال الصالحة التي تنجيها في الآخرة ، بعد كل ما ارتكبه من زلل في الدنيا .

يقول وضاح اليمن :

أَلَسْتَ تَخْشَى تَقَارِبَ الْأَجَلِ	مَالِكَ وَضَاحُ دَائِمَ الْفَزَلِ
لَأَمَلٍ دُونَ مَنْتَهَى الْأَمَلِ	يَا مَوْتُ مَا إِنَّ تَزَالُ مُعْتَرِضاً
وَحَوْتَ بَحْرٍ وَمَعْقِلَ الْوَعْرِ	تَنَالُ كَفَّاكَ كُلَّ مُسْهِلَةٍ
تُنْجِيكَ بَعْدَ الْمِثَارِ وَالزَّلَلِ (١)	صَلِّ لَدَى الْعَرْشِ وَاتَّخِذْ قَدَمًا

ويدعو أعشى همدان إلى الزهد في الحياة التي لا تبقى للإنسان ، من خلال طرحه لصورة إنسان منعم سعيد ، غرت الحياة الدنيا فما لبث أن جاءه الموت على غفلة ، فقادوه إلى قبره دون أن يتزود مما كان يجمعه في حياته إلا بالحنوط ، والكفن ، وأعواد تشب له . وما أقل ذلك زاداً لإنسان ينطلق لآخرته . وهو في ذلك ينبه الإنسان الغافل ليستيقظ من غفلته ، وأنشغاله بالحياة الدنيا ، وتكالبه على جمع المال فيها ، دون التفكير بالموت ، وبما يصير

إليه في الآخرة . وفي نهاية القصيدة يستغفر الشاعر ربه عن أعماله السابقة التي إن لم يغفرها الله له فهو هالك ، قائلاً :

وبينما المرء أمسى ناعماً جَذِلاً في أهله مُعْجِباً بالعيشِ ذَا أَنْقِ
غراً أُنْجِحَ له من حينٍ عَرَضُ فما تَلَبَّثَ حَتَّى مَاتَ كَالصَّغِيرِ
ثَمَّ أَضْحَى ضَحَىً مِنْ غَبٍّ ثَالِثٍ مَقْنَعاً غَيْرَ ذِي رُوحٍ وَلَا رَمَقِ
يَبْكِي عَلَيْهِ وَأَدْنُوهُ لِمُظْلِمَةٍ تُعَلَى جَوَانِبِهَا بِالتَّوْبِ وَالْفَلَقِ
فَمَا تَزُودُ مَا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنُوطاً وَمَا وَارَاهُ مِنْ خِرْقِ
وغيرَ نَفْحَةٍ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ زَانٍ لِمُنْطَلِقِ
استغفرُ اللهَ أَعْمَالِي الَّتِي سَلَفَتْ مِنْ عَثْرَةٍ إِنْ يَعَاقِبُنِي بِهَا أَبَقِ (١)

ويقف مالك بن دينار أمام القبور متسائلاً عن مصير الذين مضوا وانقطعت

أخبارهم من عظيم أو حقير ، داعياً إلى الاعتبار بذلك ، فهو يقول :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَتَنَادَيْتُهُمْ ——— أَيْنَ الْمَعْظُمُ وَالْمَحْتَقِرُ
وَأَيْنَ الْمَدْلُ بِسُلْطَانِهِمْ وَأَيْنَ الْمَزَكِيُّ إِذَا مَا افْتَخَرُ
تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْسِرٌ وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبِيرُ
تَرُوحُ وَتَفْدُ وَبَنَاتُ الثَّرَى وَتُحَيِّى مُحَاسِنُ تِلْكَ الصُّورِ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَّا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبِرٌ (٢)

(١) الديوان ص ١٤٦ .

(٢) ديوان أشعار الموالى ٣٥٦/٢ .

ويتمجب عبد الله بن عروة بن الزبير من أناس ضلوا سبيل الهدى ، فأشفلتهم
الحياة الدنيا بمغرياتهما فنسوا العمل لآخرتهم ، استعجالاً لحظهم من الدنيا
فهم ضالون مضلون .

يقول عبد الله :

يكون بالدين للدنيا وهجتها أربابُ دُنْيَا عليها كُلُّهم صَادِي
لا يعملون لشيءٍ من معادِهِم تعجلوا حظَّهم في العاجلِ البَادِي
لا يهتدون ولا يهدون تابعَهُم ضلَّ المقودُ وضلَّ القائدُ الهَادِي (١)

ويصور الفرزدق المصير الذي ينتظره إن استمر في حياة الضلال ، يهجو الناس
ويتبع هواه ، وكأنما هو يجهز نفسه للحياة الآخرة ، وشغلها عن طلب الدنيا .

يقول الفرزدق :

لقد خاب من أولادِ دارمَ مَنْ شَقَى إلى النارِ مشدودَ الخناقةِ أَرْقَا
إذا جأني يومَ القيامةِ قائِدٌ عنيفٌ وسواقٌ يسوقُ الفرزدقا
أخافُ وراءَ القبرِ إنْ لمْ يعافُني أشدَّ من القبرِ التهاباً وأضيقاً
إذا شربوا فيها الصِّديدَ رأيتهم يذوبونَ من حرِّ الصِّديدِ تمزقاً (٢)

ومن الواضح التأثير القرآني في الأبيات السابقة . فالبيت الثاني استمد فيه الشاعر
صورته الشعرية من قوله تعالى " وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد " (٣) أما البيت
الرابع فقد استقاه الشاعر من قوله تعالى " من وراءه جهنم ويسقى من "

(١) جمهرة نسب قریش ١/ ٢٦٩ .

(٢) الديوان ٢/ ٣٩ .

(٣) ق ٢١ .

ماء صديد " (١)

وفي مقدمة قصيدته التي يمدح بها أسد بن عبدالله القسري يدعو الفرزدق نفسه إلى التزود للآخرة بالأعمال الصالحة قبل أن تدركها المنية ، حيث ستدرك في لحظة الموت جدوى ما تقدم من صالح الأعمال ، فيقول :

تزوّن فما نفسٌ بعاملةٍ لها إذا ما أتاها بالمنايا حديدُها
فيوشكُ نفسٌ أن تكونَ حياتُها وإن مسّها موتٌ طويلٌ خلودُها
وسوف ترى النفسُ التي اكتدحتُ لها إذا النفسُ لم تنطقْ وماتَ وريدُها (٢)
وينمي عروة بن أذينة على الإنسان إقباله المحموم على الدنيا ، فهو يرتاع إذا شاهد الجنائز غير أن روعته هذه لا تلبث أن تتلاشى ليعود من بعدها إلى حياته اللاهية ، فهو يقول :

نراعُ إذا الجنائزُ قابلتُنَا ويحزِنُنَا بمكاءُ الباقياتِ
كروعةٍ ثلّةٍ لمفَارِ ذئبٍ فلما غابَ عادتْ راتِعَاتِ (٣)
وفي مقدمة قصيدته التي يخاطب بها الحارث بن سريج ، يدعو نصر بن سيار نفسه إلى الزهد في الدنيا والأهل ، ما داموا لا يدومون له إلا أياماً معدودة يقطعها الأجل المحتوم . ويحثها على الإكثار من الأعمال الصالحة والاجتهاد فيها سراً ، فخير الأعمال ما كان خفياً . ثم يصور الحياة وتقلباتها على الإنسان

(١) ابراهيم ١٦ .

(٢) الديوان ١/١٥٠ .

(٣) الديوان ص ٣٠٩ .

فهي حلوة حيناً ، ومرة أحياناً ، ثم يدخل في صلب القصيدة ، فيدعو نفسه إلى
الجهاد ضد الكافرين ، وكأنه رأى في ذلك تحقيق أمه .
يقول نصر بن سيار :

دُعْ عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تَارِكُهُمْ	ما خير دُنْيَا وَأَهْلٍ لَا يَدُومُونََا
إِلَّا بَقِيَّةَ أَيَّامٍ إِلَى أَجَلٍ	فاطلب من الله أهلاً لا يموتونا
أَكْثَرُ تَقَى اللَّهِ فِي الْإِسْرَارِ مُجْتَهِدًا	إِنَّ التَّقَى خَيْرُهُ مَا كَانَ مَكْنُونَا
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَهَنٌ	فكن لذاك كثيرَ الهمِّ محزونَا
إِنِّي أَرَى الْغَبْنَ الْمُرْدِي بِصَاحِبِهِ	من كان في هذه الأيام مغبونَا
تَكُونُ لِلْمَرْءِ أَطْوَارًا فَيُتَمَنَحُهُ	يوماً عثاراً وطوراً تمنح اللينا
بَيْنَا الْفَتَى فِي نَعِيمِ الْعَيْشِ حَوْلَهُ	دهرٌ فأمسى به عن ذاك مزبونَا
تَحُلُولُهُ مُرَّةً حَتَّى يُسْرِبَهَا	حيناً وتُغْفِرُهُ طَعْمًا أَحَابِينَا
هَلْ غَابَرُ مِنْ بَقَايَا الدَّهْرِ تَنْظُرُهُ	إلا كما قد مضى فيما تقضونَا
فَأَمْنَحْ جِهَادَكَ مَنْ لَمْ يَرْجِ آخِرَةً	وكن عدواً لقوم لا يصلونَا
وَأَقْتُلْ مَوَالِيَهُمْ مَنْ أَوَّاهَهُمْ	حيناً تكفرهم والمنهم حيناً (١)

وفي قصيدته التي يمدح بها يزيد بن عبد الملك ، يتوقف نابغة بني شيان أمام
الحياة مؤمناً ، وواعظاً .

فهو يعملن إيمانه بالله ، ورضاه بقضائه وقدره مهما يكن ، قائلاً :

(١) الطبري ١٠٠/٧ .

كلُّ ما اختصَّنِي به اللهُ رَبِّي ليس من قُوَّتِي ولا باحْتِيالِي
لو أطيعُ الشُّمُوعَ أو تَعَتَّلَيْتَنِي زلَّ حُلْمِي ونالَنِي عَذَابِي
وإنَّما ذكرتُ صرفَ المنايا كانَ كارِ الحزِينِ في الأطْلالِ
كل عيشٍ ولذَّةٍ ونعيمٍ وحياةٍ تُؤدِّي كهيَّ الظَّلَالِ
كفَّنِي الحلمُ والمشيبُ وعقلي ونهَى اللُّوعُ عن سبيلِ الضَّلَالِ
وأرى الفقرَ والفِئْنَى بيدِ اللّهِ وحتفَ النفوسِ في الآجالِ (١)

ثم يتحدث عن حتمية الموت وأنه المصير الذي لا مفر منه لكل كائن حي .
فلا نسان مهما امتد به العمر وطال به الأجل لا بد صائر إلى ما صار إليه غيره
فلكل نفس أجلها ولن يبق إلا وجه الله ، وينطلق من ذلك ليدعو إلى تقوى
الله في السر والعلانية ، فكل إنسان عليه من الله رقيب ، والإنسان صائر إلى
ربه ، فإما أن يكون فائزاً ينال الخير ، أو شقياً يصاب بالنكال ، قائلاً :

ليس حيٌّ يبقَى وإن بلغَ الكِبَرَةَ إلا مصيرُهُ لـزوالِ
كلِّ ثاويٍ يشوِي لحينِ المنايا كجزورٍ حبستها بعقَالِ
إن تمتْ أنفُسُ الأنكاسِ فإنَّ اللهَ يبقَى وصالحُ الأعمالِ
كل ساعٍ سمى ليدركَ شيئاً سوفَ يأتي بسعيهِ ذَا الجلالِ
فهمُ بينَ فائزٍ نال خسيراً وشقيٍّ أصابَهُ بِنكَالِ
إنَّ من يركبُ الفواحشَ سرّاً حينَ يخلو بسوءٍ غيرَ خَالِ
كيف يخلو وعندهُ كاتبُها شا هديه وربُّه ذُو المِحالِ
فاتقِ اللهَ ما استطعتَ وأحسِنْ إنَّ تقوى الإلهِ خيرُ الخِلالِ (٢)

(١) الديوان ص ٦٣ .

(٢) نفسه ص ٦٤ .

وفي قصيدة أخرى يدعو الإنسان للعمل الصالح ، ويذكره بالنشور بعد الموت
حيث يجازى كل إنسان بعمله إن كان خيراً أو شراً .
يقول نابغة بني شيبان :

ألا أيها الإنسان هل أنت عاملٌ فإنك بعد الموت لا بدّ ناشِئُ
ألم تر أنّ الخيرَ والشرَّ فتنَةٌ ذخائرُ مجزِيٍّ بهسنّ ذخائرُ
ومن يعمل الخيراتِ أو يخطِ خالياً يجازيها أيامُ تبلى السرائرُ (١)
ويمثل موضوع الزهد الجزء الأكبر مما وصل إلينا من شعر سابق البربري ، هذا
الشاعر الأموي المغمور الذي قصر شعره على الزهد والحكمة .

والقارئ لشعر سابق يجد أنه يعتمد فيه إلى التذكير بالموت الذي
يؤول إليه الناس جميعاً . فهو ينبه الغافلين السادرين في حياة اللهو
والمتعة ، والذين أنساهم زخرف الدنيا حياتهم الآخرة .

فالموت هو العنصر الأساسي الذي تدور حوله ، قصيدة الزهد عند هذا
الشاعر .

وأجدني اتفق مع محبّو المقداد فيما ذهب إليه من " أن شعر سابق
البربري كان في مستوى ما كان يدور عليه وعظ الحسن البصري من أفكار في أقواله

(١) الديوان ص ١٨ .

الوعظية والحكمية المأثورة عنه ، غير أن سابقاً صاغ ذلك شعراً في حين
أن الحسن أدّاها نشرًا " (١) .

فهذا سابق يحذر الإنسان من أن يرحل عن الدنيا ويباغته الموت
دون أن يتزود منها بالزاد المطلوب وهو زاد التقوى الذي ينفعه في آخرته ،
وذلك لئلا يندم على ما فاته عندما لا ينفع الندم ، فهو يقول :
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التَّقَى وَوَأَفَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ شَرِكُتَهُ وَأُرْصَدْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا كَانَ أُرْصَدَا (٢)
والصورة الشعرية في البيت الأول أخذها الشاعر من قوله تعالى " وتزودوا
فإن خير الزاد التقوى " (٣)

ويقف في أبيات أخرى متأملاً أمام الموت الذي يباغت الإنسان في لحظاته
الآمنة دون أن يملك أمامه إلا الاستسلام ، ليحيل أحلامه إلى سراب تذروه
الرياح ، فيدفن في لحده تاركاً خلفه كل ما جمعه في حياته ، فالموت
لا يفرق بين غني أو فقير . وهو في ذلك ينبه الإنسان ويوقظه من غفلته التي
قد تسلمه لها مغريات الحياة .

يقول سابق البربري :

وَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ بَاتَ لِلْمَوْتِ آمِنًا أَتَتْهُ الْمَنَآيَا بَغْتَةً بَعْدَ مَا هَجَعَ
فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جَاءَهُ الْمَوْتُ بَغْتَةً فَرَارًا وَلَا مِنْهُ بِقُوْتِهِ امْتَنَعَ

(١) ديوان أشعار الموالي ١/ ١٧٤ .

(٢) نفسه ١/ ١٧٦ .

(٣) البقرة ١٩٧ .

فأصبح تَكِيهِ النساءُ مَقْنَعًا ولا يسمعُ الداعي وإنْ صوته رَفَعَ
وَقُرْبَ من لحدٍ فصارَ مَقِيلَهُ وفارقَ ما قدْ كانَ بالأَمْسِ قدْ جَمَعَ
فلا يتركُ الموتُ الغنى لَمَالِهِ ولا معدماً في المَالِ ذاكَ حاجةً يَدَعُ (١)

وفي قصيدته التي كتب بها إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ، يدعو الشاعر في بدايتها إلى الصبر على قضاء الله وقدره حتى ولو جاء بما لا يشتهي الإنسان ، فالحياة لا تصفو على ما يسر المرء .

ثم يظهر تعجبه من عدم اتعاظ الناس على الرغم مما يسمعون من مواعظ الواعظين ، وما يرونه من أخذ الموت لأحبائهم .

ويعجب - أيضاً - من إحساسهم بما ينقص من أمور دنياهم ، وغفلتهم عما أصاب حياتهم الدينية من نقص ، وكأنهم يطمعون بالخلود . وهو أمر مستحيل ، فما دام أصلهم وهو آدم قد مات ، فإن الموت لا بد مدركهم .
يقول سابق البربري :

باسمِ الذي أنزلتْ من عنده السورُ والحمدُ لله أمّا بعدُ يا عُمَرُ
إنْ كنتَ تعلمُ ما تأتي وما تذرُ فكُنْ على حذرٍ قدْ ينفعُ الحذرُ
واصبرْ على القدرِ المحتومِ وارضَ بهِ وإنْ أتاكَ بما لا تشتهي القدرُ
فما صفا لا مريءٍ عيشٌ يسرُّ بهِ إلّا سيتبعُ يوماً صفوه الكدرُ
أصبحتمْ جزراً للموتِ يأخذُكمْ كما البهائمُ في الدنيا لكمْ جزرُ

وليس يزجركم ما توعظون به
ما يشعرون بما في دينهم نقصوا
والمهم يزجرها الراعي فتزجر
جهلاً وإن نقصوا دنياهم شعروا
أبعد آدم ترجون الخلود وهل
تبقي فروع لأصل حين ينقر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً
والحبل في الحجر القاسي له أثر (١)

وفي أطول قصائده - ٣٤ بيتاً - يعترف سابق البربري على نفس النفمة
الزاهدة التي تغلب على معظم أشعاره . فهو يبدؤها بالحديث عن الموت
الذي لا بد من وقوعه على كل إنسان ، ويتعجب من ذاته الإنسانية التي تنشغل
بلهو الحياة رغم إدراكها للموت وخوفها منه ، ويصور ما ينتظر الإنسان في القبر
من أهوال ، حيث يمضي إليه مخلفاً وراءه ماله وأهله ، قائلاً :

تأوتني هم كثير بلا بلية
طروقا فقال النوم عني غوائله
فويحي من الموت الذي هو واقع
وللموت باب أنت لا بد داخله
أيأمن رب الدهر يا نفس واهن
تجيش له بالمفطعات مراجله
فلم أر في الدنيا وزوال الجهل غافل
أسيراً يخاف القتل واللهو شاغله
فما باله يفقد من الموت نفسه
ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله
ولا يفتر من موقف لو رمى الردى
به جبلاً أضحت سراباً جنايله
وبعد دخول القبر يا نفس كربة
وهول تشيب المرضعين زلا زله
إذا الأرض خفت بعد ثقل جبالها
وخلى سبيل البحر يا نفس ساحله

فلا يرتجى عوناً على حمل وزره
إذا الجسد المعمور زایل روحه
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه
يزايلني مالي إذا النفس حشرجت
سيء وأولى الناس بالوزر حامله
خوى وجمال البيت يا نفس أهله
وما الغمد لولا نصله وحمائله
وأهلى ، وكذحي لا زمي لا أزايله (١)

ويعود في خاتمة القصيدة إلى تنبيه الانسان وتحذيره من الاغترار بالدينا ،
والركض خلف ما فيها من متع زائلة ، ناسياً النعيم الدائم في الآخرة ، مذكراً
إياه بتقلباتها على الناس ، إذ لا يمكن للمرء أن يأمن لها .

يقول سابق :

.....

فلا تفتك بعد الهدى عن بصيرة
وتطلب في الدنيا المنازل والعلل
كمن غره كمح السراب بقيعة
وقد خانت الدنيا قروناً تتابعوا
وتصبح فيها آمناً ثم لم تكن
وقد خلتنا باللطيف من الهوى
رضينا بما فيها سفاهاً ولم يكن
وعاقبة اللذات تخشى وإنما
وإن فرحت بالمرء يوماً حلائل
كما نكت الحبل المضاعف فائله
وتنسى نعيماً دائماً لا تزايله
فقصر عن ورد جيش مناهله
كما خان أعلى البيت يوماً أسافله
لتأمن في وادٍ به الخوف نازله
كما يختل الوحشي بالشيء خائله
بييع سمين اللحم بالفت أكله
يكدر يوماً عاجل الأمر آجله
فلا بد يوماً أن ترن حلائله (٢)

(١) ديوان أشعار الموالى ١٨٣/١ .

(٢) نفسه ١٨٥/١ .

والزهد - كما سبقت الإشارة - ظاهرة واضحة في شعر الخواج . ويحاول
إحسان سر كيم تفسير وجود هذه الظاهرة لديهم بقوله " وحيثما تتعـشـر
بعض الحركات التاريخية التي تأتي في غير أوانها أو التي يماند الواقع
سعيها ، فلا بد من ارتكاس نفسي لدى أفرادها وشعور بالفرة عن الحياة
وبالتالي الزهد فيها " (١)

وعلى الرغم مما في هذا التفسير من المنطقية ، فإننا يمكن أن نضيف
إليه تفسيراً آخر يبدو أكثر إقناعاً ، ونعني به دور طبقة القراء التي كانت تمثل
نسبة غير قليلة منهم ، والتي كان لها تأثيرها في حياتهم عامة ، وفي شعرهم
بوجه خاص . ويمزج الزهد عند الخواج بين رغبتهم في الموت في سبيل
مبادئهم تطلعاً للحياة الآخرة وما أعدّه الله لهم في جنات النعيم ، وبين
الخوف من النار وما فيها من عذاب أليم . وبين التهوين من قيمة الحياة
الدنيا ، وبين نقد من يفترون بها .

فالرهين بن سهم المرادي يرفض الحياة الدنيا الغانية طمعاً في الحياة
الباقية ، ويسأل الله أن يستشهد ليلحق برفيقه حرقوس في جنة الفردوس،
قائلاً :

يا نفسُ قد طالَ في الدنيا مُراوغتي لا تأمنين لأصرفِ الدهرِ تنغيصا
إنِّي لبائعٌ ما يَفْنَى لباقيـةٍ إنْ لمْ يَعُثْنِي رجاءُ العيشِ تربيصا

أَخْشَى فُجَاءَةَ قَوْمٍ أَنْ تُعَاجِلَنِي وَلَمْ أُرِدْ بِطَوَالِ الْعُمْرِ تَنْقِصًا
وَأَسْأَلُ اللَّهَ بَيْعَ النَّفْسِ مُحْتَسِبًا حَتَّى الْأَقْي فِي الْفُرْدِ مِنْ حَرْقِ وَصَا
وَابْنِ الْمَنِيحِ وَمِرْدَاسًا وَإِخْوَتَهُ إِنْ فَارَقُوا زَهْرَةَ الدُّنْيَا مَخَافًا (١)

وهذه المعاني في رفض الدنيا المنقطعة ، والرغبة في الشهادة التي يتحقق
من خلالها الهدف الأسمى للإنسان الخارجي وهو الوصول إلى الجنة ، هو
ما تعبر عنه أبيات أحد شعراء الخوارج ، حيث يقول :

يَا نَفْسُ مِنْ طَوَّلِ الْحَيَاةِ مِلِّي
وَعِيشِكَ الْمَنْقَطَعِ الْمَوْلَى
عَلِّي أَلْقَى عَاصِمًا لَعَلِّي
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ وَظُلِّ
وَيَهْمَسًا وَكَهْمَسَ الْمَلْطَى (٢)

ويعجب الطرماح بن حكيم ممن يجمع المال في الدنيا ويباهى به ، ويشغله
ذلك عن القيام بالواجبات الدينية تجاه ربه ، ودون أن يتذكر مصيره فسي
الآخرة حيث لا تنفع قرابة ولا مودة ، فهو يقول :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمَلٌ عِدَّةَ الْعُمْرِ وَمَوَدِّ إِذَا انْقَضَى عَدُّهُ
عَجَبًا مَا عَجَبْتُ مَنْ جَامَعَ الْمَالَ يُبَاهِي بِهِ وَيَرْتَفِدُّهُ
وَيُضِيعُ الَّذِي يَصِيرُهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ

(١) شعر الخوارج ص ٧٦ .

(٢) نفسه ص ٢٢١ .

يومَ لا ينفعُ المخوّلُ ذا الشروةِ خلانُهُ ولا ولدُهُ
ثم يُؤتَى بهِ وخصمَاهُ وسطَ الجنِّ والإِنسِ رجلُهُ ويدُهُ
خاشعَ الطرفِ ليس ينفعُهُ ثمَّ أمانيسُّه ولا لسدُّه
قل لباكي الأمواتِ لا يبيكُ للناسِ ولا يستنفعُ بهِ فندُّه
إنما الناسُ مثلُ نابتةِ الزرعِ متى يَأْنِ يأتِ محتصدُهُ (١)

ومن الواضح التأثير القرآني في الأبيات السابقة . فالبيت الرابع يستمدّه الشاعر من قوله تعالى " يوم لا ينفع مال ولا بنون " (٢) أما الصورة في البيت الخامس فمصدرها قوله تعالى " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " (٣)

ومعد . . فمن خلال النماذج السابقة التي تدعو إلى الزهد في الدنيا وتنتقد المفترين بها ، والتي تذكر بالموت ، وترغب في الحياة الآخرة . يتضح للدارس بصورة أكيدة أن شعر الزهد قد شهد مولده الحقيقي في العصر الأموي ، ثم تطور بعد ذلك حتى أصبح ظاهرة في العصر العباسي . وهو شعر يستقي أفكاره من الإسلام بما يدعو إليه من مثل سامية وقِيم رفيعة .

(١) الديوان ١٩٧ .

(٢) الشعراء ٨٨ .

(٣) النور ٢٤ .

٤ - الوصف

الوصف كما عرفه أحد النقاد القدامى " هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات " (١) . وهو أحد الموضوعات الشعرية التي شملت حيزاً كبيراً من النتاج الشعري عبر عصور الشعر العربي المختلفة . على الرغم من أنه لا يعمد في كثير من الأوقات موضوعاً منفرداً بذاته ، وإنما يتخلل الموضوعات الشعرية على اختلافها ، فقد تجده في مقدمة القصيدة أو بين ثناياها .

وقد توقف الشاعر العربي القديم أمام الطبيعة من حوله ، فراح يصف أغلب ما تقع عليه عيناه . من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وأرض ، وسماء ، وأطلال ، ورياح ، وأمطار . فكان هناك من الشعراء من تفوق في وصف الخيل أو الإبل ، أو الصيد والطرود وغير ذلك . (٢)

ومن خلال قراءة نتاج العصر الأموي في هذا اللون الشعري ، لا يعدم الباحث أن يجد بعض الأبيات التي تحمل شيئاً من الملامح الجديدة التي تعطي انطباعاً جيداً عن تأثر شعرائه بالإسلام .

لقد كان من عادة الشاعر العربي القديم في العصر الجاهلي أن يقف على أطلال الديار ليصف ما بقي من آثار أهلها ، وقد سار الشعراء الأمويون على

(١) نقد الشعر ص ١١٨ .

(٢) انظر العمدة ٢/ ٢٩٦ .

نهج سابقهم في الوقوف على الأطلال ، ويسترعى الباحث أن يجد
بعض الشعراء قد عنوا بإضافة معلم جديد جاء مع الإسلام . هذا المعلم
يرتبط بحياة الإنسان المسلم ارتباطاً وثيقاً ، وليس هناك ديار إسلامية تخلو
منه . إنه المسجد مركز العبادة الدينية ، فهم يشيرون إليه ويذكرونه باسمه
عند حديثهم عن مشاهدهم الطليية .

فهذا الراعي النميري يقف أمام منازل حي من أحياء العرب ، فلا يلح
من آثارهم إلا المسجد ، ومربط الدواب .

يقول الراعي النميري :

ظللنا سراً اليوم من حُبِّ أهلها نسائلُ آناً لها وأثافيها
بذي الرِّضَم سار الحيُّ منها فماترى بها العينُ إلا سجداً وأواريا (١)

ويقول في وثقة طليية أخرى :

تُشيرُ وتبدي عن ديارٍ بنَجْوةٍ أضربها من ذي البطاحِ خليجُ
علامتها أعضادُ نؤيِّ ومَسْجِدُ يبابٌ ومضروبُ القذالِ شجيجُ (٢)

ويبدأ طريح بن يسار قصيدته التي يمدح بها الوليد بن يزيد بمقدمة طليية
فيصف ديار حبييته التي خلت فلم يبق فيها من المعالم إلا الرماد ، والوتد
والمسجد ، ومجلس القوم ، قائلاً :

(١) الديوان ص ١٠٩ .

(٢) نفسه ص ١٢٣ .

أَقْرَمَنْ يَحْلُهُ السَّنْدُ فالمنحنى فالعقيقُ فالجَمْدُ
لم يبق فيها من المعارفِ بعدَ الحيِّ إلا الرمادُ والوتْدُ
وعَرْصَةٌ نَكَّرَتْ مَعَالِمَهَا الرِّيحُ بِهَا مَسْجِدٌ وَمُنْتَضِدٌ (١)
وهذا المشهد الطللي يتكرر عند أمية بن أبي عائذ الذي يقول في إحدى قصائده :

فيها رسومٌ كالوشومِ بأقْدَحِ التَّمْزِيدِينِ تخاطرُ الأَشْقَاصِ
لا تَسْتَبِينُ العَيْنُ مِنْ آيَاتِهَا إلا سطورَ مَسَاجِدٍ وَعِرَاصِ (٢)
فالمسجد الذي لا تخلو منه المنازل الإسلامية صار عند هؤلاء الشعراء جزءاً لا يتجزأ من المشهد الطللي لديهم .

وفي وصفه للصحراء تستوقف الطرماح بن حكيم بعض الصور الإسلامية الجديدة .

فهو في أحد أبياته يذكر من الآثار التي رآها ضربة كف تيمم صاحبها
بتراب الصحراء لفقدانه الماء ، فهو يقول :
وضبئةٌ كفٌ باشرتُ ببنائِها صعيداً كفاها فقد ماء المصافين (٣)

-
- (١) شعراء أمويون ٢٩٧/٣ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٨٨/٢ ، الشقص : الشىء اليسير .
(٣) الديوان ص ٤٩٥ ، ضبئة : ضربة ، المصافين : الذي يصفان الماء ، أي يقسمه ، والمصافنة اقتسام الماء على حصة يلقونها في إناء ، ويصبون فيه من الماء بقدر ما يفر الحصة .

وفي بيت آخر يصف آثار رجل يصلي . فقد ارتسم على التراب موضع ركبتيه
وأثر سجوده ، قائلاً :

وموضع مثنى ركبتين وسجدة
توخى بها ركنَ الحَيطِ الميَّمينِ (١)
وقد تجلّى التأثير الإسلامي على شعر الوصف في صورة أخرى أكثر أهمية ، وتمثل
ذلك في تلك الصور الفنية التي استمدّها الشعراء من الحياة الإسلامية
الجديدة . ومعلوم أن الصورة الفنية تمثل ركيزة أساسية في هذا اللون
الشعري .

فالطرماح بن حكيم يصف الآثار في أحد المواضع ، فيشبهها بخط المصحف الدقيق ،
فيقول :

أهاجَكَ يَالمَلَأَ دِئْنَ عَوَافِي كَخَطِّ الكَفِّ بِالآيِ العِجَافِ (٢)
وفي قصيدة أخرى يشبه الثور الوحشي وهو يسرع هارباً من الكلاب بالنجم الذي
يرجم به الشيطان ، قائلاً :

وولّى كَنَجْمِ الرِّجْمِ بَعْدَ عِدَائِهِ يُضِيفُ وَأَشْفَى النَّفَرَ نَفَرَ المُعَايِنِ (٣)
وهو يستوحى الصورة من قوله تعالى " وجعلناها رجوماً للشياطين " (٤)

(١) الديوان ص ٤٩٦ .

(٢) نفسه ص ٣١٩ ، الملا : اسم موضع ، العجاف : جمع اعجف وهو الضميف
الهزيل .

(٣) نفسه ص ٥٠٨ ، العداد : الوقت والموعِد ، يضيف : يشفق ويحذر من
الخوف . النفَر : النفور والفرار . وأشفى النفس نفراً الذي يعاين الخطر .

(٤) الملوك ٥ .

ويشبهه - في إحدى قصائده - حفيف شجر الأُرطى الذي يحدثه هبوب

الريح بتنادي الحجيج وأصواتهم المختلطة ، فيقول :

بمُستَرْجِفِ الأُرطَى كأنَّ جروسَه تداعي حجيج رجعه غير مُفْصَح (١)

ويصور الفرزدق في قصيدته التي يرثي بها عبد العزيز بن مروان مدى الحزن

الذي أصاب أهله لفقده ، فهم يقبلون التراب الذي دفن تحته ، ويستحضر

لرسم صورته صورة أخرى تحمل طابعاً دينياً . وهي صورة تقبيل الحجيج للحجر

الأسود أثناء طوافها بالكعبة ، قائلاً :

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وقد يقولون تارات لنا العِبرُ

يَقْبَلُونَ تَرَاباً فَوْقَ أعْظَمِهِ كما يُقْبَلُ فِي المَحْجُوجَةِ الحَجَرُ (٢)

ويصف الأَحوص سرعة ناقتة ، فهي قد قطعت المسافة بين مكة والبرك في وقت

قصير ، ويشبه قصره بنومة المتجهذ الذي لا يغفو إلا قليلاً من الوقت استعداداً

منه لقيام الليل .

يقول الأَحوص :

فَمَا جَعَلْتَ مَا بَيْنَ مَكَّةَ نَاقَتِي إِلَى الْبَرْكِ إِلَّا نَوْمَةَ الْمُتَهَجِّدِ (٣)

وعلى الرغم من نصرانيته ، فإننا لا نعدم أن نجد في شعر الوصف عند الأَخطل

بعض الملامح الإسلامية .

(١) الديوان ص ١١٢ ، الأُرطى : شجر ينبت بالرمل ، ومسترجف الأُرطى :

المكان الذي يسترجف فيه الأُرطى من الرياح ، جروسه : حفيفه الذي يحدث من هبوب الريح ، غير مفصَح : غير مفهوم .

(٢) الديوان ١/١٨٦ .

(٣) الديوان ص ٢١٩ .

فهو يصور الحرباء وهو منتصب تجاه الشمس مدة طويلة ، فيشبهه بمصل يقسراً طوال السور ، قائلاً :

إِنْ لَا تَجْهَمُنِي أَرْضُ الْعَدُوِّ وَلَا عَسْفُ الْبَلَاءِ إِذَا حَرِبَاؤُهَا جَزَلَا
يَظُلُّ مُرْتَبِئًا لِلشَّمْسِ تَصْهَرُهُ إِذَا رَأَى الشَّمْسَ مَالَتْ جَانِبًا عَدَلَا
كَأَنَّهُ حِينَ يَمْتَدُّ النَّهَارُ لَهُ إِذَا اسْتَغْلَّ يَمَانٍ يَقْسِرُ الطُّوَلَا (١)

ويقول من قصيدة أخرى :

أَجَزْتُ إِذَا الْحَرِبَاءُ أَوْفَى كَأَنَّهُ مَصِلٌ يَمَانٍ أَوْ أُسِيرٌ مُكَبَّلٌ (٢)
ويصور في إحدى قصائده الثور الوحشي وقد لجأ إلى أرطاة ليستظل بها من المطر ، وقد تتدانى من الأرض ، فكأنه ساجد يسبح لله ويبتهل ، قائلاً :

فَبَاتَ فِي حَقْفِ أَرطَاةٍ يَلُونُ بِهَا إِذَا أَحْسَّ بِسِيلٍ تَحْتَهُ انْتَقَلَا
كَأَنَّهُ سَاجِدٌ مِنْ نَضْحٍ دِيمَتِهِ مَسْبُوحٌ قَامَ بَعْضَ اللَّيْلِ فَايْتَهَلَا (٣)

ويشبه العرجي نزول محبوبته ورفيقاتها في أحد المواضع بنزول الحجيج في منى لرمى الجمار ، قائلاً :

حَتَّى إِذَا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ وَقَارَبُوا زُرْقًا وَأَسْهَلَ لِلْمَنِيخِ جَنَابُهُ
نَزَلُوا كَمَا نَزَلَ الْحَجِيجُ بِأَبْطَحٍ ضَمَّتْهُمْ عِنْدَ الْجَمَارِ حَصَابُهُ (٤)

-
- (١) الديوان ص ١٥٤ ، مرتباً : المشرف على رابية يرقب . عدل : مال .
الحرباء : دويبة تستقبل الشمس برأسها وتدور معها كيفما دارت .
(٢) نفسه ص ٢٢ .
(٣) نفسه ص ١٥١ ، الحقف : الكثيب من الرمل إذا تقوس . والأرطاة شجرة لا تنبت إلا في الرمل .
(٤) الديوان ص ٣٠ .

ويصور المرجعي في قصيدة أخرى انقراض الناس عليه وعلى رفيقه الحصين بن غرير الحميري الذي قبض عليه معه ، فيلتقط للتعبير عن ذلك صورة قرآنية هي فزع الناس من نفخة البوق ، قائلاً :

والناس شطران من ذي يَفْضَةٍ حَنِقٍ ومن مغيظٍ بدمع العينِ مخنوقٍ
هووا لنا زمرًا من كلِّ ناحيــــــــــــــــةٍ كأنما فزعُوا من نفخةِ البوقِ (١)

ويشبه الراعي النميري خدي محبوبته بمصحفين خطهما واضح أزهر ، قائلاً :

تقلبُ خَدَّيْنِ كالْمَصْحَفَيْنِ خَطُهُمَا واضحٌ أَزْهَرُ (٢)

ويشبه جميل بثينة ريق النساء بالطهور ، وذلك في قوله :

إلى رَجَحِ الْأَكْفَالِ هَيْفَ خُصُورُهَا عذابِ الشَّايَا رِيْقُهُنَّ طَهُورُ (٣)

ومن خلال الأمثلة السابقة ، وبالإضافة إلى ما يربو على خمسة عشر مثلاً في شعر

ذي الرمة (٤) ، يتضح للباحث أن موضوع الوصف قد تأثر هو الآخر بالإسلام ، وانعكست

على أبياته بعض الملامح الإسلامية الجديدة . كما هو الحال في مختلف موضوعات الشعر الأموي التي ظهر واضحاً تأثرها بهذا الدين .

(١) الديوان ص ١٣٨ .

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الديوان ص ٩٣ .

(٤) إن إغفال هذه الدراسة لقصيدة الوصف عند ذي الرمة ، على الرغم من مكانته بين شعراء هذا اللون الشعري في العصر الأموي ، جاء نابعاً من اطلاعنا على تلك الدراسة الفريدة والقيمة التي قام بها د . يوسف خليف حول " ذوالرمة شاعر الحب والصحراء " والتي أفرد جزءاً منها لدراسة أثر الإسلام في شعره تحت عنوان " تيار جديد " وقد أعطى خليف الموضوع حقه تماماً ، بحيث لم يتح لنا مجالاً للزيادة عليه . انظر كتاب ذوالرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٩١ وما بعدها .

الباب الثالث

أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الأموي

الفصل الأول : العقيدة والعبادات
والأخلاق الإسلامية

الفصل الثاني : الأحكام الفقهية
والحدود الشرعية

الفصل الثالث : القصص القرآني

"" أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الأموي ""

في الفصول السابقة تحدثنا عن الأثر الذي تركه الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، حيث ظهرت لنا المضامين الإسلامية الجديدة التي دخلت على مختلف الموضوعات الشعرية من مديح ، وغزل ، وهجاء ، وفخر ، ووصف ، ورثاء الخ .

وسنحاول هنا من خلال قراءة أخرى لشعر تلك الفترة الوقوف على الألوان والعناصر الإسلامية التي ميزت ثقافة الشاعر الأموي الدينية . وهي ثقافة - دون شك - تعتمد على منابع الإسلام الحقيقية التي تتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي ، كما تعتمد على نشأة الشاعر في بيئة إسلامية .

أما القرآن الكريم فباعتباره دستور الإسلام الخالد ، وكتابه المقدس الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ^(١) . وهو معجزة الإسلام الكبرى . الذي تحدى العرب وهم أرباب الفصاحة وأهل البيان ، وأمعن في تحديهم ، وطالبهم بالإتيان بسورة من مثله . ووقفوا عاجزين أمامه ، واعترفوا ببلاغة نظمه وقوة حجته وبيانه ، فقد كان

أقوى من أي فصاحة وبيان عرفوها من قبل . وقد نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم والشعر يحتل منزلة كبيرة في نفوسهم ، لذا أحرصت الألسن بعد نزوله ، ونزل الشعر مرتبة ثانية بعد القرآن ، وانشغل المسلمون بل انصرفوا إلى دراسته وتدبر آياته ومعانيه مما قلل اهتمامهم بالشعر . وقد امتد ذلك التأثير إلى الشعراء أنفسهم فتوقف بعضهم عن قول الشعر ، وأقبل على القرآن يقرأه ، وينهل من معينه الصافي كما فعل لبيد ابن ربيعة^(١) . وأخذ بعضهم في محاكاته ، وذلك بالاعتباس من آياته ، وتضمينها أشعارهم .

وقد مر بنا أن تأثير القرآن على لغة الشعر في عصر صدر الإسلام هي أبرز ملامح التأثير الإسلامي آنذاك .

وأما الحديث النبوي وهو " كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن الكريم ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي " .^(٢) فتأتي أهميته في كونه المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، كما أنه يفصل ما أجمله القرآن ويفسره . فالصلاة - على سبيل المثال - لا نجد في القرآن إلا الدعوة إلى إقامتها ، فجاء الحديث ليبين عدد ركعاتها وأركانها وهيئتها .

ولاشك أن نشأة الشاعر في بيئة إسلامية تتخذ من الدين الإسلامي

(١) الشعر والشعراء ٢٨١/١ ، طبقات فحول الشعراء ١٣٥/١ .

(٢) السنة قبل التدوين ص ١٦ .

عقيدة لها ومنهج حياة ، قد ساعد على نمو ثقافته الإسلامية وذلك من خلال تفاعله مع واقعه الاجتماعي ، ومن واقع ما يسمعه أو يراه من التزام بأداء الواجبات الدينية ، وتطبيق لأحكام الشريعة الإسلامية ، وفي ظل ارتياده للمجالس الدينية كما كان يفعل الفرزدق وجريرو^(١).

كل هذه الأمور وغيرها أسهمت في تكوين الثقافة الإسلامية لدى الشاعر الأموي .

(١) العقد الفريد ٣٨٣/٥ .

"" "" الفصل الأول "" ""

"" العقيدة والعبادات والأخلاق الإسلامية ""

أولاً : العقيدة :

تقوم العقيدة الإسلامية على بعض المفاهيم الأساسية التي تتمثل في أصول الإيمان الستة الوارد ذكرها في قوله تعالى " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین . . " البقرة (١٧٧) ، وقوله تعالى " إنا كل شيء خلقناه بقدر . . " القمر (٤٩) ، وكما جاء في الحديث الصحيح " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . . " (١)

وفي الشعر الأموي تطالعنا العديد من الشواهد الشعرية الدالة على معرفة بأصول الإيمان ، والتي تنبئ عن عقيدة سليمة كانت تستقر في صدورهم ، وأجدني اتفق مع الدكتور مصطفى عبد الواحد الذي يرى " أن الشعر الأموي قد برى من التفلسف والتزندق . . الذي عرف في بعض شعراء العصر العباسي ، الشعوبيين والماجنين . . الذين أصابتهم الفتنة باتصالهم بأصحاب المذاهب الفاسدة ، وجاهليات الحضارات الوافدة .. وكانوا ينتظرون بذلك " (٢)

(١) توحيد الله :

أساس العقيدة الإسلامية هو توحيد الله عز وجل بإفراده بالعبادة .

(١) صحيح مسلم ١ / ٣٧٠ .

(٢) أثر الاسلام في شعر الفرزدق ص ١٥ .

قال تعالى " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ،
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

وقد عبر أكثر من شاعر أموي عن فكرة التوحيد في شعره .

يقول جرير مخاطباً زوجته :

ثقي بالله ليس له شريك*
(١) ومن عند الخليفة بالنجاح

ويقول عبد الله بن الحجاج :

نجانسي الله فرداً لا شريك له*
(٢) بالقريتين ونفس صلبة العود

ويقول ثابت قطنه :

فلولا الله ليس له شريك*
وضربي قونس الملك الهمام
(٣) أمام الترك بادية الخدام

ويقول نابغة بني شيبان :

ولولا الله ليس له شريك*
(٤) إله الناس ذو ملك وعرش

ومن تمام الإيمان بالله التوكل عليه في جميع الأمور ، وهو أمر حث القرآن
المؤمنين على الالتزام به ، قال تعالى " والله وليهما وعلى الله فليتوكل

المؤمنون " آل عمران ١٢٢ .

(١) الديوان ٨٩/١ .

(٢) الأغاني ١٢٤/١٣ .

(٣) ديوان اشعار الموالى ٣٩/١ ، الطبري ٦١١/٦ .

(٤) الديوان ص ٢٢ .

ويعبر الفرزدق عن هذه الفكرة في قوله :

وإنّ الذي يغترّ بالله ضائعٌ ولكنّ سينجّي الله من يتوكّل^(١)

ويعبر عنها جميل بن معمر ، قائلاً :

كلوا اليوم من رزقٍ إلّا له وابشروا فإنّ على الرحمن رزقكم غداً^(٢)

ويقول جحد ر بن معاوية :

إذا انقطعت نفسُ الفتى وأخيه من الأرضِ رمسٌ ذ و ترابٍ وجندلٍ
رأى إنّما الدنيا غرورٌ وإنّما ثوابُ الفتى في صبره والتوكّل^(٣)

ووصف الشاعر للدنيا بالغرور اقتبسه من قوله تعالى " وما الحياة الدنيا

إلا متاع الغرور " الحديد ٢٠ .

ويقول ابو الأسود الدؤلي يدعو إلى التوكّل على الله :

إذا كنتَ معنياً بأمرٍ تريدهُ فما للمضائ والتوكّل من مثّلٍ
توكّل وحملٌ أمرك الله إن ما يرادُ له آتيك أنت له مَخْلٍ
فلا تحسبن السيرَ أقربَ للردى من الخفضِ في دارِ المُقامة والثمل^(٤)

وامتداداً لإيمانهم بالله وتوحيده ، فقد عبر الشعراء عن تمجيد هــ

وتعظيمهم له ، وذلك بـ ثبات الصفات التي تليق بجلال الله وعظمته ، والتي

أثبتها لنفسه في كتابه العزيز .

(١) الديوان ٢ / ٧٩ .

(٢) الديوان ص ٧٨ .

(٣) شعراء أمويون ١ / ١٨١ .

(٤) الديوان ص ٣ ، مغل : أي خلولا شىء يحول بينه وبينك ، الثمل : العيش .

فهو عالم الغيب ، قال تعالى " ولله غيب السموات والأرض وإليه

يرجع الأمر كله " هود ١٢٣ .

يقول الراعي النميري :

وإنني لداعيك الحلال وعاصماً أباك وعند الله علم المغيب^(١)

ويقول عبيد بن أيوب العنبري :

أنستُ بها لمابدتُ وألفتُها وحتى دنتُ والله بالغيب أبصر^(٢)

ويقول الفرزدق :

ملكٌ به قُصمَ الملوكُ وعندهُ علمُ الغيوبِ ووقتُ كلِّ حمَام^(٣)

وهو سبحانه وتعالى يعلم ما تخفيه الصدور ، قال تعالى " يعلم

خائنة الأعين وما تخفي الصدور " غافر ١٩ .

يقول قيس بن الملوح :

دعوتُ إلهي دعوةً ما جهلتُها وربِّي بما تخفي الصدورُ بصير^(٤)

وهو الذي خلق السموات والأرض ، قال تعالى " الحمد لله الذي خلق

السموات والأرض " الأنعام ١ .

يقول الفرزدق :

وهو الذي ابتدَعَ السماءَ وأرضها ورسوله وخليفةَ الآنام^(٥)

(١) الديوان ص ١٨٨ .

(٢) شعراء أمويون ٢١٢/١ .

(٣) الديوان ٢٨٤/٢ .

(٤) الديوان ص ١٤٠ .

(٥) الديوان ٢٨٤/٢ .

وهو رب العرش ، قال تعالى " فسبحان الله رب العرش عَمَّا

يصفون " الأنبياء ٢٢ .

يقول العدِيل العجلي :

أَعْطَاكَ ذَا الْعَرْشِ مَا أَعْطَى كِرَامَتَهُ رَبُّ الرُّسُولِ لَهُ سِيَمَا وَتَسْوِيمٌ^(١)

ويقول جريـر :

ذَا الْعَرْشِ قَدْ رَأَى أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً مُلْكْتُ فَأَعْلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمُ^(٢)

ويقول الجعد بن ضمام الدوسي :

دَعَا خَصْمَهُمْ بِالْمُحْكَمَاتِ فَبَيَّنُوا ضَلَالَتَهُمْ وَاللَّهُ ذَا الْعَرْشِ يَسْمَعُ^(٣)

وهو في هذا البيت يثبت صفة السمع لله عز وجل والتي أثبتتها لنفسه

في قوله تعالى " واتقوا الله إن الله سميع عليم " الحجرات ١ .

ويقول الفرزدق مثبِتاً صفة السمع لله عز وجل :

دَعَا لِيَسْتَخْلِفَ الرَّحْمَنُ خَيْرَهُمْ وَاللَّهُ يَسْمَعُ دَعْوَى كُلِّ مَكْرُوبٍ^(٤)

ويقول جريـر :

وَدَعَا الْخَلِيفَةُ فَاسْتَجِيبَ دَعَاؤُهُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْأَجْنَادِ^(٥)

(١) شعراء أمويون ١/٣١٨ .

(٢) الديوان ١/٧٠ .

(٣) شعر الخوارج ص ١٩٧ .

(٤) الديوان ١/٢٤ .

(٥) الديوان ١/٥٠٧ .

ومن صفاته التي تليق بجلالته وعظمته العفو والمغفرة، قال تعالى

" فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا " . النساء ٩٩

يقول عمر بن أبي ربيعة :

فديتك اطلقي حبلي وجودي فَإِنَّ اللَّهَ ذُو عَفْوٍ غَفُورٍ^(١)

ويقول محارب بن دثار يرثي :

على جميلة صلوات الأبرار
ومطرأ فاعفر له يا غفار^(٢)

(٢) الإيمان بالملائكة :

المراد بالإيمان بالملائكة هو "التصديق بوجودهم ، وأنهم كما وصفهم

الله تعالى عباد مكرمون " ^(٣) ، قال تعالى " الحمد لله فاطر السموات

والأرض جاعل الملائكة رسلا " فاطر ١ .

وفي قصيدته التي يرثي بها زوجه يدعو جرير لها بالصلوات — من

الملائكة ، د الأعلى إيمانه بهم ، قائلاً :

صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيَّرُوا وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ وَالْأَبْرَارُ
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا^(٤)

(١) الديوان ص ١٥٨ .

(٢) شعر الخواج ص ٢٠٩ .

(٣) فتح الباري ١ / ٢٥٠ .

(٤) الديوان ٢ / ٨٦٤ ، وانظر ٢ / ١٠١٥ .

وهو يستوحى ذلك من قوله تعالى "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً" الأحزاب ٥٦ .

ويقول أيوب بن خولي البجلي يرثي :

كفى حزناً أني تذكرتُ جابراً على جابرٍ صلتُ خيارُ الملائكة^(١)

وفكرة انزال الملائكة لنصرة المسلمين في غزوة بدر ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا " الأنفال ٩ - ١٢ .

وقد استلهم جرير هذه الآيات في قوله يمجّد انتصارات الحجاج :

صبرت النفس يا بن أبي عُقيلٍ محافظةً فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل مع النصر الملائكة الغضابا^(٢)

وتتكرر هذه الصورة التي تدور حول انزال الملائكة لنصرة المؤمنين عند الفرزدق في قصيدة يمدح بها الحجاج قائلاً :

دعوا ودعا الحجاجُ والخيْلُ بينها مدى النيلِ في سامي العجاجةِ أكد را
إلى باعث الموتى لينزل نصره فأُنزل للحجاجِ نصراً ———— وُزرا

(١) شعر الخوارج ص ٢١٦ ، وانظر ديوان الأحوص ص ١٥٧ ، وديوان الوليد بن يزيد ص ٢٩ .

(٢) الديوان ١/٢٤٤ ، وانظر أيضاً ٢/٧٤٣ .

ملائكة من يجعل الله نصرهم له يك أعلى في القتال وأصبرا
رأوا جبرئيل فيهم إذ لقوهم وأمثاله من ذي جناحين أظهرا^(١)

(٣) الإيمان بالكتب :

الإيمان بالكتب السماوية يقتضي الاعتقاد بأنها من كلام الله عز وجل
وأن ما ورد فيها حق .
وفي الشعر الأموي هناك ما يدل على معرفة الشعراء بالكتب السماوية
السابقة للقرآن .

يقول الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك :

أنت الذي نعت الكتاب لنا في ناطق التوراة والزبور
كم كان من قس يخبرنا بخلافة المهدى أو حبر
جعل الإله لنا خلافته برء القروح وعصمة الجبر^(٢)

ويقول جرير يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

الله أعطاكم من علمه بكم حكماً وما بعد حكم الله تعقيب
أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهل الزبور وفي التوراة مكتوب^(٣)

أما القرآن وهو الكتاب السماوي الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم

(١) الديوان ٢٤٢/١ .

(٢) الديوان ٢٦٤/١ .

(٣) الديوان ٣٤٩/١ .

فإن ذكره يتردد كثيراً في شعر هذا العصر، مما يؤكد على إدراك الشعراء
لما يمثله هذا الكتاب الجليل من قيمة كبيرة في حياة المسلمين .

فهذا أحد الخواج الذين اضطروهم عبید الله بن زیاد إلى ترك
مجالسة إخوانه ، يظهر تحسره على انغماسه في الأحاديث اللاهية
بعد أن اعتاد على تلاوة القرآن ، قائلاً :

ما زال بي صرفُ الزمان وريبه حتى رفضتُ مجالسَ الفتيانِ
وألفتُ أقواماً لغير مودةٍ وهجرتُ غير مفارقٍ إخواني
وأفضتُ في لهو الحديث وهجره بعد اعتيادِ تلاوةِ القرآنِ (١)

ويمدح جرير عمر بن عبد العزيز ، فيثنى على قيامه الليل في قراءة سور
القرآن ، فيقول :

أنت المبارك والمهديُّ سيرته تعصى الهوى وتقوم الليل بالسورِ (٢)

ويقول عبد الله بن همام السلولى مخاطباً النعمان بن بشير :

زيادُنا نعمانُ لا تحبسنَّها خف اللهَ فينا والكتابُ الذي تتلو (٣)

(٤) الإيمان بالرسول :

المراد من الإيمان بالرسول " التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به

(١) شعر الخواج ص ٦٢ .

(٢) الديوان ١/٤١٦ .

(٣) الأغاني ١٦/٣١ .

عن الله". (١)

والشعر الأموي حافل بالشواهد الشعرية التي تدل على إيمان شعراء العصر بالرسالة المحمدية .

فهذا جرير يهجو بني تغلب ، فيعيرهم بتكذيبهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الخليفة إلى أخذ الجزية منهم عقوبة لهم ، قائلاً :
فعليك جزية معشر لم يشهدوا لله أن محمداً لرسول^(٢)
ويقول- أيضاً- من قصيدة أخرى :

أتصدقون بما رسرجس وابنه وتكذبون محمداً الفرقان^(٣)

والإيمان بالرسالة المحمدية يعبر عنه عبيد الله بن قيس الرقيات في قصيدته الهزمية ، حيث يقول مفتخراً بقريش :

نحن منّا النبي الأمي والصديق منّا التقي والخلفاء^(٤)

ويقول الفرزدق مفتخراً بالتقاء نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مضر :
أبي مضر منه الرسول الذي هدى به الله من صلى بغرب ومشرق^(٥)

أما إيمان الشعراء بالرسالات الأخرى ، فهو موضوع سيتضح لنا من خلال

(١) فتح الباري ١/٢٦٠ .

(٢) الديوان ١/٩٥ .

(٣) نفسه ٢/١٠١٥ .

(٤) الديوان ص ٨٩ .

(٥) الديوان ٢/٣٨ وأنظر أيضاً ٢/٣٠٩ ، ١/٢٩٧ .

دراستنا لأثر القصص القرآني في شعرهم .

(٥) الإيمان باليوم الآخر :

المراد من الإيمان باليوم الآخر هو " التصديق بما يقع فيه من الحساب والميزان والجنة والنار" (١) ، وهو أصل من أصول الإيمان التي يلزم الإنسان المسلم الاعتقاد بها ، فعند البعث يلقي جزاءه إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرأ . قال تعالى " زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير" التغابن ٧ .
وقد عبر شعراء العصر الأموي عن رسوخ هذه العقيدة الدينية في نفوسهم ، فتحدثوا عن البعث في الآخرة ، وصوروا ما يحدث عقب البعث من حساب ، وذلك في مختلف الأغراض الشعرية .

يقول أبو بلال الخارجي :

إِنِّي أَمْرٌ بَاعَثَنِي رَبِّي لِمَوْعِدِهِ إِذَا الْقُلُوبُ هَوَتْ مِنْ خَوْفِ أَهْوَالِ
وَأَدَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي مِثْلَ مَا أَخَذَتْ وَقُرِيتْ لِحِسَابِ الْقِسْطِ أَعْمَالِي (٢)

ويقول قطري بن الفجاءة :

أَلَمْ تَرَأَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ نَازِلٌ وَلَا بَعْثَ إِلَّا لِلْأَلْيِ فِي الْمَقَابِرِ

(١) فتح الباري ١/٢٦٠ .

(٢) شعر الخواج ص ٦٤ ، وانظر شرح أشعار الهذليين ٢/٩١٩ .

حفاةُ عِراءُ^(١) والشوابُ لربهم فمن بينِ ذي ربحٍ وآخر خاسرٍ^(٢)
ويصف ذو الرمة مدحه بالعفاف والحياة وتذكره للقاء الله في الآخرة،
قائلاً :

يعفُ ويستحيي ويعلمُ أنه ملاقِ الذي فوق السماء فسائله^(٣)

ويعلن قيس بن ذريح عن كتمان سر لبنى حتى يلقي الله ، فيقول :

ولكن سألقى الله والنفس لم تبجُ بسركِ والمستخبرون كثير^(٤)

وتصور آيات القرآن خروج الناس من قبورهم عند البعث خاشعين فيقول
عز وجل " خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر " القمر ٧ .
ويقتبس عمرو بن الحصين العنبري هذه الصورة القرآنية في رثائه
لبعض الخوارج وهو يتحدث عن مآثرهم ، وأنهم كانوا خاشعين عند سماع
الذكر كخشوع الخارجين من الأجداث ، فهو يقول :

تلقاهم إلا كأنهم لخشوعهم صد روا عن الحشر^(٥)

ويوم البعث هو يوم القيامة قال تعالى " ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم
عمياً وكماً وصماً " الاسراء ٩٧ .

يقول جرير يفخر على الأخطل ، ذاكراً يوم القيامة :

(١) شعر الخوارج ص ١٣٤ .

(٢) الديوان ص ٥٦١ .

(٣) قيس ولبنى شعر ودراسة ص ٩١ .

(٤) شعر الخوارج ص ٢٤٨ .

لنا الفضلُ في الدنيا وأنفكُ راغمٌ ونحنُ لكم يومَ القيامةِ أفضلُ (١)

ويقول الفرزدق :

أجلُّ عليٍّ مرزئةٌ وأدنى إلى يومِ القيامةِ والنشورِ (٢)

والحشر الذي يحدث في ذلك اليوم ، والذي أشارت إليه الآية السابقة ، ذكره الشعراء في قصائدهم .

يقول جميل بن معمر العذري :

فلا نعمتٌ بعدي ولا عشتُ بعدها ودامتُ لنا الدنيا إلى ملتقى الحشرِ (٣)

ويقول المجنون منتظراً لقاء محبوبته في يوم الحشر :

ويا حبَّها زدنِي جوى كل ليلةٍ وباسلوةِ الأيامِ موعدُك الحشرِ (٤)

ويقول اسماعيل بن يسار يرثي :

وعلمتُ أني لن ألاقيهُ في الناسِ حتى ملتقى الحشرِ (٥)

وفي يوم القيامة يحاسب الله الإنسان على ما قدم من عمل في الحياة الدنيا قال تعالى " إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " ص ٢٦ .

(١) الديوان ١/١٤٣ .

(٢) الديوان ١/٢١٩ .

(٣) الديوان ص ١٠٥ ، وانظر أيضاً ص ١٠٤ .

(٤) الديوان ص ١٣٠ .

(٥) شعر اسماعيل بن يسار ص ٣٩ ، وانظر أيضاً الأغاني ٨/٨١٦ ، ديوان الفرزدق ١/٢٦٣ .

ويقول ذو الرمة ذاكراً يوم الحساب :

(١) ولا زلتما في حَبْرَةٍ مابقيتما ولا قيتما يوم الحساب محمداً

ويقول المجنون :

(٢) أحبك حتى يبعث الله خلقه ولى منك في يوم الحساب حسيب

ويقول يزيد بن الطثرية

(٣) فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة فحمل دمي يوم الحساب ثقیل

وفي ذلك اليوم تبلى السرائر أي تختبر قال تعالى " إنه على رجهه لقادر ،

يوم تبلى السرائر، فماله من قوة ولا ناصر" الطارق ٨ - ١٠ .

ويقول محمد بن بشير الخارجي يرثي :

(٤) فلَقَّاهُ رَبُّ يَغْفِرُ الذَّنْبَ رَحْمَةً إذا بليت يوم الحساب السرائر

ويقول الأحوص معلناً تمسكه بوجد محبوبته :

(٥) ستبقى لها في مضمير القلب والحشا سريرة ودَّ يوم تبلى السرائر

وهو يوم التغابن ، قال تعالى " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن .."

الآية التغابن ٩ .

يقول يزيد بن ضببة :

(١) الديوان ١٦٧ .

(٢) الديوان ص ٥٥ .

(٣) الديون ص ٩٨ .

(٤) شعراء أمويون ١٨١/٣ ، وانظر الأغاني ١٦/٥٣ .

(٥) الديوان ص ١١٨ .

اثنُ بعتُ حظِّي منك يوماً بغيره لبئس إذا يومَ التغابنِ ما بعت^(١)
ويقول عبد الرحمن بن حسان :

الا أبلغ معاويةَ بن صخرٍ أميرَ المؤمنين نثا كلامي
فإنّا صابرونَ ومنظروكم إلى يومِ التغابنِ والخصامِ^(٢)

والجنة والنارهما المصير النهائي لكل البشر . فالجنة هي دار الخلد التي وعد الله بها عباده المتقين ، وهى لهم فيها كل ما تشتهيهِ النفوس من نعيم . وآيات القرآن تتحدث كثيراً عن الجنة ، ومن ذلك قوله تعالى " تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً " مريم ٦٣ .

ويتردد ذكر الجنة ومراد فاتها كالفردوس وعدن كثيراً في الشعر الأموي في أغراض مختلفة ، وبخاصة في شعر الرثاء ، حيث يتمنى الشاعر لمن يرثيهم دخول الجنة ، أو يتوقع لهم ذلك جزاء عملهم ، إذ ماتوا شهداء في سبيل الله ، أو متمسكين بدِينه .

يقول أبو بلال الخارجي :

نرجو الجنان إذا صارتُ جماجمنا تحتَ العجاجِ كمثُلِ الحنظلِ البالي^(٣)

ويقول كعب بن عميرة يرثي أبا بلال الخارجي :

(١) رغبة الأمل ٦٣/٢ .

(٢) الديوان ص ٥٤ .

(٣) شعر الخوارج ص ٦٤ .

شرى ابنُ حُدَيْرٍ نَفْسَهُ اللَّهَ فَاحْتَوَى جَنَّاتاً مِنَ الْفَرْدِ وَسِجْجاً نَعِيمُهَا^(١)

ويقول جرير يمدح العباس بن الوليد بن عبد الملك :

أَعْطَيْتَ مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدِ وَسِجْجاً مُرْتَفَقاً^(٢) مِنْ فَازٍ يَوْمُئِذٍ فِيهَا فَقَدْ خَلَدَا

ويقول ذو الرمة :

يَا صَاحِبِيَّ انْظُرَا آوَاكُمَا دَرَجٌ^(٣) عَالٍ وَظِلٌّ مِنَ الْفَرْدِ وَسِجْجٌ مَمْدُودٌ

ويقول عمران بن حطان :

وَيَجْعَلُ اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ نَزْلَهُمْ^(٤) ظِلًّا وَجَنَّاتٍ عَدْنٍ مَأْوَاهَا غُلُلٌ

وقد اقتبس الشعراء في وصفهم للجنة وما فيها من النعيم ، بعض الصور القرآنية التي صورت ذلك .

يقول الفرزدق يرثي من مات من الخلفاء قبل سليمان بن عبد الملك :

تَبِعُوا رَسُولَهُمْ بِسُنَّتِهِ حَتَّى لَقَوْهُ وَهُمْ عَلَى قَدَرٍ^(٥)
رَفَقَاءَ مَتَكِّينَ فِي غُرَفٍ فَرَحِينَ فَوْقَ أُسْرَةٍ خَضِرٍ

أما ذكره للغرف فقد أخذه من قوله تعالى " والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين " العنكبوت ٥٨ ، أما ذكره للأسرة فقد أخذه من قوله تعالى

(١) نفسه ص ٧٥ .

(٢) الديوان ١/ ٣٩٦ .

(٣) الديوان ص ١٨٢ .

(٤) شعر الخواج ص ١٦٨ ، وانظر ديوان أشعار الموالى ٢/ ٣٣١ .

(٥) الديوان ١/ ٢٦٦ .

" متكئين على سرر مصفوفة " الطور ٢٠ ، أما وصفه لها بأنها خضـــــر
ففيه أثر قوله تعالى " متكئين على رفرف خضر ، " الرحمن ٧٦ ، وهكذا
فقد جمع الشاعر في أبياته بين أكثر من صورة .

ويشير إلى الغرف الأصم الضبي الخارجي في قوله يرشي الخـــــواج
الذين قتلوا عند الجوسق :

ساروا الى الله حتى أنزلوا غرماً من الأرائك في بيت من الذهب .^(١)
وذكره للآرائك أخذه من قوله تعالى " على الآرائك ينظرون ، تعرف فسي
وجوههم نضرة النعيم " المطففين ٢٤ .

ويشير حبيب بن خدره إلى تلك الغرف في رثائه قتلى الخواج مع
الجوسق حيث يقول :

أبكي الذين تبوءوا الغرف العلى فجرت لهم من تحتها الأنهارُ
أبكي لنفسى لا لهم أبكيهم لا صبر حيث تعارف الأبرارُ^(٢)
وفي قصيدته التي يمدح بها هشام بن عبد الملك ، يصف جرير الحدائق
التي أحدثها شق نهر الهني ، فيظهر تأثير الصور القرآنية حول الجنة
واضحاً في أبياتها ، فهو يقول :

بلغت من الهني فقلت شكراً هناك وسهل الجبل الصلودُ

(١) شعر الخواج ص ١٣٩ .

(٢) نفسه ص ٢٢٩ .

بها الزيتون في غلٍّ ومالتُ عناقيدُ الكرومِ فهنَّ سودُ
 فتمَّت في الهنيءِ جنانُ دنيا فقال الحاسد ونَ هي الخلودُ
 يعضّون الأناملَ أن رأوها بساتيناً يوازرها الحصيدُ
 ومن أزواجٍ فاكهةٍ ونخلٍ يكونُ لحمُه طلعُ نضيدٍ^(١)
 والنار هي التي توعده الله جل وعلا بها من عصاه واتبع سبل الشيطان
 قال تعالى "إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم
 خالدون فيها" البينة ٦٠ .

وذكر النار ومراد فاتها كسقر وجهنم ، يتردد في شعر العصر الأموي
 وخاصة في شعر الزهد والتوبة ، وأحياناً في الهجاء .

يقول عبيد بن أيوب العنبري :
 ياربُّ قد حلفَ الأعداءُ واجتهدوا أيماهم إنني من داخل النارِ
 أيحلفون على عمياءٍ ويجهلهم ما علمهم بعظيم العفو غفارٍ^(٢)
 ويقول عبد الله بن أبي الحوساء الكلابي :
 وقد علمتُ وخيرُ القول أنفعُهُ أن السعيدَ الذي ينجو من النارِ^(٣)
 ويقول كثير عزة :

فقلتُ لها والله لو كانَ دنكمُ جهنمُ مارعتُ فؤادي جهنمُ^(٤)

(١) الديوان ٢٩١/١ .

(٢) شعراء أمويون ٢١٥/١ .

(٣) شعر الخواج ص ٥٥ .

(٤) الديوان ص ٣٦٦ .

ويقول جريـر :

وما رضىتم لأجسادٍ تحرقهمُ في النارِ إذ حرقَتْ أرواحهم سقر^(١)
ويصف عمران بن حطان النار فيستلهم في ذلك التصوير القرآني لها ، فهو
يقول :

فيها شرابٌ لهم يشوي وجوههم من الحميم ويروي شربها المهل^(٢)
وقد أخذ ذلك من قوله تعالى " وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي
الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا " الكهف ٢٩ .
ويقول أيضاً :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهمُ بمثل الجمالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةُ الشَّوْى^(٣)
وهذه صورة قرآنية واضحة أخذها الشاعر من قوله تعالى " إنها ترمي
بشرر كالقصر ، كأنه جمالة صفر " المرسلات ٣٢ ، وقوله تعالى " كلا إنها
لظى ، نزاعة للشوى " المعارج ١٥ ، ١٦ .

ويقول يزيد بن مفرغ الحميري :

أيها المالكُ المَرهَبُ بالقَتْلِ بلغتِ النَّكَالَ كلَّ النَّكَالِ
فأخْشَ ناراً تشوى الوجوهَ ويوماً يقذِفُ الناسَ بالدَّواهي الثَّقالِ^(٤)

(١) الديوان ١/ ١٥٣ .

(٢) شعر الخواج ص ١٦٩ .

(٣) نفسه ص ١٢٤ .

(٤) الديوان ص ١٨٧ .

وفي القصيدة - التي تنسب إليه - يتحدث عمران بن حطان عن مصير الناس في الآخرة ، فيصف الجنة والنار ، قائلاً :

أَمْ مَنْ تَلَطَّى عَلَيْهِ مَوْقِدَةُ النَّارِ مُحِيطٌ بِهِمْ سَرَادِقُهَا
أَمْ أَسْكَنُ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ الْأَبْرَارُ مَصْفُوفَةٌ نَمَارِقُهَا
لَا يَسْتَوِي الْمَنْزِلَانِ وَلَا الْأَعْمَالُ لَا تَسْتَوِي طَرَائِقُهَا
هُمَا فَرِيقَانِ فَرَقَةٌ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِهِمْ حَدَائِقُهَا
وَفَرَقَةٌ مِنْهُمْ قَدْ أَدْخَلَتْ النَّارُ فُشَانَتَهُمْ مَرَاغِقُهَا (١)

ومن الواضح اقتباس الشاعر لصورة من القرآن ، فالبيت الأول أخذه من قوله تعالى " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا " الكهف ٢٩ ، أما البيت الثاني فقد اقتبسه من قوله تعالى " وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ " الغاشية ١٥ ، وأما البيت الخامس فهو مقتبس من قوله تعالى " بئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا " الكهف ٢٩ ، ويرسم الفرزدق بعض الصور الفنية ، التي يعبر من خلالها عن بعض أفكاره الشعرية وذلك من خلال استيحائه للتصوير القرآني للنار .

فهو يقول هاجياً جرير :

فَإِنَّكَ مِنْ هَجَاءِ بَنِي نُعْمِرٍ كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ وَجَدُوا الْعَذَابَا
رَجَوا مِنْ حَرِّهَا أَنْ يَسْتَرِيحُوا وَقَدْ كَانَ الصَّدِيدُ لَهُمْ شَرَابَا (٢)

(١) شعر الخواج ص ١٨٨ ، وهو منسوب إليه .

(٢) الديوان ١٠٢/١ .

ويصور الفرزدق وقع هجائه على بعض من يهجوهم ، فيجعلهم يتلاعنون بسبب هجائه كما يفعل أهل النار عند دخولهم فيها ، فيقول :

فما زلت عن سعدٍ لدنٍ أن هجوتُها أخصُّ وتاراتٍ أعمُّ فأجمعُ
جُعِلْتُ على سعدٍ عذاباً فأصبحتُ تلاعنُ سعدٌ في عذابي وتقمعُ
تلاعنُ أهلُ النارِ إذ يركبونُها وإذ هي تغشى المجرمين وتسفعُ^(١)

وهذه الصورة مستمدة من قوله تعالى " قال ادخلوا في أم قد خلست من قبلكم من الجن والإانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها "

الآية الأعراف ٣٨ .

ويصور - في أبيات أخرى - ما كان يعانيه مع امرأة طلقها ، فيتخيله كعذاب جهنم ، فيقول :

وما زلتُ حتى فرقَ اللهُ بيننا لهُ الحمدُ منها في أذى وجهادٍ
تجددُ لي ذكرى عذابِ جهنمٍ ثلاثاً تمسّيني بها وتغادِي^(٢)

(٦) الإيمان بالقدر :

الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة التي يجب على الإنسان المسلم أن يلتزم بها ، وذلك بأن يكون على يقين بأن كل ما أصابه قد خط في اللوح المحفوظ ، وأن ليس هناك مناص من وقوعه .

قال تعالى " سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً

(١) نفسه ١ / ٤٠٥ .

(٢) نفسه ١ / ١٨٠ .

مقدورا " الأحزاب ٣٨ .

وفي الشعر الأموي تقابلنا شواهد شعرية تدل على إيمان شعرائه

بالقدر .

يقول عبيد الله بن الحر الجعفي :

وما لأمرئٍ إلا الذي الله سائقٌ إليه وما قد خطّ في الزبر كاتبة^(١)

ويقول الأحوص الأنصاري :

ليس امرؤ كان في عيش يسر به يوماً بأخلد من عادٍ ومن إرم
يهوى الخلود وقد خطّت منيته ولا مردّ لأمر خطّ بالقلسم^(٢)

ويقول ثابت قطنه :

وما قضى الله من أمرٍ فليس له ردٌّ وما يقض من أمرٍ يكنّ رشداً^(٣)

ويقول طريح بن إسماعيل الثقفي :

يا صلت إن أباك رهن منية مكتوبة لا بد أن يلقاها^(٤)

والإيمان بقضاء الله وقد ره يقتضي الصبر على المصائب ابتغاء الأجر والثواب

من عند الله عز وجل . قال تعالى " والصابرين في البأساء والضراء وحين

البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " البقرة ١٧٧ .

(١) شعراء أمويون ٩٥/١ .

(٢) الديوان ص ٢٠٠ .

(٣) الأغاني ٢٧٠/١٤ .

(٤) شعراء أمويون ٣١٤/٣ .

وهذا وضاح اليمن يقول حين ورد عليه نعي أبيه وأخيه يرثيهما :

سأصبرُ للقضاءِ فكلُّ حيٍّ سيلقى سكرة الموتِ المذوقِ
فما الدنيا بقائمةٍ وفيها من الأحياءِ ذو عینٍ رموقِ
وللأحياءِ أيامٌ يقضّى تلفُ ختامها سوقاً بسوقِ (١)

وقد اقتبس الصورة في البيت الأول من قوله تعالى " كل نفس ذائقة الموت " العنكبوت ٥٧ ، كما أخذ الصورة في البيت الثالث من قوله تعالى " والتفت الساق بالساق " القيامة ٢٩ كما نجد مليكة الشيبانية ترثي الضحاک بن قيس الخارجي فتقول :

قولي مليكٌ عليك بالصبرِ تستوجبين فضائلَ الأجرِ (٢)

ويقول سابق البربري :

وإصبرْ على القدرِ المحتومِ وارضِ بهِ وإن أتاكَ بما لا تشتهي القدرُ (٣)

ويقول المجنون :

أبى الله أن تبقى لحى بشاشةٍ فصبراً على ما شاءه الله لي صبرا (٤)

ويقول البعيث المجاشعي :

أرسلَ بكراً مالِكٌ يستحثُّنا يحاذرُ من ريبِ المنونِ فلم يقلْ

(١) الأغاني ٢٢٩/٦ .

(٢) شعر الخواج ص ٢٣٨ .

(٣) ديوان أشعار الموالى ١٧٧/١ .

(٤) الديوان ص ١٧١ .

أما لكُ مهما يقضه الله تلقه وإن حان ريثٌ من رفيقك أو عجل^(١)

ومن دلائل الصبر على ما قضاه الله وقدره الاسترجاع عند حلول المصائب قال تعالى " وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " البقرة ١٥٥ ، ١٥٦ .

قال جرير في إحدى نقائضه مع الفرزدق :

أتعدلُ أحساباً كراماً حماتها بأحسابكم إنني إلى الله راجع^(٢)

كما نجد هذه الفكرة عند شعراء الغزل :

يقول قيس بن ذريح : فواكبدني من شدة الشوق والجوى ووأكبدني إنني إلى الله راجع^(٣)

ويقول العرجي :

لذي لطفٍ من صحبتي هو دونهم أقاتلني إنني إلى الله راجع^(٤)

والموت هو النهاية الحتمية لكل إنسان وقد حدده الله سبحانه وتعالى بوقت لا يتجاوزهُ الإنسان . قال تعالى " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " الأعراف ٣٤ .

ويورد قطري بن الفجاءة هذا المعنى في شعره فيقول وهو يخاطب نفسه ويدعوها إلى اقتحام سبل الموت لأنه لا يأتي إلا بأجل :

فانك لو سألت بقاء يومٍ عن الأجل الذي لك لم تطأني

(١) الشعر والشعراء ٥٠٥ / ١

(٢) الديوان ٩٢٤ / ٢ ، وانظر ديوان الفرزدق ٤٢٠ / ١ .

(٣) قيس ولبنى شعر ودراسة ص ١٠٥ .

(٤) الديوان ص ٤٧ .

فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً فما نيلُ الخلودِ بمستطاع^(١)
 ويقول - أيضاً - في قصيدة أخرى :
 ولستُ أرى نفساً تموتُ وإن دنتُ من الموتِ حتى يبعثَ اللهُ داعياً^(٢)
 ويقول عبد الله بن خليفة يرثي :
 وبك على الخلائق لما تحزّموا ولم يجدوا عن منهلِ الموتِ مصدراً
 دعتهُم منايهم ومن حانَ يومُهُ من الناسِ فاعلم أنه لن يوءِ خيراً^(٣)
 ويقول المتوكل الليثي :
 لما رأته أنني لا بدّ منطلقٌ وللفتى أجلٌ قد خطّ معدودُ
 قامت تكرهني غزوي وتخيرني أن سوف يخلدني روع وتبليدُ
 هل المنية إلا طالبٌ ظفرٌ وحوضها منهلٌ لا بدّ مورود^(٤)
 وقال ذو الرمة في رجز له :
 فقلت لا والمبدي المعيدُ الله أهلُ الحمدِ والتحميدِ
 ما دونَ وقتِ الأجلِ المعدودِ نقصٌ وما في الطمّ من مزيدِ^(٥)
 والموتُ يلقي أنفُسَ الشهودِ^(٥)

-
- (١) شعر الخواج ص ١٢٢ .
 (٢) نفسه ص ١٢٥ .
 (٣) الطبري ٥ / ٢٨٢ .
 (٤) شعر المتوكل الليثي ٢١٢ .
 (٥) الديوان ص ٢٢٥ .

ثانياً : العبادات :

تمثل العبادات الجانب العملي للإيمان ، فهي الدليل على حقيقة إيمان صاحبها وصدقه . ولأهمية العبادات في حياة الإنسان المسلم فإن الشعر الأموي يحفل بالكثير من الشواهد الشعرية التي تشير إلى العبادات الإسلامية وهو ما يتضح فيما يلي :

(١) الصلاة :

عمود الدين ، والركن الثاني من أركان الإسلام ، حث القرآن المسلمين على أدائها لما تمثله من قيمة روحية في حياتهم ، وحذرهم من التهاون فيها . قال تعالى " قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة " إبراهيم ٣١ .

والفرزدق يشير إلى قيمة الصلاة في حياة الإنسان المسلم في قوله :

لقد دلّتهني عن صلاتي وإنه ليدعو إلى الخير الكثير إقامها^(١)
وكأنه يستوحي في بيته قوله تعالى " وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " العنكبوت ٤٥ .

ويهجو جرير الفرزدق بعدم أدائه الصلاة مع المسلمين ، قائلاً :

ماكان يشهدُ في المِجامعِ مشهداً فيه صلاةُ ذوى التّقى مشهوداً^(١)
ويمدح نابغة بني شيبان الوليد بن عبد الملك لهدمه الكنيسة وتحويلها
إلى مسجد تقام فيه الصلاة ، فيقول :

فاليومَ فيه صلاةُ الحقِّ ظاهرةٌ وصادقٌ من كتابِ اللّهِ معروفٌ^(٢)
وترتبط الصلاة - كما ذكرنا - بالمسجد ، وهو المكان الذي يلتقي فيه
المسلمون لأدائها ، وهو معلم مهم في المجتمعات الإسلامية ، لعب
دوراً كبيراً في حياة المسلمين الأوائل ، إذ كانت تقام فيه حلقات الدروس
وتعقد فيه المعاهدات في السلم والحرب .

يقول جرير مفتخراً على الأخطل :

فيما المساجدُ والإمامُ ولا ترى في آل تغلبَ مسجداً معموراً^(٣)
وقد مربنا في دراستنا لأثر الاسلام في شعر الوهف أن المسجد أصبح
أحد المعالم الجديدة التي دخلت على المقدمة الطللية في الشعر
الأموي .

والوضوء بالماء شرط لصحة الصلاة ، فإن لم يوجد جاز التيمم ، وهو
رخصة شرعية عند عدم وجود الماء ، قال تعالى " . . . وإن كنتم مرضى
أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً
(١) الديوان ١/ ٣٤٠ .
(٢) الديوان ص ٣٥ ، وانظر أيضاً ديوان جرير ١/ ٤٨١ ، ٢/ ٨٢٩ ، ديوان
ذي الرمق ص ٢٨١ ، ديوان أشعار الموالى ١/ ٢٤٦ .
(٣) الديوان ٢/ ١٠٣٠ ، وانظر أيضاً ٢/ ٦٠٤ ، ١٠٢٧ ، ديوان الأخطل
٢/ ٥٠٨ ، ٧٣٠ ، ديوان الفرزدق ١/ ٣٩٤ ، ٢/ ٢١٩ ، ديوان الراعي
النميري ص ٢٤٨ ، شعراء أمويون ٢/ ٤٧٤ .

فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفواً غفورا " النساء ٤٣ .

ويشير ذو الرمة إلى هذه الرخصة الشرعية في شعره، فيقول واصفاً قوماً على سفر:

حتى استحلوا قسمة السجود^(١) والمسح بالأيدي على الصعيد^(٢)
ويقول هاجياً قبيلة امريء القيس :

إذا مرثيات حللن ببلد^(٣) من الأرض لم يصلح طهوراً صعيدوها^(٤)
ويقول الطرماح بن حكيم واصفاً :

وضبثة كف^(٥) باشرت بينانها صعيداً أكفاها فقد ماء المصافين^(٦)

وقد أباح الإسلام قصر الصلاة للمسافر، قال تعالى " وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة . . . " النساء ١٠١ . وإلى ذلك يشير ذو الرمة حين يقول :

ومغنى فتى حلت له فوق رحل^(٧) ثمانية جرداً صلاة المسافر^(٨)

ويقول الفرزدق :

فإن تصحبينا يا نوارتنا صفي^(٩) صلاتك في فيف تكر حواجله^(١٠)

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) نفسه ص ٢٣٢ .

(٣) الديوان ص ٩٥ .

(٤) الديوان ص ٣٨٣ ، وانظر ص ٣٠٣ .

(٥) الديوان ٨٨ / ٢ .

(٢) الزكاة :

أحد أركان الإسلام ، وضعها الخالق لتحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين . يقول جل وعز ((والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتهم أجراً عظيماً " النساء ١٦٢ والراعي النميري في قصيدته التي يمدح بها عبد الملك بن مروان ، ويشكو فيها السعاة ، يعلن عن اعترافه وقومه بحق الزكاة في أموالهم ، قائلاً :

أوليَّ أمرِ الله إنا معشرُ حنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلاً
عربٌ نرى لله في أموالنا حقَّ الزكاة منزلاً تنزيلاً
قومٌ على الإسلام لما يمنعون ماعونهم ويضيّعوا التهليلاً (١)

ويقول الفرزدق :

فلم يبق إلّا من يؤدي زكاته إلينا ومعطٍ جزيةً حين حلت (٢)

(٣) الصوم :

أحد أركان الإسلام الخمسة ، قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " البقرة ١٨٣ وفي الشعر الأُموي نجد بعض الشواهد الشعرية التي تذكر الصوم .

(١) الديوان ص ٥٦ ، وانظر أيضاً ص ٩٠ .

(٢) الديوان ١/ ١١٥ ، وانظر ديوان يزيد بن مفرغ الحميري ص ١٨٦ .

فهذا عمرو بن القنا التميمي يمدح رفاقه من الخواج ، فيصفهم
بكثرة الصوم ، حتى إن ذلك ظهر على جسامهم ، قائلاً :
معي كلُّ أواهٍ يرى الصومُ جسمهُ ففي الجسمِ منه نهكةٌ وشحوبٌ^(١)
ويقول العرجي هاجياً :

يظلُّ يرأِّي بالصيامِ نهارهُ ويلبس في الظلماءِ سِمطِي قرنفلٍ^(٢)
ويقول خلف بن خليفة :

فياربَّ أخرجها فإنك مخرجٌ من الميتِ حياً مُفصحاً بكلام
فتعلم ما شكري إذا ما قبضتها وكيف صلاتي عند ها وصيامي^(٣)

(٤) الحج :

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، قال تعالى " ولله على
الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن
العالمين " آل عمران ٩٧ ، وقال صلى الله عليه وسلم " إن الإسلام
بني على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة
وصيام رمضان ، وحج البيت " .^(٤)

وفي الشعر الأموي يتردد ذكر الحج ومناسكه في شعر الغزل بوجه
خاص، حيث عمد الغزلون في الحجاز إلى الركض خلف الحاجات والمعتمرات

(١) شعر الخواج ص ١٠٣ .

(٢) الديوان ص ١٨٩ .

(٣) الشعر والشعراء ٢ / ٧١٩ .

(٤) صحيح مسلم ١ / ٤٥ .

فى كل مشاعر الحج ، استلهاماً لقصائد هم الغزلية .

يقول محمد النميري :

أعان الذي فوق السماوات عرشه	مواشي بالبطحاء مؤتجرات
مررن بفتح ثم رحن عشيقة	يلبين للرحمن معتمرات
يخبئن أطراف البنان من التقى	ويقتلن بالألحاظ مقتد رات
وليست كأخرى أوسعت جنب د رعا	وأبدت بنان الكف للجمرات
وغالت ببان المسك وحفاً مرجلاً	على مثل بدرٍ لاح بالظلمات
وقامت تراءى بين جمعٍ فافتنست	برؤيتها من راح من عرفات (١)

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

إني ومن أحرم الحبيج له	وموقف الهدى بعد واليدن
والبيت ذي الأبطح العتيق وما	جلل من حرّ عصب ذي اليمن
والأشعث الطائف المهمل وما	بين الصفا والمقام والركن
وزمزم والجمار إذ رميت	والجمرتين اللتين بالبطن
ماخنت عهد القتول إذ شحطت	ولو أتوها به لتصرمني (٢)

ويقول العرجاني :

عوجي علي فسلمي جبرُ فيم الصدودُ وأنتم سفرُ

(١) شعراء أمويون ٣ / ١٢٤ .

(٢) الديوان ص ٢٩٧ .

ما نلتقي إلا ثلاثَ مَنى حتّى يفرقَ بيننا النفسُ
الحولُ ثم الشهرُ يتبعه ما الدهرُ إلا الحولُ والشهرُ (١)

ثالثاً : المثل والأخلاق الإسلامية :

جاء الإسلام يحمل معه مجموعة من المثل والأخلاق الإسلامية التي أراد لها أن تحكم حياة المجتمع الإسلامي وعلاقات أفرادها فيما بينهم . وقد تعرضنا في دراستنا لأثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي، إلى كثير من هذه المثل كالعدل والتقى والصلاح والزهد والعفة وغيرها . وسنعرض هنا لبعض المثل التي لم نتعرض لها من قبل .

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ميز الله الإنسان المسلم وفضله على غيره بهذه الصفة التي أراد لها أن ترتبط بحياته ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " آل عمران ٦٥ . وملike الشيبانية في رثائها لعمها تجعل الأمر بالمعروف أحد مآثره ، فتقول :

أصبرتُ عن عمي الذي قد كان بالمعروفِ آمرٌ^(١)

كما تضيف هذه الصفة المثالية على الضحاك بن قيس الخارجي في قولها
ترثيه :

ذهبَ الذي قد كان يأمرنا بالخوفِ والمعروفِ والذكرِ^(٢)

(١) شعر الخواج ص ٢٣٩ .

(٢) نفسه ص ٢٣٨ .

ويقول حارثة بن بدر يرثي زياد بن أبيه :

أبا المفيرة والدنيا مفعجةٌ وإنَّ من غرّت الدنيا لمغرورٌ
قد كانَ عندكَ بالمعروفِ معرفةٌ وكانَ عندكَ للنكراءِ تنكيرٌ (١)

وفي رثائه لحجر بن عدي يقول عبد الله بن خليفة :

فنبعم أحوالَ إسلامٍ كنتَ وإنَّني لأطمعُ أنْ توتئى الخلودَ وتُحبرا
وقد كنتَ تُعطي السيفَ في الحربِ حقَّه وتعرفُ معروفًا وتُنكرُ منكرا (٢)

٢- بر الوالدين :

دعا الإسلام في محكم التنزيل إلى بر الوالدين والإحسان إليهما
قال تعالى " ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا " الأحقاف ١٥ . وهذا
المعنى يعبر عنه أعشى همدان في قوله :

نحنُ ولدُناك فلا تجفُنَا واللهُ قد وصَّاك بالوالِدِ (٣)

٣- صلة الأرحام :

من الأمور التي حث الإسلام عليها وحذر من قطعها صلة الأرحام،
قال تعالى ، " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا
أرحامكم " محمد ٢٢ ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " من قطع رحماً ،

(١) شعراء أمويون ٢/ ٣٤٦ .

(٢) الطبري ٥/ ٢٨٢ .

(٣) الديوان ص ١١٠ .

أو حلف على يمين فاجرة رأى وباله قبل أن يموت" (١)
والفرزدق يحذر في أحد أبياته من قطع الأرحام ، وماتجره من
الذنوب ، قائلاً :

فلا تقطعوا الأرحامَ منافقاً لها ذنوبٌ من الأعمالِ يُخشى إثمها (٢)
ويعاتب الأحموس الأنصاري عمر بن عبد العزيز حين جفاه وأعرض عنه ،
فيدعوه إلى صلة الأرحام التي هي من علامات التقى ، قائلاً :
ألست أباحص هُدًى مخرّية أفي الحق أن أقصى ويد نبي ابن أسلم
ألا صلة الأرحام أدنى إلى التقى وأظهر في أكفائه لو تكرم (٣)
ويعاتب عبيد الله بن قيس الرقيات قوم حبيبتة ، فيتهمهم بقطع الأرحام ،
فيقول :

فلله عينا من رأى مثل قومها غداة غد وا كانوا أعق وأفجرا
وأقطع للأرحام لم يرقبوا بها من الله إلا يوم ذاك وأبصرا (٤)

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣ / ١١٤ .

(٢) الديوان ٢ / ٢٤١ .

(٣) الديوان ص ١٩٧ .

(٤) الديوان ص ١٣٩ .

" الفصل الثاني "

" " الأحكام الفقهية والحدود الشرعية " "

الشعر - كما هو معلوم - تعبير عن العواطف والأحاسيس التي تختلج داخل قلب الشاعر في لحظات انفعاله ، ومن هنا فهو ليس مجالاً لذكر الأحكام الفقهية أو الحدود الشرعية ، وإلا تحول في حقيقته إلى نظم ، وفرق بين الشعر والنظم ، إذ أن الأخير لا يلتقي مع الشعر إلا في الوزن والقافية ، وما كل موزون مقفى يعد شعراً . غير أننا لانعدم من خلال استعراض الشعر الأموي أن نجد خلاله بعض الشواهد الشعرية التي تشير إلى بعض الأحكام الفقهية ، أو بعض الحدود الشرعية التي تدل على معرفة الشعراء بها . وهي في الغالب تجيء من خلال هجاء الشاعر لخصومه بمخالفة الشريعة الإسلامية . ولعل من البديهي القول بقلة أو ندرة أمثال هذه الشواهد باعتبار ما ذكرناه من حقيقة الشعر .

(١) الأحكام الفقهية :

لقد مر بنا في مواضع مختلفة من هذا البحث ذكر بعض الشواهد الشعرية التي تدل على بعض الأحكام الفقهية كتحريم الزنا ، والخمر ، وكجواز التيمم عند عدم وجود الماء ، وجواز قصر الصلاة في السفر ، وفرض الجزية على النصارى وغير ذلك ، وسنورد هنا بعض الإضافات الجديدة القليلة التي لم يتيسر لنا ذكرها من قبل .

فالعرجي يظهر معرفته بأحكام القضاء في الإسلام ، فهو يذكر وجوب وجود الشهود أو أداء اليمين للفصل في القضايا ، فيقول في إحدى غزلياته :

فاجعلي بيننا وبينك عدلاً لا تحيفي ولا يحيف علينا
واعلمي أن في القضاء شهوداً أو يميناً فاحضري شاهدينا (١)

ويذكر جميل بن معمر وجوب كون الشاهد عدلاً ، فيقول :

فما لك لما خبر الناس إنني أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلي عذراً أو أجبي بشاهدٍ من الناس عدلٍ أنهم ظلموني (٢)

ويشير عمر بن أبي ربيعة إلى وجوب أن يدلي الإنسان بشهادته ، فيقول :
صدقت ومن يعلم فيكم شهادةً على نفسه أو غيره فهو أظلم (٣)

وفي قصيدته التي يمدح بها الوليد بن عبد الملك ، ويشكو فيها من
العمال ، يشير الفرزدق - ضمناً - إلى تحريم الربا ، وذلك بذكر المصير
الذي ينتظر المرابين ، قائلاً :

إذا وضع السياط لنا نهراً أخذنا بالربا سرق الحرير
فأدخلنا جهنم ما أخذنا من الإرباء من دون الظهور (٤)

ويستفيد ذو الرمة من أحكام الدية في الفقه الإسلامي ، مما يقرره الفقهاء
من أن حوار الناقة لا يعد فيها ، فيقول ساخراً من بني أمية القيس :

يعد الناسبون إلى تميم بيوت العز أربعة كبارا
يعدون الرباب لهم وعمراً وسعداً ثم حنظلة الخيارا

(١) الديوان ص ١٩٤ .

(٢) الديوان ٢٨٤ .

(٣) الديوان ص ٢١٥ .

(٤) الديوان ٢٨٥ / ١ .

ويهلكُ بينها المرئي لغواً كما أُلغيت في الدية الحواراً^(١)
 ويعاني وضاح اليمن من بخل حبيبته بالقبلة أو ماشابهها ، فيذكر لها
 فتوى الترخيص في اللمم ، وكأنه يستوحي قوله تعالى " ولله مافــــي
 السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين
 أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم "

الآية ، النجم ٣١ ، ٣٢ .

يقول وضاح اليمن :

إذا قلت يوماً نولينِي تبسّمتُ وقالت معاذَ الله من فعلٍ مَحَرَّمُ
 فما نولتُ حتّى تضرعتُ عندها وأعلمتها ما رخصَ الله في اللمم^(٢)
 ويحرم ابن شيخان مولى المغيرة بن شعبة على نفسه ود بني مطيع ،
 ويستمد للتعبير عن ذلك صورة فقهية تتمثل في تحريم الدهن للرجل
 المحرم ، قائلاً :

حرامٌ كنتي مني بســــوءٍ وأذكرُ صاحبي أبداً بذا
 لقد أحرمتُ ودَّ بني مطيعٍ حرامَ الدهنِ للرجلِ الحرامِ^(٣)
 ويعير جرير قوم تغلب بإسيان النساء في المحيض ، وهو ما يحرمه الشرع ،
 فيقول :

(١) الديوان ص ٢٧٦ .

(٢) الأغاني ٦ / ٢٢٨ .

(٣) ديوان أشعار الموالى ٢ / ١٩٤ .

فَإِنَّ الْبَرِيَّةَ لَوْ جُمِعَتْ لَأَلْفَيْتَ تَغْلِبَ أَشْرَارَهَا
فَمَا يَتَّقُونَ مُحِيطَ النِّسَاءِ وَلَا يَسْتَحِينُونَ أَطْهَارَهَا (١)

كما يعير نساء بني تميم بعدم الغسل من الجنابة ، فيقول :

فَمَا اغْتَسَلْتَ تَيْمِيَّةٌ مِنْ جَنَابَةٍ وَلَا غَسَلْتَ مَيْتًا بِمَاءٍ وَلَا سَدْرٍ (٢)

وقد حرم الله عز وجل قتل النفس بغير الحق ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " الأنعام ١٥١ .

وقد ترددت هذه الفكرة كثيراً في شعر الغزل في العصر الأموي،

فمن ذلك قول جرير:

عَوِجِي عَلَيْنَا وَأَرْبَعِي رَبَّةَ الْبَغْلِ وَلَا تَقْتُلِينِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي (٣)

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

لَا تَقْتُلِينِي يَا عَثِيمُ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ عِقَابَ رَبِّكَ فِي دَمِي
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ رَحْمَةٌ وَتَعَطَفٌ فَتَحَرَّجِي مِنْ قَتْلِنَا أَنْ تَأْثَمِي (٤)

ويقول يزيد بن الطثرية :

سَلِي هَلْ أَحَلَّ اللَّهُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ دَمٍ أَوْ هَلْ عَلَيَّ قَتِيلٌ (٥)

(١) الديوان ٢٦٣/١

(٢) نفسه ٥٩٨/٣

(٣) الديوان ٩٤٨/١

(٤) الديوان ص ٢٢٩

(٥) الديوان ص ٩٨

ويقول الفرزدق :

يا ويحَ أخت بني كنانة إنها لبخيلةٌ بشفائرٍ من لم يُجْرِمِ
فلئن سفكتِ دماً بغير جريرةٍ لتخلدنَّ مع العذابِ الآلِمِ^(١)

(٢) الحدود الشرعية :

ليس في الشعر الأموي في هذا المجال إلا بعض الشواهد الشعرية القليلة التي تتناثر هنا وهناك ، وجريـر يمتاز في شعره - من بين الشعراء الأمويين - بإلمامه بالحدود الشرعية الإسلامية .

فهو يدعو إلى تنفيذ حد الرجم في الفرزدق ، وهو الحد الذي وضعه الشارع للزاني المحصن .

يقول جرير :

فإن ترجمُ فقد وجبت حد ودٌ وحلٌ عليك ما لقيت ثمود^(٢)

ويطالب بتنفيذ هذا الحد الشرعي في إحدى النساء ، قائلاً :

قاد الفرزدقُ يا حميدُ اليكم حوطاً وكان حد ودك الأحجارا^(٣)

ويقول أيضاً :

لا تتركوا الحدَّ في ليلى فكلُّكم من شأنٍ ليلى وشأنٍ القينِ مراتب^(٤)

ولعل جميل بن معمر كان على وعي عميق بوجوب إقامة الحد على من

(١) الديوان ٢/ ٢٢٧ .

(٢) الديوان ١/ ٣١٩ .

(٣) نفسه ٢/ ٥٢٩ .

(٤) نفسه ١/ ١٩٥ .

يرتكب فاحشة الزنا ، فهو يستبعد أن يكون حبه لبثينة واقعاً تحت طائلة الحد الإسلامي؛ لأنه حب عفيف ظاهر ، إلا إن كان الحب ذاته يوجب الحد .

يقول جميل :

لئن كان في حبِّ الحبيبِ حبيبُهُ حدُّ ودٍّ لقد حلتَّ عليَّ حدُّ ودٍّ^(١)
ويدل جريراً على معرفته بالحكم الإسلامي في شارب الخمر. وهو الحد جزاءً رادعاً له ، ولهذا فهو يسمي الخمر بشراب الحد في قوله يهجو الفرزدق :
خرجتَ من العراقِ وأنت رجسٌ تلبسُ في الظلامِ ثيابَ غولٍ
وما يخفى عليك شرابُ حدٍّ ولا ورهاً غائبة الحليل^(٢)
ويذكر في شعره حكم الإسلام في السارق وهو قطع يده ، والذي دل عليه قوله تعالى " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم " المائدة ٣٨ . فهو يهجو العباس بن يزيد الكندي، فيتهمه بسرقة الحجاج ، ويرى أن عقوبته هي قطع يمينه ، فهو يقول :

إذا مر الحجيحُ على قنيعٍ دبيت الليلَ تسترقُ العيابا
فقد حلتُ يمينك إن وإمامٌ أقامَ الحدَّ واتبعَ الكتابا^(٣)

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) الديوان ٦٤٣/٢ .

(٣) نفسه ٦٥١/٢ .

ويقول - أيضاً - يهجو المرار بن منقذ البرجمي وقومه :

بني منقذ ما شأنُ منحة جاركم تدفن أظلافُ لها وقرونُ
ولو نزلوا بالبيت ما بات آمنأ حمامٌ لدى البيت الحرام قُطُونُ
ولو يعلمُ السلطانُ ما تفعلونهُ لبانت يمينُ منكم ويمينُ^(٢)

وفي غزل جرير نجده يشير إلى الحكم الشرعي في القتل وهو القود أو الدية،
فهو يقول :

فلا دية - سقيت - وديت أهلي ولا قوداً بقتلي مُستفاداً^(٢)

ويقول أيضاً :

هل في الغواني لمن قتلن من قودٍ أو من دياتٍ لقتلى الأعين الحورِ^(٣)

(١) نفسه ٥٦٣/٢

(٢) نفسه ١١٧/١

(٣) نفسه ١٤٥/١، وانظر أيضاً ٣٩٤/١

« الفصل الثالث »

(((القصص القـرآني)))

" القصص القرآني "

ساق القرآن الكريم بين آياته كثيراً من القصص التي تدور حول الأنبياء والأمم القديمة ، وكان الهدف منها أخذ العظة والاعتبار بها ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى " لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب^(١) كما كانت تهدف إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تبين له أن ما يلقاه من عناء في سبيل الدعوة الإسلامية قد لقيه قبله الأنبياء فلا ييأس ولا يحزن . وقد استفاد الشعر الأموي من هذه القصص استفادة كبيرة ، حيث عمد الشعراء إلى توظيف بعض شخصياتها ، أو جانب من جوانبها في تكوين الصور الفنية التي تخدم أفكارهم الشعرية ، وهو ما يتضح فيما يلي :

قصة آدم :

أشار القرآن الكريم في عدة مواضع منه إلى قصة آدم وخروجه وزوجه من الجنة بعد أن أغواهما إبليس فأطاعاه ، ومن ذلك قوله تعالى " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين "

البقرة ٣٥ - ٣٦ .

(١) يوسف ١١١ .

والفرزدق الذي يعد واحداً من أكثر شعراء العصر تأثراً بالقرآن يربط في أبياته - التي قالها بعد طلاقه للنوار زوجته - بين حالته بعد الطلاق ، وحالة آدم بعد خروجه من الجنة ، ليصور الحالة النفسية التي يعيشها ، فهو يقول :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدْتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نِسْوَارُ
وكانت جَنَّتِي فخرجتُ منها كَأَدَمَ حِينَ لَجَّ بِهِ الْمَضَارُ^(١)

وفي قصيدته التي يهجو بها إبليس يشير الفرزدق - أيضاً - إلى قصة خروج آدم ، وذلك حين أخذ يستعرض مخازي إبليس مع من أغواهم . يقول الفرزدق :

وَأَدَمَ قَدْ أَخْرَجْتَهُ وَهُوَ سَاكِنٌ وَزَوْجَتُهُ مِنْ خَيْرِ دَارٍ مَقَامِ
وَاقْسَمْتُ يَا إِبْلِيسُ أَنْكَ نَاصِحٌ لَهُ وَلَهَا إِقْسَامٌ غَيْرُ إِثَامِ
فَطَلَّ يَخِيطَانِ الْوَرَاقَ عَلَيْهِمَا بِأَيْدِيهِمَا مِنْ أَكْلِ شَرْطَعَامِ^(٢)

إِبْلِيسُ :

أن شخصية إبليس التي تعد إحدى شخصيات قصة آدم القرآنية هي أنموذج للإغواء والضلal ، وقد اقترنت بهذه الصفة عند شعراء العصر الأموي .

يقول العرجي يهجو امرأة :

وزيرٌ لها إِبْلِيسُ في كل حاجةٍ لها عند ما تهوَّى له يتمثلُ^(٣)

(١) الديوان ١ / ٢٩٤ .

(٢) الديوان ٢ / ٢١٤ .

(٣) الديوان ص ١٥٢ .

ويقول جرير مفتخراً :

نحنُ الذين ضربنا الناسَ عن عُرْضٍ^(١) حتى استقاموا وهم أتباعُ إبليسِ

ويقول الفرزدق مادحاً :

لقد ضربَ الحجاجُ ضربةَ حازمٍ كجائندُ إبليسٍ لها وتضعضوا^(٢)

ويهجو شاعر من شعراء الأنصار زيد بن علي بقوله :

ألا يا ناقضَ الميثاقِ أبشُرْ بالذي حاكَا

نقضتَ العهدَ والميثاقَ قدماً كان قد ماكا

لقد أخلفَ إبليسُ الذي قد كان منّا كا^(٣)

قصة يوسف :

يعد يوسف عليه السلام أنموذجاً للإنسان المؤمن الصابر المتمسك بقيمه الدينية رغم كل الصعوبات التي يلقاها، والتي تحاول زحزحته عن مبادئه ، كما أنه يعد أنموذجاً للإنسان المتسامح الذي يقابل الإساءة بالإحسان ، إذ يعفو عن أخوته رغم كل ما لقيه من إساءة منهم .

وهذه الجزئية من قصة يوسف القرآنية والتي جاءت في قوله تعالى " قالوا تالله لقد اترك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " يوسف ٩١ ، ٩٢ ، يشير إليها جرير فـي

(١) الديوان ١/ ١٢٩ .

(٢) الديوان ١/ ٤١٧ ، وأنظر أيضاً ١/ ٣٩٩ .

(٣) الطبري ٧/ ١٩٠ .

قصيدته التي يمدح بها سليمان بن عبد الملك وذلك حين يقول :

كونوا كيوسفَ لما جاءَ إخوتُه واستعرفوا قالَ ما في اليومِ تثريبُ
اللهِ فضلُه واللهِ وفقُّه توفيقَ يوسفَ إذ وصَّاه يعقوبُ^(١)

ويشير الفرزدق إلى ذلك في قوله يخاطب يزيد بن عبد الملك :

كُنْ مثْلَ يوسفَ لما كادَ إخوتُه سلَّ الضَّغائنَ حتَّى ماتت الحِقْدُ^(٢)

قوم لوط :

كان قوم لوط كما ذكر القرآن يأتون الذكور دون الأنثى، ويصرون على إتيان هذه الفاحشة ، ولم يرتدعوا عن ذلك عندما نهاهم الله عن ذلك على لسان نبيه لوط، فحلّ عليهم العذاب . قال تعالى " ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، ائنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون " النمل ٤٥ ، ه ه وفي هجائه لعردة النميري راوية الراعي يقرنه جرير بقوم لوط، قائلاً :

عرادةٌ من بقية قومِ لوطٍ ألا تَبّاً لما عَمِلُوا تَبّاً^(٣)

قصة يونس :

أشار القرآن الكريم إلى قصة يونس مع الحوت في قول تعالى " فأصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه

(١) الديوان ٣٤٩/١

(٢) الديوان ١٣٩/١

(٣) الديوان ٨١٩/٢

نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم " القلم ٤٨ ، ٤٩ وإلى ذلك يشير الفرزدق في قوله :

لَمَّا رَأَيْتَ الْأَرْضَ قَدْ سَدَّ ظَهْرُهَا ولم تر إلا بطنها لك مخرجاً
دَعَوْتُ الَّذِي نَادَاهُ يُيُونُسُ بَعْدَ مَا ثَوَى فِي ثَلَاثِ مَظْلَمَاتٍ ففَرَجَا^(١)
وفي قوله أيضاً :-

ولكن رَبِّي رَبُّ يُيُونُسَ إِذْ دَعَا من الحوتِ في موجٍ من البحرِ سائلِ
دَعَا رَبَّهُ وَاللَّهُ أَرْحَمُ مِنْ دَعَا وأَدْنَاهُ مِنْ دَاعٍ دَعَا مُتَضَائِلِ^(٢)
قصة نوح :

لقد وردت قصة نوح في كتاب الله في أكثر من موضع ، ومنه قوله تعالى " ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين " هود ٤٣ .

وفي قصيدته التي يمدح بها سليمان بن عبد الملك ويهجو الحجاج يقول الفرزدق مصوراً طغيان الحجاج ومصيره :

فلما عتا الجحّادُ حينَ طغى به غنىَّ قال إنِّي مرتقي في السلامِ
فكانَ كما قالَ ابنُ نوحٍ سأرتقي إلى جبلٍ من خشيةِ الماءِ عاصمِ
رمى اللهُ في جثمانِهِ مثلما رمسى عن القبلةِ البيضاءِ ذاتِ المحارمِ

(١) الديوان ١١٧/١ .

(٢) نفسه ١٣٩/٢ .

جنوداً تسوقُ الفيلَ حتى أعادَها هباءً وكانوا مطرِخمِي الطراخمِ
نُصرتَ كنصرِ البيتِ إذ ساقَ فيلَهُ إليه عظيمُ المشركين الأعاجمِ^(١)
والأبيات الثلاثة الأخيرة تشير إلى قصة أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم
الكعبة، والتي أوردها القرآن في سورة الفيل .

ويشير الفرزدق إلى غرق قوم نوح بالطوفان حين يقول :
وكم عصَى الله من قومٍ فأهلكهم بالريحِ أغرقاً بالماء طوفاناً^(٢)
والبيت يشير أيضاً إلى قصة عاد التي أهلكها الله بالريح العاتية .
كما يشير جرير إلى دعاء نوح ، واستجابة الله له في مديحه للحجاج ،
وذلك حين يقول :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا^(٣)
وعندما مدح مسلمة بن عبد الملك، أشاد جرير بقيادته للجيش وشبهه
بنوح في قيادته للسفينة ، فقال :

مسلم جرارُ الجيوشِ إلى العِدا كما قادَ أصحابَ السفينةِ نوحُ^(٤)
والقرآن يذكر أن نوحاً عاش في قومه خمسين سنة وتسعمائة قال تعالى
" ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم
الطوفان وهم ظالمون " العنكبوت ١٤ . فهو بذلك أنموذج للإنسان

(١) نفسه ٣٠٩ / ٢ .

(٢) نفسه ٣٢٨ / ٢ .

(٣) الديوان ١ / ٢٤٤ ، وانظر ديوان الفرزدق ٢ / ٧٠ .

(٤) نفسه ٧٨٨ / ٢ .

المعمر . ومن هنا نجد القحيف العجلي عندما تغزل بامرأة تدعى خرقاء، رأى أنها تزداد ملاحه في عينيه حتى ولو تجاوزت عمر نوح المديد ، فهو يقول :

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا ملاحَةً ولو عمّرت تعميرَ نوحٍ وجلّت^(١)
وعمر بن أبي ربيعة يرضى بالصمت عمر نوح، إذا كان ذلك مطلب محبوبته، فيقول :

ولو أقسمت لا يكلمُ حتّى عمّر نوح بعيشه ماعصاكا^(٢)

قصة سليمان :

ذكر القرآن أن الله سخر لسليمان الريح ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى " فسخر ناله الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب " ص ٣٦ . والفرزدق يشير إلى ذلك في قوله :

ومن سمك السماء له فقامت وسخر لابن داود الشمال^(٣)

ويشبه يزيد بن الحكم سليمان بن عبد الملك بسليمان بن داود في عدله وفضله ، فيقول :

سميت باسم امريء أشبهت شيمته عدلاً وفضلاً سليمان بن داود
أحمد به في الورى الماضين من ملكٍ وأنت أصبحت في الباقيين محمود^(٤)

(١) الأغاني ٢٤ / ٨٥ .

(٢) الديوان ص ٤٠٠ .

(٣) الديوان ٢ / ٧٠ .

(٤) شعراء أمويون ٣ / ٢٥٨ .

وفي قصيدته التي يمدح بها الوليد بن عبد الملك ، ويشيد بتحويله
الكنيسة إلى مسجد ، يستفيد الفرزدق من جانب من جوانب قصة سليمان
وذلك في قوله :

فُهِّمَتْ تَحْوِيلَهَا عَنْهُمْ كَمَا فَهِمًا إِذْ يَحْكُمَانِ لَهَا فِي الْحَرْثِ وَالْغَنَمِ
دَاوُدُ وَالْمَلِكُ الْمَهْدِيُّ إِذْ حَكَمَا أَوْلَادُهَا وَاجْتِزَا الصَّوْفَ بِالْجَلَمِ
فَهَمَّكَ اللَّهُ تَحْوِيلًا لِبَيْعَتِهِمْ عَنْ مَسْجِدٍ فِيهِ يُتْلَى طَيِّبُ الْكَلَمِ (١)
وقد اقتبس ذلك من قوله تعالى " ود داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث
إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلاً
أتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين "
الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ .

قصة موسى :

أشار الشعر الأموي إلى عدد من الجوانب التي تعرض لها القرآن
الكريم في قصة موسى عليه السلام .

فإلى غرق فرعون الذي أشار إليه القرآن في أكثر من موضع من ذلك
قوله تعالى " وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى
بركته وقال ساحراً أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم وهو ملهم "
الذاريات ٣٨ - ٤٠ ، يشير الفرزدق في قصيدته التي يهجو بها إبليس

إذ يقول :

فقلت له هلاً أخيك أخرجت يمينك من خضر البحور طوامي
رميت به في اليم لما رأيتك كفرقة طودي يذبل وشمسام
فلما تلاقى فوقه الموج طامياً نكصت ولم تحتل له بمـرام^(١)

ويشبه كل من جرير والفرزدق الآخر بأنه السامري .

فيقول جرير هاجياً الفرزدق :

ولما دعوت العنبري ببلدة إلى غير ماءٍ لا قريب ولا أهل
ضللت ضلال السامري وقوميه دعاهم فظلوا عاكفين على عجل
فلما رأى أن الصحاري دونه ومعتلج الأنقاء من شج الرمل
بلعت نسي العنبري كأنما ترى بنسي العنبري جنى النحل^(٢)

ويقول الفرزدق هاجياً جرير :

ولقد ضللت أباك تطلب داراً كضلال ملتمس طريق وبار
لا يهتدي أبداً ولو نعت له بسبيل واردة ولا إصدار
قالوا عليك الشمس فاقصد نحوها والشمس نائية عن السفار
لما تكسّع في الرمال هدت له عرفاء هادية بكل وجار
كالسامري يقول إن حرّكتك دعني فليس علي غير إزاري^(٣)

(١) الديوان ٢/ ٢١٣، وانظر شعر عمر بن لجأ التيمي ص ١٠٨ .

(٢) الديوان ٢/ ٩٥٢ .

(٣) الديوان ١/ ٣٦٠ .

ويشبه جرير سراقه البارقي بالسامري فيقول :

يا آل بارق لو تقدّم ناصحٌ للبارقيّ فإنّه مغرورٌ
كالسامريّ غداة ضلّ بقومِهِ والعجلُ يُعكفُ حوله ويخورُ^(١)

ويذكر أبو دهيل الجمحي عبادة قوم موسى للعجل في قوله :

يدعون مروان كيما يستجيبَ لهم وعند مروانَ خارَ القومِ أوردوا
قد كانَ في قومِ موسى قبلَهم جسدٌ عجلٌ إذا خارفَهم خورَسَجَدَ^(٢) وا

وقصة السامري ورد ذكرها في القرآن في سورة طه ، الآيات ٨٥-٩٥ .

ويذكر القرآن (القصص ٢٦-٨٢) قصة قارون ، وهو رجل من قوم موسى
كان يملك كنوزاً كثيرة .

والشمردل بن شريك يهجو هلال بن أحوز المازني فيسخر منه قائلاً :
ولو قيلَ مثلاً كنزِ قارونَ عندَهُ وقيلَ التمسْ موعودَهُ لا أعادَهُ^(٣)

وسخر يحيى بن نوفل من عصا الحكم بن عبدل التي كان يكتب عليها حاجته ،
ويبعث بها مع رسله ، فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة ، فيشبهها
بعضا موسى التي كانت له آية عند فرعون .

يقول يحيى بن نوفل :

(١) الديوان ١/٣٦٦ .

(٢) الديوان ص ٨٠ .

(٣) الأغاني ١٣/٣٥٨ .

عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ وَنَحْنُ عَلَى الْأَبْوَابِ نُقْصَى وَنُحْجَبُ
وَكَانَتْ عَصَا مُوسَى لِفِرْعَوْنَ آيَةً وَهَذَا لِعَمْرِ اللَّهِ أَدهَى وَأَعْجَبُ
تَطَاعَ فَلَا تُعْصَى وَيُحْذَرُ سُخْطُهَا وَيَرْغَبُ فِي الْمَرْضَاةِ مِنْهَا وَتُرْهَبُ^(١)

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ :

ضمن قصة ذي القرنين يشير القرآن إلى قصة يأجوج ومأجوج في قوله تعالى " قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً " الكهف ٩٤ ، كما أشار إليهم في قوله عز وجل " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون " الانبياء ٩٦ .

والفرزدق يستوحي كثرة هذه الجماعة ، فيقول في قصيدته التي يمدح

بها العذافر بن يزيد التيمي :

ولو ضافه الدجال يلتبس القرى وحلّ على خبازه بالعساكر
بعدة يأجوج ومأجوج جوعاً لأشبعهم شهراً غداً العذافر^(٢)

عاد وشمود :

عاد وشمود من الأمم الضالة التي كذبت بأنبيائها فأنزل بها الله

عذابه جزاء ما عملت ، وقد ذكر القرآن قصتهم في عدة مواضع منه .

(١) نفسه ٤٠٤ / ٢ .

(٢) الديوان ٣١٨ / ١ ، وانظر أيضاً ٣٤٨ / ١ ، وديوان عروة بن أذينة

ص ٣١١ .

فأما عاد، فقد أهلكهم الله بالريح العاتية، قال تعالى " فأما عاد
فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى
القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية" الحاقة ٦-٨
ويصور جرير جيوش أمير المؤمنين وكونها وبالا على عباد الجحافي - أحد
خوارج اليمن - بالريح التي كانت نحساً على قوم عاد ، فيقول :
لا قوا بعوث أمير المؤمنين لهم كالريح إذ بُعثت نحساً على عاد^(١)
ويشبهه جرير - ذاته - بني تغلب بقوم عاد . وذلك في قوله :

كانت بنو تغلب لا يعمل جدُّهم كالْمَهْلِكِينَ بذِي الْأَحْقَافِ إذْ دَمَرُوا
صُبَّتْ عَلَيْهِمْ عَقِيمٌ مَا تَنَاطَرَهُمْ حَتَّى أَصَابَهُم بِالْحَاصِبِ الْقَدَرُ^(٢)
ويشير الفرزدق إلى مصرع عاد بالريح في قوله :

وكم عصى الله من قوم فأهلكهم بالريح أو غرقاً بالماء طوفانا^(٣)
ويقول القطامي :

نرجو البقاء وما من أمة خلقت إلا سيهلكها ما أهلك الأمما
أما سمعت بأنَّ الرِّيحَ مُرْسَلَةٌ في الدَّهْرِ كانتْ هلاكَ الْحَيِّ مِنْ إِرْمَا^(٤)

(١) الديوان ٧٤٣/٢ .

(٢) الديوان ١٥٨/١ .

(٣) الديوان ٣٢٨/٢ .

(٤) الديوان ص ١٠٠ ، وانظر ديوان أبي دهب الجمحي ص ٦١ ،

ديوان العرجي ص ١٩٢ .

وقصة ثمود وردت في القرآن في أكثر من موضع. ومن ذلك قوله تعالى
" كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة
الله وسقياها ، فكذبوه ففقروها فدمد عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ،
ولا يخاف عقابها " الشمس ١١ - ١٥ . وفي قصيدته التي يهجو بها
إبليس ، يشير الفرزدق إلى هذه القصة بقوله :

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله بأنعم عيش في بيوت رخام
فقلت أعقروا هذي اللقوح فإنها لكم أو تنيخوها لقوح غرام
فلما أناخوها تبرأت منهم وكنت نكوصاً عند كل ذي مام^(١)
ولما قرر عمر بن عبد العزيز إخراج الفرزدق من المدينة ، أجله ثلاثاً ، فإن
وجده بعدها نكل به ، فخرج الفرزدق وهو يقول :

فأجلني وواعدني ثلاثاً كما وعدت لمهلكها ثمود^(٢)
وهو يربط في ذلك بين قصته ، وبين قوله تعالى " فقال تمتعوا فني
داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب " هود ٦٥ .
وقد أصبحت ناقة صالح مضرب المثل في كل من يجلب البلاء على قومه .
يقول الفرزدق يهجو جريراً :

وكان جريرٌ على قومٍه كبكرِ ثمودٍ لها الأكد

(١) الديوان ٢١٤/٢ ، وانظر ديوان جرير ١/٢٩٠ ، ٣١٩ .

(٢) الأغاني ٢١/٤٠٢ .

رغا رغوۃ بمناياهم فصاروا رماداً مع الرمّدد (١)

من كل هذا يتضح أن الشعر الأموي يدل على ثقافة إسلامية عميقة ، اكتسبها شعراؤه بفضل نشأتهم الإسلامية ، ومعرفتهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي ، وتمثل ذلك في إدراكهم لأمر العقيدة والعبادات ، وإلمامهم بالأحكام الفقهية والحدود الشرعية ، واستلهاهم القصص القرآني . وقد شمل ذلك مختلف الموضوعات الشعرية من مدح وهجاء وغزل ورثاء ووصف وغير ذلك . وإن كان الدارس يشعر بتفوق المدح والهجاء والغزل من حيث الكم الشعري الذي تتضح فيه هذه الثقافة ، وهو أمر طبيعي ، باعتبار هذه الثلاثة هي الموضوعات الكبرى للشعر في تلك الفترة . وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الشعراء قد ظهر تأثرها بالثقافة الإسلامية ، إلا أن هناك بعض الأسماء الشعرية كجبريل والفرزدق فاق الأثر عندها سواها ، وهذا في اعتقادي يرجع إلى أن النتاج الشعري لهذه المواهب الفذة كان كبيراً ، ووصل إلينا الجزء الأكبر منه ، إن لم يكن كله .

(١) الديوان ١/١٧٦ ، وانظر أيضاً ١/٢٦٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٩ ، ٢/١١٧ .

الخاتمة

" الخاتمة "

—————

وبعد وقد انتهت فصول هذا البحث كما أردنا لها ، فلا بد من وقفه نستخلص فيها بعض القضايا التي تعرضنا لها ، والنتائج التي توصلنا إليها .

ففي التمهيد درست المتغيرات السياسية التي طرأت على الحياة العربية في ذلك العصر ، والتي تمثلت في : تغيير نظام الحكم من الخلافة التي تقوم على الشورى إلى الملك الوراثي ، وفي انتشار الترف في الأمصار الإسلامية وخاصة الحجاز ، وفي عودة العصبية القبلية إلى الظهور مرة أخرى بعد ما هدأت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقد حاولت من خلال ذلك أن أعطي صورة واضحة عن الحركة الشعرية في العصر الأموي ، ومدى ما كان لهذه المتغيرات من مساهمة ليس فسيحي تنشيط الحركة الشعرية فحسب ، وإنما في تحديد مساراتها ، حيث تفوقت بعض الموضوعات الأخرى ، وغطت على واجهة الشعر العربي آنذاك .

وأما الباب الأول والذي جعلته في فصلين ، فقد أبرزت في بدايته الفصل الأول منه بعض الملامح التي تؤكد ظهور أثر الإسلام في الشعر الأموي بشكل يفوق ذلك الذي يلسمه الباحث في عصر صدر الإسلام .

ثم حاولت أن أبرز العوامل التي ساعدت على ذلك ، والتي تتمثل في نشأة الشعراء نشأة إسلامية وتربيتهم في ضوء تعاليم هـذا الدين الحنيف ، مما أتاح لمفاهيمه

أن تمتزج في نفوسهم وتختمر فيها مما ساعد على ظهور العناصر الدينية في شعرهم . كما أن معرفتهم بالقرآن الكريم بما يحتويه من التعاليم والقيم ، إضافة إلى كونهم عاشوا في بيئة إسلامية اتخذت الإسلام منهجاً لحياتها ، كل ذلك كان سبباً مهماً ساعد الشعراء على إبراز المفاهيم الجديدة التي جاء بها هذا الدين في ثنايا قصائدهم .

كما كان للحياة الدينية دورها الفعال في ذلك ، حيث انتشرت في بعض الحواضر الإسلامية حركة زهد ونسك وتقشف ووعظ، وكان لها تأثيرها على الشعراء من خلال ارتيادهم لبعض المجالس الدينية . أما العامل الأخير فهو يتجلى في الصراع السياسي الدائر في هذا العصر بين الأمويين وأحزاب المعارضة السياسية ، إذ ساهم - هو أيضاً - في بروز العناصر الدينية في الشعر . فقد كان يدور حول قضية دينية هي الخلافة الإسلامية التي وجدت في ظل هذا الدين ، ومن واقع إدراك الشعراء لهذه الحقيقة فقد كانوا حريصين على توظيف العناصر الإسلامية في التعبير عن فكرهم الحزبي ، أو في تأييد وجهة نظر حزبهم في الخلافة .

وقد ذكرت في نهاية الفصل أن بروز الطابع الجاهلي ، وسيطرته على بعض القصائد الشعرية التي تعود للعصر الأموي يرجع إلى أن شعراءها قد اطلعوا بشكل أو بآخر على تجارب سابقيهم من الجاهليين والمخضرمين الذين يمثلون بالنسبة لهم المثل الذي يحتذى في عالم

الشعر ، ومن هنا استمرت لديهم بعض المفاهيم القديمة ، إضافة إلى أن طابع العصر الأموي لم يكن على صورة من المثالية والالتزام الديني ، وإنما كان في بعض جوانبه ترسيخاً لبعض المفاهيم الجاهلية .

أما في الفصل الثاني فقد حاولت أن أبرز التطور الكبير الذي طرأ على القصيدة العربية في العصر الأموي على هدي الإسلام ، وذلك من خلال دراسة ثلاث قصائد شعرية مختلفة الموضوعات غلب عليها المضمون الإسلامي إن لم يكن سادها .

أما الباب الثاني وهو "أثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي" فقد انقسم إلى أربعة فصول ، خصصت الفصل الأول منه للشعر السياسي ، وهو لونه امتاز بكثرة العناصر الإسلامية فيه وغلبتها على المضمون الشعري دون غيره من الموضوعات الأخرى ، فقد كان شعراء الأحزاب المختلفة من أمويين ، وزبيريين ، وشيعية ، وخوارج يعتمدون إلى إضفاء الصفات الدينية على رجالات حزبهم لما يتطلبه هذا المنصب الديني من صفات معينة يلزم اتصاف صاحبها بها ، كما أنهم كانوا يستعملون في هجاء خصومهم السياسيين بعض الألفاظ ذات المدلول الديني كالنفاق والشرك والإلحاد والكفر . وقد اتضح أن شعراء الأمويين - دون شعراء الأحزاب السياسية الأخرى - كانوا يلجأون إلى المبالغة في تصوير التزام مدحهم الديني ، وذلك يعود - كما بينت - إلى أن جلهم من المحترفين الذين ينصب اهتمامهم على الحصول على مزيد من العطايا والهبات دون اهتمام

بجانب الصدق والواقعية .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن الغزل بلونيه العذري والصريح ، وتوقفت في بدايته عند قضية رأيت أنها جديرة بالمناقشة ، وهي تتمثل في نشأة الغزل العذري ودور الإسلام في ذلك . وتوصلت من خلال مناقشتي للتفسيرات العديدة التي طرحها الدارسون حول الموضوع ، إلى أن للإسلام الدور الأكبر والأهم في ذلك . حيث غرس في النفوس بعض القيم والتعاليم التي تنظم العلاقة الجنسية في المجتمع الإسلامي ، والتي تهذب النفوس بدعوتها إلى العفة ، وتردع كل من تسول له نفسه مخالفة هذا النظام . وقد انعكس هذا كله على الغزل العذري الذي جاء عفيفاً ينم عن نفوس مؤمنة نقية استعلت على أهوائها ، ولم تستسلم لشهواتها إذعاناً لأوامر الله .

ثم بينت الملامح الإسلامية التي ظهرت في شعر الغزل بلونيه العذري والصريح ، وهي ملامح تدل على تغلغل الإسلام في نفوس شعرائه على الرغم مما يتسم به الغزل من مخالفة للإسلام الذي يدعو إلى كبح الشهوات ، وعدم الركض خلف أهواء النفس .

وأما الفصل الثالث فقد خصصته لشعر الهجاء ، وقد كشفت فيه أن قصيدة الهجاء في العصر الأموي إلى جانب تمسكها بالمثل الجاهلية القديمة بحكم دوافعها التي تتمثل في العصبية القبلية والنزعات

الفردية كانت تحمل بعض العناصر الإسلامية الجديدة ، التي استلهمها الشعراء مما جاء به الإسلام من قيم وتعاليم . وتجلّى ذلك في تعبيرهم بالنصرانية ، وبسخريتهم من طقوسها الدينية ، وهجائهم بارتكاب المعاصي من زنا ، وشرب خمر ، وترك للصلاة ، وتهاون في أداء الفرائض الدينية ، كما تمثل في تناولهم لبعض الظواهر السلبية في المجتمع الإسلامي من نفاق ورياء وما إليها . وأوضحت في نهاية الفصل أن جزءاً من هذا الهجاء المتأثر بالدين ليس إلا مقطوعات قصيرة سادها المضمون الديني مما يعطي دلالة على مدى وضوح هذا التأثير على هذا الموضوع الشعري .

أما الفصل الرابع والأخير في هذا الباب ، فقد درست فيه بعض الموضوعات الأخرى التي لم يتيسر المجال للتعرض لها من قبل ، أو أُلِّمَتْ بها إلماً بسيطاً .

وقد بدأت بقصيدة الفخر التي عاودت نشاطها على الساحة الشعرية في هذا العصر ، نتيجة لعودة العصبية القبلية ، وقد ظهر لي أن هذا اللون الشعري قد بدت عليه - كسائر موضوعات الشعر الأموي - بعض الملامح الجديدة التي ترجع إلى الإسلام ، إذ أظهر شعراؤه فخرهم بهذا الدين والانتماء إليه ، كما كانوا يفخرون بالأدوار الهامة أو المواقف التاريخية التي قامت بها قبائلهم أو أحد أفرادها في خدمته ، بالإضافة

إلى فخرهم بالانتماء إلى قبيلة تلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم في النسب .

أما الموضوع الثاني فتناولت فيه شعر الصعاليك وهم تلك الفئة من البشر التي عادت إلى الحياة العربية في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها المجتمع العربي في العصر الأموي . وعلى الرغم من أن الباحث الملم بحياة الصعاليك والمتفهم لطبيعتها التي تتنافى مع تعاليم الإسلام وقيمه قد يستبعد أن يتأثر شعراؤهم بالإسلام ، فإن دراسة شعرهم أكدت تأثرهم بهذا الدين ، إذ ظهرت فيه بعض العناصر المستمدة من الإسلام ، والتي تتجلى في إيمانهم العميق بالله ، وقوة علاقتهم به ، حيث يلجأون إليه بالدعاء فيما يواجههم من أزمات ، وهو دليل على تمكن الإسلام من نفوسهم .

والموضوع الثالث الذي تحدثت عنه في هذا الفصل هو شعر الزهد وقد أشرت في البداية إلى بعض العوامل التي ساعدت على انتشار موجة الزهد في العصر الأموي ، والتي تتلخص في أن بعض الذين خسروا الحروب الداخلية في العراق ، وعجزوا عن اقتناص الخلافة من الأمويين تحولوا إلى الزهد في الحياة وجعلوا أمانيتهم في الآخرة ، كما أن انتشار اللهو والمجون في بعض الأمصار الإسلامية ، وإقبال الناس على مغريات الحضارة دفع ببعض الأفراد الملتزمين إلى اتخاذ الزهد سبيلاً لحياتهم هرباً من التأثير بهذا التيار الحضاري الجديد .

وقد كشفت من خلال النماذج العديدة التي طرحتها الدراسة والتي تدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا ، وتنتقد المغترين بها ، وتذكر بالموت ، وترغب في الحياة الآخرة ، أن شعر الزهد قد شهد مولده الحقيقي في العصر الأموي ، ثم تطور بعد ذلك حتى أصبح ظاهرة فني العصر العباسي .

وأما الموضوع الأخير فقد كان شعر الوصف . ومن خلال الشواهد الشعرية التي ذكرتها اتضح أن موضوع الوصف قد تأثر هو الآخر بالإسلام ، وانعكست على أبياته بعض الملامح الإسلامية .

وأما الباب الأخير فقد خصصته لدراسة " أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الأموي " ، وقد كشفت فصوله الثلاثة عن ثقافة إسلامية عميقة كان يمتلكها شعراء العصر الأموي ، وتجلي ذلك في إداكهم التام لأُمُور العقيدة الإسلامية من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، ومعرفتهم بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وفهمهم للمثل والأخلاق الإسلامية هذا أولاً ، وثانياً في إلمامهم بالأحكام الفقهية والحدود الشرعية ، وثالثاً في استفادتهم من القصص القرآني استفادة كبيرة في رسم صورهم الفنية .

وأخيراً ، فإنني أرجو أن أكون بهذه الدراسة قد أسهمت بجهـد متواضع في سد نقص في مجال الدراسات الأدبية ، مع يقيني بأن هذا

الموضوع قابل لأن يكون مجالاً للمزيد من الدراسات ، لأنه يتناول عَصراً
من أغنى العصور الأدبية العربية إن من حيث غزارة الإنتاج وكثرة
الشعراء، أو من حيث تعدد الموضوعات.
وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. ،،،

~~~~~  
~~~~~

الاصناف والشرائع

"المصادر والمراجع"

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- الأمدي ، الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ) .
المؤتلف والمختلف ، تحقيق د . ف . كركو ، الطبعة الثانية ،
دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٣- الأحوص ، عبد الله بن محمد الأنصاري (ت // ١٠١ - ١٠٥ هـ)
شعر الأحوص الأنصاري ، جمع وتحقيق عادل سليمان جمال ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٣٩٠ هـ .
- ٤- الأخطل ، غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٢ هـ) .
شعر الأخطل ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، الطبعة الثانية ،
دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ٥- الأصبهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) .
الأغاني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- ٦- الأسدي ، عبد الله بن الزبير (ت ٧٥ هـ) .
ديوان عبد الله بن الزبير الأسدي ، جمع وتحقيق د . يحيى الجبوري
وزارة الاعلام ، العراق ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ٧- الأسدي ، الكميت بن زيد (ت ١٢٦ هـ) .
أ - شرح القصائد الهاشميات (ضمن كتاب الروضة المختارة) ،
مؤسسة النعمان ، بيروت ، ١٩٧٩ م .

ب - شعر الكميت بن زيد الأسدي ، جمع وتحقيق د . داود سلوم
مكتبة الأندلس ، بغداد ، ١٩٦٩ م .

٨ - الأعجم ، زياد

شعر زياد الأعجم ، جمع وتحقيق د . يوسف حسين بكار ، الطبعة
الأولى .

٩ - الأعشى ، ميمون بن قيس بن جندل .

أ - ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق د . محمد محمد حسين
مكتبة الآداب بالجمايز ، مصر .

ب - الصبح المنير في شعر أبي بصير .

مطبعة أدلف هلزهوسون ، بيانه ، ١٩٢٧ م .

١٠ - أعشى همدان ، عبد الرحمن بن الحارث بن نظام (ت // ٨٣ هـ)

ديوان أعشى همدان واخباره ، تحقيق د . حسن عيسى ابوياسين
دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

١١ - الألباني ، محمد ناصر الدين .

سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الطبعة الأولى ، دار السلفية ،

الكويت ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

١٢ - أمين ، أحمد .

فجر الاسلام ، الطبعة الحادية عشرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،
١٩٧٩ م .

- ١٣- الأنصاري ، عبد الرحمن بن حسان (ت ١٠٤ هـ) .
شعر عبد الرحمن بن حسان الأنصاري ، جمع وتحقيق د . سامي
مكي العاني ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧١ م .
- ١٤- بروكلمان ، كارل .
تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، الطبعة الرابعة
دار المعارف بمصر .
- ١٥- البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) .
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد
هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- ١٦- البكري ، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) .
سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني ،
الطبعة الثانية ، دار الحديث للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ .
- ١٧- ابن بكار ، الزبير (ت ٢٥٦ هـ) .
أ - الأخبار الموفقيات ، تحقيق د . سامي مكي العاني ، رئاسة
ديوان الأوقاف ، بغداد ، ١٩٧٢ م .
ب - جمهرة نسب قریش ، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة
دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .
- ١٨- البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
أنساب الأشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- ١٩- البهيتي ، نجيب محمد .
تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، دار الثقافة
المغرب ، ١٩٨٢م .
- ٢٠- التيمي ، عمر بن لجأ .
شعر عمر بن لجأ التيمي ، تحقيق د . يحيى الجبوري ، الطبعة الثانية
دار القلم ، الكويت ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٢١- التيمي ، معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) .
كتاب النقائص (نقائص جرير والفرزدق) ، اعتناء المستشرق بيفان
نسخة مصورة عن طبعة ليدن سنة ١٩٠٥م .
- ٢٢- ابن ثابت ، حسان .
ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د . سيد حنفي حسنين .
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
- ٢٣- الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) .
أ - البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة
الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٥م .
ب - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، مكتبة
ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .
- ٢٤- الجبوري ، د . يحيى وهيب .
أ - الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة

- الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ب - شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٢٥ - ابن جعفر ، قدامة (ت // ٣٣٧هـ)
نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- ٢٦ - الجمحي ، وهب بن زمعة بن أسيد (ت // ١٢٦هـ) .
ديوان أبي دهيل الجمحي ، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن ،
الطبعة الأولى ، مطبعة القضاء ، النجف الأشرف ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- ٢٧ - الجمحي ، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ) .
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ،
١٩٧٤م .
- ٢٨ - ابن جني ، عثمان (ت ٣٩٢هـ) .
الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، الطبعة الثانية ، دار الكتب
المصرية ، القاهرة ، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
- ٢٩ - الجواري ، أحمد عبد الستار .
الحب العذري نشأته وتطوره ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٣٦٧هـ -
١٩٤٨م .

- ٣٠- حسن ، د . حسن ابراهيم .
تاريخ الإسلام ، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
١٩٦٤ م .
- ٣١- حسين ، طه .
حديث الأربعاء ، الطبعة الثالثة عشرة ، دار المعارف بمصر .
- ٣٢- حسين ، د . محمد محمد .
الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة
العربية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٣٣- حميد الله ، محمد .
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة
الثالثة ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٣٤- الحميري ، يزيد بن مفرغ (ت ٦٩ هـ) .
ديوان يزيد بن مفرغ الحميري ، جمع وتحقيق د . عبد القدوس ابو
صالح ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٣٥- الحوفي ، د . أحمد محمد .
أدب السياسة في العصر الأموي ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة
مصر للطباعة والنشر .
- ٣٦- الخزاعي ، كثير بن عبد الرحمن (ت ١٠٥ هـ) .
ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ،
١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

- ٣٧- الخطفي ، جرير بن عطية (ت ١١٤ هـ) .
ديوان جرير ، تحقيق د . نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف
بمصر .
- ٣٨- الخطيب ، محمد عجاج .
السنة قبل التدوين ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة—
١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ٣٩- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) .
المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٤٠- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) .
وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ،
بيروت .
- ٤١- خليف ، يوسف .
أ - حياة الشعر في الكوفة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة—
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
ب - ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، دار المعارف ، ١٩٧٠ م .
ج - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، الطبعة الثانية ،
دار المعارف بمصر .

- ٤٢- الدارمي ، مسكين (ت / ٨٩ هـ) .
- ديوان مسكين الدارمي ، جمع وتحقيق عبد الله الجبوري ، وخايل
ابراهيم عطية ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٤٣- الدهان ، د . محمد سامي .
الهجاء ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
- ٤٤- الدؤلي ، ظالم بن عمرو بن سفيان (ت // ٦٧ هـ) ديوان أبي
الأسود الدؤلي ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، الطبعة الأولى ،
دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ٤٥- ابن ذريح ، قيس .
قيس ولبنى شعر ودراسة ، جمع وتحقيق د . حسين نصار ، مكتبة
مصر القاهرة ، ١٩٧٩ م .
- ٤٦- ذو الرمة ، غيلان بن عقبة العدوي (ت ١١٧ هـ) .
ديوان ذي الرمة ، تحقيق مطيع بيلي ، الطبعة الثانية ، المكتب
الاسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٤٧- الراعي النميري ، عبيد بن حصين بن معاوية (ت نحو ٩٠ هـ) .
شعر الراعي النميري ، دراسة وتحقيق د . نوري حمودي القيسي
وهلال ناجي ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠٠ هـ -
١٩٨٠ م .

- ٤٨- ابن أبي ربيعة ، عمر .
ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
دار الأندلس .
- ٤٩- ابن رشيق القيرواني ، الحسن . (ت ٤٥٦ هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، دار الجيل ، بيروت .
- ٥٠- ابن الرقيات ، عبيد الله بن قيس (ت ٧٥ هـ) .
ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق محمد يوسف نجم ،
دار صادر ، بيروت .
- ٥١- سركيس ، إحسان .
الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الأموية ، الطبعة الأولى ،
دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- ٥٢- ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ) .
الطبقات الكبرى ، دار بيروت ، بيروت ، ١٣٧٧ هـ .
- ٥٣- سعد ، محمد علي .
الأحوص بن محمد الأنصاري حياته وشعره ، الطبعة الأولى ، دار
الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٥٤- السكري ، الحسن بن الحسين . (ت / ٢٧٥ هـ)
شرح اشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، مكتبة دار العروبة .
- ٥٥- الشايب ، أحمد .
تاريخ الشعر السياسي ، الطبعة الخامسة دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ م .

- ٥٦- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ) .
الملل والنحل ، صححه وعلق عليه الشيخ أحمد فهمي محمد ، الطبعة
الاولى ، مكتبة الحسين التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٨ م .
- ٥٧- ضيف ، شوقي .
أ - التطور والتجديد في الشعر الأموي ، الطبعة السادسة ،
دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ م .
ب - الشعر والغناء في المدينة ومكة في عصر بني أمية ، الطبعة
الرابعة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٩ م .
ج - العصر الاسلامي ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .
- ٥٨- الطائي ، أبو تمام حبيب بن أوس (ت ٢٣١ هـ) .
الحماسة ، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، جامعة الإمام محمد
ابن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٥٩- الطائي ، الطرماح بن حكيم (ت نحو ١٠٥ هـ) .
ديوان الطرماح ، تحقيق عزة حسن ، مديرية احياء التراث القديم
دمشق ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٦٠- الطبري ، محمد بن جزي (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة
الرابعة ، دار المعارف بمصر .

- ٦١- ابن الطثرية ، يزید (ت ١٢٦ هـ) .
شعر یزید بن الطثرية ، جمع وتحقیق ناصر الرشید ، دار الوثیقة ،
دمشق .
- ٦٢- عباس ، د . إحسان .
شعر الخوارج ، جمع وتحقیق إحسان عباس ، الطبعة الرابعة ، دار
الشروق ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٦٣- عبد بنی الحساس ، سحیم
دیوان سحیم ، تحقیق عبد العزیز المیمنی ، الطبعة الأولى ، دار
الکتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
- ٦٤- ابن عبد ربہ ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ) .
العقد الفرید ، تحقیق أحمد أمين وآخرین ، الطبعة الثانية ، لجنة
التألیف والترجمة والنشر .
- ٦٥- عبد الرحمن ، نصرت .
فی النقد الحدیث ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأقصى ، عمان ١٣٩٩ هـ -
١٩٧٩ م .
- ٦٦- عبد الواحد ، د . مصطفى .
أثر الإسلام فی شعر الفرزدق ، الطبعة الأولى ، دار الإصلاح ، الدمام
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- ٦٧- العذري ، جميل بن معمر (ت // ٨٢ هـ) .
ديوان جميل ، جمع وتحقيق د . حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٧٩ م .
- ٦٨- العرجي ، عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان (ت ١٢٠ هـ)
ديوان العرجي ، شرح وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي ،
الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٣٧٥ هـ .
- ٦٩- عروة بن أذينة ، يحيى بن مالك بن الحارث (ت // ١٣٠) .
شعر عروة بن أذينة ، تحقيق د . يحيى الجبورى ، الطبعة الثالثة ،
دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٧٠- العسقلاني ، أحمد بن على بن حجر ، (ت ٨٥٢ هـ) .
أ - تهذيب التهذيب ، نسخة مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف ،
النظامية بحيدرآباد الدكن .
ب - فتح الباري بشرح البخاري ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
بمصر ، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .
- ٧١- عطوان ، د . حسين .
الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م .
- ٧٢- الفرزدق ، همام بن غالب بن صعصعة (ت ١١٤ هـ) .
أ - ديوان الفرزدق ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
ب - ديوان الفرزدق ، عني بجمعه والتعليق عليه عبد الله الصاوي
المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

- ٧٣- فيصل ، د . شكري .
تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، الطبعة الخامسة ، دارالعلم
للملايين .
- ٧٤- القاضي ، النعمان عبد المتعال .
أ - شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
ب - الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ، دار المعارف بمصر .
- ٧٥- القالي ، على اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) .
الأمالي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م .
- ٧٦- قباوة ، د . فخر الدين .
الأطل الكبير حياته وشخصيته وقيمه الفنية ، الطبعة الثانية ، دار
الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ٧٧- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) .
أ - الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، الطبعة
الثالثة ، دار التراث العربي ، ١٩٧٧م .
ب - عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م .
ج - المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .

- ٧٨- القطامي، عمير بن شيعم بن عمرو بن عباد (ت / ١٠١ هـ) .
ديوان القطامي ، تحقيق د . ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ،
الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ م .
- ٧٩- القط ، د . عبد القادر .
في الشعر الإسلامي والأموي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م .
- ٨٠- القلماوي ، سهير .
أدب الخواج ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٥ م .
- ٨١- القيرواني ، عبد الكريم النهشلي (ت ٤٠٣ هـ) .
الممتع في علم الشعر وعمله ، تحقيق د . منجي الكعبي ، الدار العربية
للكتاب ، ١٩٧٧ م .
- ٨٢- القيسي ، نوري حمودي .
شعراء أمويون ، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي .
أ - الجزء الأول ، جامعة الموصل ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
ب - الجزء الثاني ، جامعة بغداد ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
ج - الجزء الثالث ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ،
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٨٣- الكفراوي ، د . محمد عبد العزيز .
تاريخ الشعر العربي عصر صدر الإسلام وعصر بني أمية ، دار نهضة
مصر للطبع والنشر .

- ٨٤- الميثي، المتوكل .
شعر المتوكل الميثي ، جمع وتحقيق د . يحيى الجبوري ، مكتبة
الأندلس ، بغداد ، ١٩٧١ م .
- ٨٥- المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) .
الكامل ، علق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر للطباعة
والنشر .
- ٨٦- المخزومي ، الحارث بن خالد (ت // ٨٤ - ٨٥ هـ) .
شعر الحارث بن خالد المخزومي ، جمع وتحقيق د . يحيى الجبوري ،
الطبعة الثانية ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٨٧- مردم بك ، خليل .
الشعراء الشاميون ، تحقيق عدنان مردم بك ، دار صادر ، بيروت .
- ٨٨- المرزباني ، محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤ هـ) .
أ - معجم الشعراء ، تحقيق د . ف. كركو ، الطبعة الثانية ، دار
الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
ب - الموشح مأخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق علي محمد البجاوي
دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ٨٩- المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ .

- ٩٠- المرصفي ، سيد بن علي .
رغبة الآمل من كتاب الكامل ، الطبعة الثانية ، مكتبة دار البيان ،
بغداد ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ٩١- المقداد ، محمود .
ديوان أشعار الموالي ، جمع وتحقيق محمود المقداد ، ملحق رسالة
ماجستير ، دمشق ، ١٩٨٢م . مخطوط .
- ٩٢- ابن الملوح ، قيس .
ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق أحمد عبد الستار فراج ، مكتبة
مصر ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
- ٩٣- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ) .
لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .
- ٩٤- المنقري ، نصر بن مزاحم . (ت ٢١٢هـ)
وقعة صفين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ،
المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .
- ٩٥- نابغة بني شيبان ، عبد الله بن المخارق بن سليم . (ت نحو ١٢٧هـ)
ديوان نابغة بني شيبان ، تقديم أحمد نسيم ، الطبعة الأولى دار
الكتب المصرية ، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

- ٩٦- النابغة الجعدي ، قيس بن عبد الله بن عدس .
شعر النابغة الجعدي ، تحقيق عبد العزيز رباح ، الطبعة الأولى
المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٩٧- النص ، إحسان .
العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، دار اليقظة العربية .
- ٩٨- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ) .
صحيح مسلم ، طبع وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى ،
دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٧٤ هـ .
- ٩٩- ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ) .
السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، الطبعة الثانية ، مكتبة
مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .
- ١٠٠- هلال ، محمد غنيمي .
الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الطبعة الثانية ، دار نهضة
مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- ١٠١- الهلالي ، حميد بن ثور .
ديوان حميد بن ثور الهلالي ، صنعة عبد العزيز الميمني ، الطبعة
الأولى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م .
- ١٠٢- ابن يزيد ، الوليد (ت ١٢٦ هـ) .
ديوان الوليد بن يزيد ، جمعه وحققه غابريلي ، دار الكتاب الجديد ،
١٩٦٧ م .

١٠٣ - ابن يسار ، اسماعيل

شعر اسماعيل بن يسار، جمع وتحقيق د . يوسف حسين بكار .
الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

الموسوعات :

=====

١- دائرة المعارف الإسلامية ، يصدرها أحمد الشنتناوي وغيره .

الجزء العاشر .

الدوريات :

=====

١- مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات

الإسلامية ، مكة المكرمة ، العدد الخامس ، ١٤٠٢ هـ .

=====

"فهرس الموضوعات"

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ - هـ
التمهيد : المتغيرات السياسية والاجتماعية وأثرها على الشعر الأموي .	
الحركة الشعرية قبل العصر الأموي	١
المتغيرات السياسية	٩
المتغيرات الاجتماعية	
أ - الترف	٣٢
ب - عودة العصبية القبلية .	٣٩
الباب الأول : أثر الإسلام في الشعر الأموي	
الفصل الأول : العوامل المؤثرة	
أثر الإسلام في شعر صدر الإسلام	٥٣
أثر الإسلام في الشعر الأموي	٦٤
العوامل المؤثرة	٦٦
الفصل الثاني : تطور القصيدة العربية في العصر	
الأموي على هدي الإسلام	٧٥
١ - المديح	٧٨
٢ - الرثاء	٨٣
٣ - الهجاء	٩١

الصفحة

الموضوع

الباب الثانى : أثر الإسلام فى موضوعات الشعر الأموي

الفصل الأول : الشعر السياسي

١٠١ ١ - شعر الأمويين

١١٧ ٢ - شعر الزبيريين

١٢٢ ٣ - شعر الشيعة

١٣٠ ٤ - شعر الخوارج

الفصل الثانى : الغزل

١٤٤ ١ - الغزل العذري

١٤٥ أ - دور الإسلام فى نشأة الغزل العذري

١٥٨ ب - أثر الإسلام فى الغزل العذري

١٦٩ ٢ - الغزل الصريح

الفصل الثالث : الهجاء

١٨٤ ازدهار الهجاء فى العصر الأموي

١٨٩ ملامح الهجاء الديني

الفصل الرابع : موضوعات أخرى

٢١٥ ١ - الفخر

٢٢٩ ٢ - شعر الصعاليك

٢٤١ ٣ - شعر الزهد

٢٥٨ ٤ - الوصف

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث : أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الأموي	٢٦٥
الفصل الأول : العقيدة والعبادات والأخلاق الإسلامية	
١- العقيدة	٢٧٠
٢- العبادات	٢٩٥
٣- المثل والأخلاق الإسلامية	٣٠٢
الفصل الثاني : الأحكام الفقهية والحدود الشرعية	
١- الأحكام الفقهية	٣٠٦
٢- الحدود الشرعية	٣١٠
الفصل الثالث : القصص القرآني	٣١٣
الخاتمة	٣٢٨
المصادر والمراجع	٣٣٧